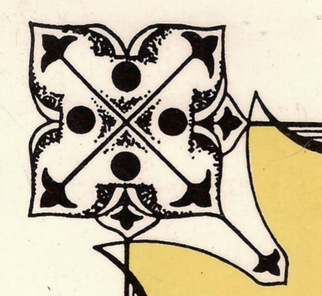
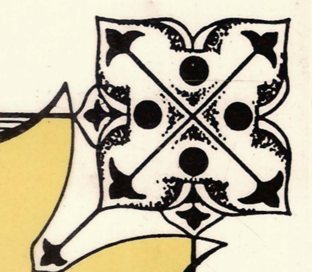



أدوات الحكم والولاية في السودان

تأليف

الدكتور محمد ابراهيم أبو سليم

دار الجيل

بيروت

أُدواتُ الحُكْمِ والولاية
في السُّودان


DAWAYA
SUDANESE BOOKS

أُدَواتُ الحُكْمِ والولاية في السُّودان

تأليف

الدكتور محمّد ابراهيم أبو سليم

دار الجيل
بيروت

جميع الحقوق محفوظة لدار الجيل

الطبعة الأولى
١٤١٣هـ - ١٩٩٢م

مقدمة

بدأ مشوار هذا الكتاب بمذكرة إدارية أعددناها بصدد طلب زعيم قبلي للحصول على نحاس. وقد أبقينا نسخة من المذكرة ومسوداتها والبيانات التي جمعناها بنية العودة إليها وتطويرها إلى دراسة. وكلما وقفنا على معلومة تصل بالنحاس أضفناها إليها. ثم اتفق أن عيّن الأستاذ ابراهيم موسى موظفاً في دار الوثائق القومية أثر تخرجه في جامعة الخرطوم. وكان شاباً مثابراً يسعى إلى الدرس بمهمة، فأوكلنا إليه في إطار ما نوينا أن يكتب بحثاً عن النحاسات، فأعد بحثاً جيداً عن دور النحاس في مجتمع الفور. ولسرورنا بهذا البحث ورغبة منا في تشجيعه دفعناه إلى موضوع آخر وهو دراسة سيوف السودان. وقد اندفع إليه بحماس، إلا أنه بعد قليل التحق مساعد تدريس بجامعة الخرطوم وسافر إلى الخارج للدراسات العليا، وبالتالي تخلى عن دراسة السيوف. وإثر برنامج ناجح لصديقنا الطيب محمد الطيب عن السيوف في تلفزيون السودان اتفقنا على أن نكتب معاً بحثاً عن السيوف إلا أن همتنا لم تصل بنا إلى التنفيذ. ولما صدرت مجلة الوثائق ـ وكانت دورية تصدر عن دار الوثائق ووقفت عن الصدور بعد عدة أعداد ـ نشرنا فيها ملخصاً للمذكرة الإدراية مع بعض إضافات. وفي نفس الوقت اتجه عزمنا إلى كتابة بحث عن الألوان عند الطرق الصوفية ويمتد إلى الرايات، وقمنا كالعادة بإعداد ملف نجمع فيه كل ما نصل إليه عن الألوان والرايات. وبعد أن اكتمل تحقيق الآثار الكاملة للإمام المهدي اتجه تفكيرنا إلى إعداد البحثين بنية نشرهما في مجلة الدراسات السودانية.

غير أننا استصوبنا أن نضيف إلى البحثين مدونات عن بعض آلات التصوف والملك وأن نجعل كل ذلك في كتاب يكون عوناً للباحثين البادئين ومتعة لعامة القراء. وهكذا استوت فكرة الكتاب في الذهن وأقبلنا نجمع المادة عن كل آلة حتى بلغنا ما يراه القارئ . وقد كتبنا بعض الصفحات في الخرطوم وأجرينا طبعها بالآلة، غير أن المشروع لم يتقدم لمشاغل الخرطوم وضغوطها الاجتماعية.

ثم حانت الفرصة عندما ذهبنا إلى جامعة بيرجن بالنرويج في سبتمبر ١٩٩٠ أستاذاً زائراً بقسم التاريخ وأتيح لنا من الوقت والمراجع وسبل الطبع ما شجعنا على مراجعة ما كتبنا وإتمام ما تبقى، وهكذا كان.

وقد ضمن هذا الكتاب في برنامج التعاون المشترك بين قسم التاريخ بجامعة بيرجن ودار الوثائق القومية، وهو جزء من برنامج بين جامعة بيرجن وجامعة الخرطوم ودار الوثائق.

لقد عرضنا في هذا الكتاب معلومات عن أدوات يتخذها الملوك والأولياء ليؤدوا بها أغراضهم وصارت من لوازمهم. وهي ترد كثيراً في مصادر التاريخ، ولكن القارئ يمر عليها عادة مروراً سريعاً، أو هو يقف عندها ولكنه لا يجد ما يعينه عليها، إلا شروحات هنا وهناك ترد حسب اجتهاد الباحثين فتعطيه قدراً وتقف دون إشباعه. وقد هدفنا من هذا الكتاب إلى أن نجعل وقفة القارئ مع هذه الأدوات أطول وأن نبين له ما وراءها من أعراف وخلفيات حتى يدركها بوعي، ذلك لأن هذه الأدوات جزء من تراث السودان وطرف من نظمه السياسية والاجتماعية والدينية ولون من ألوان ثقافته.

وقد كان من المفيد أن نرجع إلى كتاب الطبقات لأنه يتضمن بعض أخبار هذه الأدوات وحامليها، فضلاً عن أن محققها بذل جهداً كبيراً في وصف هذه الأدوات وبيان بعضها بالصور. والبروفسور أوفاهي وصف مواكب الفور واحتفالاتهم وصفاً جيداً، وقد أتحفنا ببعض مدوناته الخاصة. والدكتور أندرس بيركلو أفادنا بصور لسيف وغمد عبد الله بك حمزة أخذها عن سيفه الذي وقف عليه في المتمة. وفي هوامش الترجمة الجيدة لرحلة ناختقال أورد المترجمان إرشادات جيدة. ويورد هذا الكتاب رحلة براون والتونسي بينات

مفيدة عن هذه الأدوات في دارفور كما أنها تصف مواكب الفور واحتفالاتهم بشكل جيد. وكانت مقالات آركل ومدوناته الخاصة مفيدة جداً، ومما يحمد لهذا الأستاذ الجليل أنه تنبه إلى أهمية بعض هذه الأدوات وتقصاها بصبر وأناة. وبحث الأستاذ ابراهيم موسى كان مفيداً جداً، وقد اعتمد فيه على كتب الرحالة بروان والتونسي وناختقال وعلى ما جمعه مباشرة من أفواه الناس.

ولقد بدأنا كتابنا بتوطئة حاولنا فيها أن نقرب موضوع الكتاب إلى القارىء وأن نعطيه بعض الأساسيات التي تهيىء له متابعة التفاصيل في صلب الكتاب.

وفي القسم الأول تكلمنا عن الكرر، وهو كرسي الملك والولاية في السودان، ويتخذ مركزاً مهماً، وإن كان لا يجلس عليه للعمل. وفي القسم الثاني تكلمنا عن اللباس في فترات التاريخ وأنواعه وأنماطه. وفي القسم الثالث تكلمنا عن الأدوات والآلات. وفي القسم الرابع تكلمنا عن جملة الآلات الإيقاعية مع تخصيص عناية ما بالنقارة. وفي القسم الخامس بينا موضع النحاس عند الحكام والأولياء ووجاهات المجتمع وما كان من رسوم عند الحكام وأعراف. وفي القسم السادس تعرضنا إلى تاريخ بعض النحاسات القبلية.

وإنا لنرجو أن يكون الكتاب من العون بحيث رجونا، ومن المتعة بحيث أحببنا.

ولا بد أن نشكر كل من عاون في هذا العمل من أي وجه كان، وأن نخص الدكتور أندرس بيركلو والبروفسور ر. ش أوفاهي على ما قدما من عون وتشجيع والشكر للدكتور عبد الله علي ابراهيم وللأستاذ شريف حرير على مراجعته لمادة الزغاوة. والشكر خالصاً للأساتذة الطيب محمد الطيب وعبد الوهاب موسى ومحجوب محمد آدم والدكتور يحيى محمد ابراهيم على مراجعة المسودة وإبداء آراء وتوجيهات كانت مفيدة جداً، وللدكتور علي صالح كرار على ما أعطى من اهتمام وقدم من مساعدة عند الطبع. وللمهندس عوض الكريم ابراهيم أحمد الذي فك طلسم الكمبيوتر بعد أن

استعصي. والشكر للسيدة سميحة أحمد بجـامعة بيـرجن التي طبعت المسودة الأولى. ولـلآنسة منى محمـد أبا يـزيد بـدار الوثـائق التي طبعت المسـودات التالية حتى أكملت الكتاب على وجهه الأخير.

والحمـد والشكر من قبـل ومن بعد لله سبحـانه وتعـالى على مـا هـدى ووفق.

توطئة

جرت نظم الدول منذ غابر الزمان على أن تكون لها آلات وشارات تكون عند الحاكم وكبار أعوانه ممن يقومون بمهمات كبرى للدولة كوظائف البلاط وقيادة الجيش والولاية على الأقاليم.

ومن هذه الآلات والشارت ما هو خاص بشخص الحاكم مثل التاج والسرير والكرر والطراز والعصا والسيف، ومنها ما تجري به أعمال الدولة كالختم والسكة على العملة، ومنها ما هو خاص بالجيش وبعض الوظائف والمناسبات كالرايات والأعلام والأوسمة والنياشين والأنواط، ومنها ما يرمز بها إلى اتجاهات الدولة ومعتقدات مواطنيها كالرمح والسيف وألوان الرايات وما عليها من نقوش كالهلال عند المسلمين والصليب عند النصارى والمقولات في مفتتح الرسائل وعلى الجدران ونقوش الختم والسيوف.

والآلات والشارات مقتبسة من عادات الأمم ومعتقداتها، ويجري تنظيمها وتداولها وفق تقاليد دقيقة. وهي موضع التجلة والاحترام من كل فرد للمعاني السامية التي ترمز إليها وهي، من بعد، من أبهة الملك ودليل قوته وعظمة الملوك وأعوانهم، وهي ترتقي صناعة وتتعدد نوعاً وتتعمق اجتماعياً كلما كانت الدولة ثرية غنية ومتسعة وذات جذور تاريخية.

وأهم آلة في أيامنا هذه هي العلم، فهو رمز الأمة وشعارها وموضع العز والفخار والتجلة من الدولة ورجالها ومن كل فرد في الأمة وتهون دونه الأرواح مهما عزت. ولذلك يقال لمن يجندون تجنيداً عاماً أنهم في خدمة العلم

باعتبار أنهم في خدمة الأمة، موازياً العلم بالأمة. ولاستعمال العلم نظم وتقاليد ويصاحبه عادة نشيد خاص به وموسيقى خاصة، وهو يرفع في قصور الحكم ومواقع السيادة. وهناك الرموز التي تصاحب الشارات، مثل السيف والمطرقة والسندان والصليب، معتدلاً أو معقوفاً، والصقر والأسد والهلال والألوان. وكانت أهم أدوات القيادة في السودان إلى عهد قريب النقارة، أي النحاس، تؤدى بها الأغراض وترمز إلى العز والكينونة.

وتعرض الآلات والشارات عندما يكون الحاكم في ديوانه، دليلاً على مباشرته للعمل وزيادة في أبهته وجلاله، ويكون لها موقع مهم في طقوس التتويج ومراسم التعيين والمناسبات القومية والدينية والاحتفالات العامة. وهناك آلات وشارات من دونها تكون حيث يباشر الأعوان أعمالهم.

وبعض التنظيمات الاجتماعية والسياسية ـ كالطوائف الدينية مثلاً ـ لها أدواتها وشاراتها كالرايات والسبح والككرات والنقارات، تحتفظ بها وتحتفي بها في مناسباتها.

وقد عرفت الآلات والشارات في جميع الدول القديمة والحديثة، عرفتها مصر القديمة وحضارات الرافدين واليونان والرومان والروم والفرس والدول الإسلامية المتعاقبة بدءاً بعهد الرسول عليه الصلاة والسلام وإلى يومنا هذا. ونحن في هذا البحث نتعرض إلى ما كان للسودان من نصيب من ذلك.

وكان المسلمون في أول عهدهم لا يقبلون الرمز للأمور بعلامات تمثلها ابتعاداً بهم عن الوثن، ولا يقبلون الأبهة والرسوم لأنها تقربهم إلى تقاليد الملك وطقوسه البعيدة عن روح الإسلام، ولكنهم أخذوا بالآلات والشارات شيئاً فشيئاً بحكم الضرورة. وكان أول ما فعلوا اتخاذ الختم لتمهر به رسائل الرسول إلى الحكام المجاورين، وقد نصحه بذلك أحد أصحابه حتى يقبل الحكام رسائله، إذ هم لا يعتمدون الرسائل ما لم تكن مختومة بختم الحاكم. وكان ختم الرسول منقوشاً في خاتم من فضة يضعه في إصبعه الشريف، وكان نقشه بسيطاً يتكون من ثلاثة ألفاظ هي محمد رسول الله، وقد رتبت بحيث يكون اسم الجلالة هو الأعلى ولفظ رسول في الوسط واسم

محمد في السطر الأخير. ولو أمعنت النظر في هذا الترتيب لرأيت أنه يقدم اسم الجلالة ثم يعقبه بالرسالة ثم يأتي في النهاية باسم شخص الرسول. وقد استمر اتخاذ الختم من بعد الرسول، إلا أن الخلفاء من بعده زادوا في النقش العبارة الدالة على اتجاه الحاكم وتاريخ الختم. ومما اتخذ في عهد الرسول الرايات لترفع أمام الجيش، وكان رافع الراية شخصاً مهماً ويختار من بين من يشتهرون بالشجاعة والإقدام. وفي رفع الراية حث على القتال ورهبة للعدو، وسقوطها يعني الانهزام. وكعادة العرب في القتال حمل المسلمون منذ عهد الرسول الطبول في وقائعهم لرفع الحماس.

وفي مقدمته المشهورة عقد ابن خلدون فصلاً خاصاً للآلات والشارات هو الفصل السادس والثلاثون. ونظراً لأهمية الخلفية الإسلامية بالنسبة لآلات السودان وشاراته فإننا نورد فيما يلي ملخصاً لهذا الفصل المهم مع الاحتفاظ بأسلوب صاحبه: قال أولها السرير والمنبر والتخت والكرسي، وهي أعواد منصوبة أو آرائك منضدة لجلوس السلطان عليها مرتفعاً عن أهل مجلسه أن يساويهم في الصعيد، ولم يزل ذلك من سنن الملوك قبل الإسلام وفي دول العجم. وقد كانوا يجلسون على أسرة الذهب. وكان لسليمان بن دواد كرسي وسرير من عاج مغشى بالذهب. إلا أنه لا تأخذ به الدول إلا بعد الاستفحال والترف. وأول من أخذه في الإسلام معاوية بن أبي سفيان، وقد استأذن الناس فيه وقال لهم إني قد بدنت فأذن له أصحابه بذلك. وكان عمرو بن العاص في مصر يجلس في قصره على الأرض مع جلسائه على عادة العرب. وقد سمح، بغير حرج في نفسه، للمقوقس عظيم القبط، وفاءً له بما عقد معهم من الذمة بالجلوس أمامه على سرير من الذهب يؤتى به محمولاً عليه، شأن ما كان عليه الأمر في مصر قبل الفتح الإسلامي. ومنها السكة وهي الختم على الدنانير والدراهم. ومنها الختم وهو ما تمهر به رسائل الحاكم لتأخذ طابعها الرسمي. ومنها الطراز، وهو رسم اسم الحاكم أو علامة خاصة به في طراز ثوبه المعد للباسه من الحرير والديباج. ومنها الأخبية والفساطيط والسياج والفازات من ثياب الكتان والصوف والقطن. ومنها الآلة، وهي اتخاذ الآلة من نشر الألوية والرايات وتلوينها وإطالتها، فالقصد منه التهويل لا أكثر، إذ ربما تحدث في النفوس من التهويل زيادة في الإقدام.

ومن الملوك من هو مكثر من الآلات والشارات ومنهم من هو مقل منها، وذلك بحسب اتساع الدولة وقوتها وعظمتها. أما الرايات فإنها شعار الحرب من عهد الخليفة ـ وهنا بالغ ابن خلدون لأن الرايات عرفت بعد تمدن الإنسان واتخاذه القماش لا من بدء الخليفة ـ ولم تزل الأمم تعقدها في موطن الحروب والغزوات لعهد النبي ومن بعده من الخلفاء.

أما قرع الطبول والنفخ في الأبواق فكان المسلمون لأول الملة متخافين عنه تنزهاً عن غلظة الملوك ورفضاً لأحواله واحتقاراً لأبهته التي ليست من الحق في شيء.

وقد عرفوها بعد أن صارت الخلافة ملكاً، وبتأثير الفرس والروم. وكان الخليفة يعقد اللواء فيخرج في مواكب من أصحاب الرايات والآلات. ثم جاء الرمز إلى المواقف بالألوان، واتخذ بنو العباس الرايات السود حزناً على شهداء بني هاشم. ولما خرج الطالبيون عنهم اتخذوا الرايات بيضاً. وخرج المأمون عن لبس السواد واتخذ اللون الأخضر شعاراً وجعله في رايته. وملوك البربر لم يختصوا بلون وشوها بالذهب واتخذوا الرايات من الحرير الخالص بألوان مختلفة. والموحدون وزناتة من بعدهم قصروا الآلة من الطبول والبنود ـ ويقصد بها الرايات ـ على السلطان. وللترك راية واحدة عظيمة وفي رأسها خصلة كبيرة من الشعر يسمونها الشاش والجنر، وهي شعار السلطان عندهم. ثم تتعدد الرايات، ويسمونها السناجق، وأحدها سنجق، وهي الراية بلسانهم. أما الطبول فيبالغون في الاستكثار منها ويسمونها الكوسات.. انتهى ما أخذناه من كلام ابن خلدون.

أما في السودان فقد عرفت الآلات والشارات منذ زمن بعيد، وتقف دليلاً على ذلك الرسومات على الجدران في مصاحبة الحكام ورجال الدين. وظاهر أن الحضارة المصرية تركت أثراً بالغاً في ذلك، ويمكن أن يقال إن العوائد المصرية في هذا المجال كانت راسخة القدم في نبتا ومروى. وكانت هناك العوائد المحلية المرتبطة بالعناصر البشرية التي استوطنت السودان في حقب التاريخ المتلاحقة. ثم جاءت المسيحية بعوائدها، وتلاها الإسلام بالعوائد الإسلامية. وقد تولد عن كل ذلك شكل مهجن هو ما نعهده في رسم عهد السلطنات الإسلامية من دينية وملوكية.

إن موضوع الآلات والشارات في السودان في الفترة السابقة للسلطنات الإسلامية ـ الفور والفونج وتقلي ـ خارج عن نطاق هذا البحث بحكم أننا لا نملك رصيداً من العلم يجيز لنا أن نخوض به فيه.

وعندما نجيء إلى السلطنات الإسلامية نفسها فإن ما نعرفه عن آلاتها وشاراتها قليل لقلة أدبيات هذا العصر بشكل عام، ولعدم اهتمام الرواة بمثل هذه الأمور، لانشغالهم بتعاقب الملوك والوزراء وأخبارهم وأخبار الأعيان وتقلبات السياسة والاصطراع بين المتخاصمين على صعيد التحاور أو في موقع القتال. وعندما نقترب أكثر فإننا نجد أنه لم يبلغنا شيء عن آلات وشارات مملكة تقلي ما عدا القليل الذي نسمعه عن نقارتها. والوضع بالنسبة لدولة الفونج يبدو أحسن بالمقارنة إلى مملكة تقلي وذلك بفضل ما أورده كتاب الطبقات وتاريخ كاتب الشونة وكتب الرحالة وبعض الأخبار المروية والعادات الممارسة، ولكن ما بلغنا لا يقرب إلى ما وصلنا عن عوائد الفور. ومن الملفت أن الإدراة الإنجليزية لم تعن على الصعيد الإدراي بنقارات الفونج والمناطق التي خضعت لهم مثل عنايتها بنقارات الفور، لأن النقارات في مناطق النيل كانت قد فقدت قيمتها كمركز للسلطة. وقد كاد الناس أن ينسوا شارات دولة الفونج وأدواتها لأن الإدراة المصرية قضت على رسوم هذه الدولة لهيمنتها على الأقاليم التي كانت تخضع لها ولطول عهد هذا الخضوع، ولكن جانباً منها كان يمارس في الاحتفالات وخصوصاً احتفالات تتويج الملوك كالاحتفال الذي تم لملك فازوغلي. والوضع أفضل في دارفور لأن دارفور لم تخضع للإدارة المصرية إلا لسنوات قليلة. وفترة المهدية كانت قصيرة أيضاً ولم تستقر إدراتها في دارفور بحيث تقضي على الرسوم القديمة وتثبت رسوماً جديدة. وقد قاوم ثوار الفور العهدين التركي والمهدوي لإعادة دولتهم، وهذا جعل صورة هذه الدولة حية في قلوبهم وقلوب مؤيديهم. ونظراً إلى هذه الظروف مجتمعة لم تمت رسوم دولة الفور. ولما أقام السلطان علي دينار سلطنته طبق عوائد الفور ونظمهم ورسومهم فتواصلت مثلما كانت إلا في أمور قليلة، وكان مما عاد إليه الشارات والآلات. وفضلاً عن ذلك فإن الأدبيات التي بلغتنا عن سلطنة دارفور غنية في وصفها لعوائد الملك. فقد دون عمر التونسي وبراون وناختقال وعلي أبو سن وبعض

الإداريـين من إنجليـز وسودانيـين قـدراً كبيراً من البيـانات المهمـة عن سلطنة الفـور والعادات الاجتمـاعية بـدارفور ومن ضمنهـا جـانب يصب في مـوضـع الآلات والشارات.

وفي العهـد الثنائي لم يعن الإداريـون البريـطانيون بـالآلات والشـارات لبعـدها عن الغـرض الإداري. وقـد ركـزوا نـظرهم في أسـاليب الحكم عنـد الفونج والفور وفي المهدية ليستعينوا بهـا في إدارتهم. ومن هذه الـزاوية عنـوا بالنقارة، لما للنقارة من ارتباط بالتنظيم القبلي والنشاط البدوي اللذين كانا من مشاغل هذه الإدارة. وهنا نلاحظ أن العناية بالنقارة في دارفور كانت قويـة لأن مفعولها الاجتماعي كان قوياً هنـا. وكذلـك الحال في المنـاطق التي كان بهـا اصطراع كدار الكبابيش والكواهلة.

وبعض الإدرايـين البـريطانيـين كتبـوا دراسات جيـدة في مجـال الآلات والرسوم مثل الدراسة التي تناول فيهـا آركل أصـل الفونـج وتعرض فيهـا بقدر مـركز إلى الككـر والطاقيـة أم القرنين وبعض العـوائد الملكيـة والدينيـة عنـد الفونج[١] ووصف ديزني لتـتويج ملك فازوغلي[٢].

وعـوداً إلى الآلات والشارات بشكـل مجمل في السـودان يمكن القـول بإن السودان عرف النقارة وأخواتها من الآلات الوتريـة منذ أزمـان بعيدة، كمـا يمكن القـول بإن النقـارة لعبت دوراً مهماً في المجتمـع السوداني كـآلـة نـداء وحرب وطرب ورمز للعزة والفخـار وشارة للكينـونة. ثم عـرفت الرايـة عندمـا جـاءت جيوش المسلمين غـازية ثم رفعتهـا الطرق الصـوفية فـانتشرت. ومـع الطرق الصوفية جاءت الشدة والجوخة والجبة والخـرقة. وكـان ملوك السودان يجلسـون عند التـتـويج على الككـر، وهذه عـادة قديمـة، ومنهم أخذ رجـال الطرق وجعلوه من أدواتهم. وكان الملوك يلبسون طاقية لها قرنان، قيل إن لها تاريخاً يرجع إلى قرني كباش آمون في الديانة المصرية القديمة. ومن الملوك

---

(١) Arkell, A. J., Funji Origins, SNR, XV, 2 (1932).
ويشار في هذا المصدر فيما يلي بعبارة آركل.

(٢) Disney, A. W. M, The Coronation of the Fung Kings of Fazoghli, SNR, XXVI (1945).

أخذ رجال الطرق أيضاً هذه الطاقية، أي الطاقية أم قرنين المشهورة. وجلس الحكام عند ممارسة أعمالهم في الديوان على سجادة، وهذه السجادة تسمى الفرشة في الغرب، ومن ذلك لقب الفرشة الذي يطلق على بعض الحكام في دارفور. وكان في بلاط الفونج رجل يختص بأدوات الدولة ويعرف بمقدم السجادة إلا أن لقب رئيس السجادة بالنسبة للطرق الصوفية كان أقدم من هذه الوظيفة في السودان. وحمل الملوك السيف والحربة والهبابة والشمسية وأدوات موسيقية وآلات أخرى. والصوفية حملوا الحربة وجعلوها من أدواتهم، وكذلك العصا. وفي دارفور كان لأدوات السلطنة وشاراتها وتحفها حافظ يسمى ملكاً، وكان لها مخزن خاص يسمى الديجاية. ووصف بروس في رحلته كيف كان وزير الفونج يحفظ أدوات الحرب. وكانت في المهدية إدارة تابعة لبيت المال جمعت فيها الطرف من كل أنحاء السودان، وكان منها تاج إمبراطور الحبشة الذي غنم في القلابات، وكانت هناك إدارة أخرى تسمى بيت الأمانة فيها السلاح وطرف مثل النحاسات والنقاقير.

وبالعودة إلى كتاب الطبقات وتاريخ كاتب الشونة، فإننا نقف على أخبار للآلات والشارات:

ففي خبر آلات الملك عند الفونج أورد كاتب الشونة أن الفونج اجتمعوا حول السلطان اسماعيل ورتبوا أخذ كامل عدة الملك من الوزير بادي[1]، أي استنزاع السلطة منه. وفي خبر الوزير دفع الله ذكر أن المناهضين قالوا إما دفع الله وإما الطاقية وإما دق السيف لعشية[2]، والمقصود بالطاقية هو الملك، ودق السيف يعني القتال إلى الليل.

وجاء في خبر الشيخ عدلان أنه لما أتته الطاقية اشتغل بالملاهي والنساء[3]، ومعنى أتته الطاقية هنا هو عندما جاءه الملك أي ارتقاؤه الملك. وجاء في خبر الشيخ محد ود رجب قوله: ومن تلك المدة صارت طاقية

---

(١) أحمد بن الحاج أبو علي، مخطوطة كاتب الشونة في تاريخ السلطنة السنارية والإدراة المصرية، تحقيق الشاطر بصيلي عبد الجليل (القاهرة بدون تاريخ ولكن تاريخ المقدمة ١٩٦١/١/٧) ص ٢٧، ويشار إلى هذا المصدر فيما بعد بعبارة: كاتب الشونة.

(٢) نفسه، ص ٤١.

(٣) نفسه، ص ٤٨.

الهمج كـملك الفونج، بل صار الحل والعقد لوزيرهم[١]، والمقصود بالطاقية هنا أيضاً هو الملك بمعنى أن السلطة الفعلية ذهبت من الهمـج إلى وزيرهم. وفي خبـر الفقيه محمـد بن الحسن وزير الشيـخ محـد أبي لكليـك أنـه أخـذ الملك وصارت له كلمة نافذة حتى ولّى وزيراً من قبله وأعـطاه النقارة من غيـر إذن أبي لكيلـك فعاتبـه في ذلك[٢]، أي في إعـطاء النقارة لأن ذلـك كان من شأن أبي لكيلك ولا يحق للوزير أن يباشره.

وفي خبـر أن محمد داود الأغـر أتى إلى الشيخ دفـع الله بن محمد أبـو ادريس بـالككر والـرايات وجبـة حبيب الله العجمي وكوفيتـه وحربـة عبـد الله العركي أم كريشة التي فيها الأسماء وقال له: هذه الآلة وضعوها عندي أبواتك وقـالوا لي: إذا كبـر دفع الله أعـطيه إيـاهن، ذا الحين خذ أمـانتك، ثم أمـره بسكنى أبو حراز وحدد له مكان المسجد[٣]. وورد في خبر حسن ود حسونـة: «جاء رجل (يقصد حسن) قصير أصلع له قرون لابس فردة دمور شايل في يده مشكار، شق الناس دخل الحوش، فلما زالت الشمس ضربـوا النقاقيـر، فلما بـرد النهار ختـوا فرشـة رومية كبيـرة فـوق الـدكـة: دكـة الـديـوان. ثم جـاء لابس قميص متعالي كبير وقعد فوق الفـرشة فقـامت العبيد شـايلين العكاكيـز للسلام: أنا فلان، قال فلان، قال سيدي. فلما فـرغوا قـامت الفقرا سلمت. ثـم قام أرباب الحوائج سلموا وتكلموا[٤]. ألا ترى أمراً منظماً بآلات وديوان ورسوم على نظام الملوك! وقيل كان حسن ود حسونة عاري الرأس بخلاف ما يرى من العبارة السابقة. وروي عن ادريس ود الأرباب أنه قال إذا وضع حسن شيئاً فوق رأسه وقال لميت قم لا بـد أن يقوم حيـاً!! وفي خبر سلمان الطوالي الزغراد أنه كانت له دلوكة تضربها له جارية تسمى منانة[٥]، وهي دلوكة طرب تصاحب حالة وجد صـوفي. وروى صالـح بن الشيخ بنقـا عن مشهد تنصيبـه

(١) كاتب الشونة، ص ٥٢.

(٢) نفسه، ص ٢٥.

(٣) محمد النور بن ضيف الله، كاتب الطبقـات في خصوص الأوليـاء والصالحين والعلماء والشعراء في السـودان، تحقيق الدكتـور يوسف فضـل حسن (الخرطـوم ١٩٨٥) ص ٢٠٧، ويشـار إلى هـذا المصدر فيما يلي بعبارة: الطبقات.

(٤) نفسه، ص ١٣٩.

(٥) نفسه، ص ٢١٨.

ولياً فقال إنه سمع في حالة اليقظة نقارة تضرب فوق رأسه فأخبر بأمرها عمه أبو نايب فضحك وقال له أول الفتوحات نقاقير[1]. وجاء في خبر أن الشيخ عجيب المانجلك شيخ العبدلاب كان يمنع ضرب النقاقير بأول دخوله بلد محمد المهيم، وهو صنوه في الطريقة القادرية، فإذا دخل عليه يخلع ثياب الملك ويلبس جبة تاج الدين البهاري[2]، أي ينزع عن نفسه أمور الملك ويتعامل معه بالهيئة المرتبية الصوفية. وفي خبر محمد المهيم هذا أيضاً أنه غضب على يعقوب بن بانقا وأرسل له فأخذ منه الرايات والككارة وجبة الشيخ تاج الدين وكوفيته وخلف عيسى أخاه وأعطاه الآلة[3]. وجاء في خبر محد بن الشيخ عبد الله الطريفي ذكر رايته وراية أخيه أحمد[4]. وفي خبر ادريس ود الأرباب جاء ذكر الراية والعمامة والشدة والجوخة[5]. وفي خبر عبد الله الحلنقي ورد ذكر تلميذ له يلقب بأبي رايات[6] كما ورد أن الحلنقي كان يسير في موكب وأمامه سبع رايات وسبع سيوف متومات[7].

هذا عن آلات وشارات الفونج والمناطق الخاضعة لهم وأولياء السودان. أما عن آلات وشارات الفور فتذكر المصادر بينات كثيرة، ويبدو من ذلك أن الفور كانوا مهتمين برسوم الملك أكثر من اهتمام الفونج. وربما كان ذلك لأن نظام الفور كان مركزياً يخضع كل شيء فيه للسطان بينما كان نظام الفونج غير مركزي ويعطي لحكام الأقاليم دوراً مستقلاً في إدارة شؤونهم، أو ربما لأن الفور كانوا أقرب إلى الممالك الإفريقية ذات التقاليد القوية في عوائد الملك بينما كان الفونج مجاورين للقبائل البدوية العربية ولقبائل الجنوب الذين لهم عوائد بائنة عن عوائد هؤلاء.

يقول ناختقال إن سلطان الفور كان يجلس في ديوانه على سجادة وإن بعض عبيده كانوا يقفون عن يمينه وعن يساره وهم يحملون في أيديهم

(١) الطبقات، ص ٢٤٠.
(٢) نفسه، ص ٣٢١.
(٣) نفسه، ص ٣٧٢.
(٤) نفسه، ص ٣٣٧ ـ ٣٣٨.
(٥) نفسه، ص ٥٤.
(٦) نفسه، ص ٢٦٦.
(٧) نفسه، ص ٢٦٦.

هبـابات لهـا أيد حمـراء تبدو كـأنها رايـات وأنه كـان كـأغلب ملوك السـودان الأوسط يغـطي أسفـل وجهـه بلثـام بينمـا تحيط بـوجهـه الأعلى ملفحـة من الفردة[1]. وهو يذكر طبل ودرع السلطان سليمان سـولونـج ويقول إن سليمـان أخذ وهو صغير في ظروف الصـراع حول السلطة في دارفـور إلى ودّاي وتربى هناك ثم عاد إلى دارفور شاباً وهزم عمه تنسام واستولى على الملك، وقد جاء وهو يحمل طبلاً يسمى «فنزي» ودرعاً يسمى «شريم»، وكانا يثيران الرعب في نفوس الناس لمـا لهما من قـوة السحر في اعتقـاد الناس، وكـان إذا هز درعـه ودقت الأجـراس الصغيـرة المثبتـة عليـه بعثت الحميـة في قلوب أصحـابـه وأشعرهم بدنو النصر. وعلى ما ذكر فإن هذا الدرع كان إلى يومه محفوظاً مـع آلات الملك[2].

وذكر خاتم السلطان وقـال إن السلطان أحمد بكـر حين دنا منـه الموت أعـطى خاتمـه لابنه محمـد دورا وبذلـك نقل إليـه السلطة من بعـده[3]. وفي مكـان آخـر ذكـر أن ختم السلطان الفضي ضـاع تحت شجـرة سـدرة فسميت بسـدرة الفضة. وعنـدما ضم السلطان تيـراب قبيلة القمر إلى سلطنتـه بعد أن أخضعهم استولى على سجادتهم الملكية[4] دليلاً على ذهاب ملكهم وضمهم إليـه. وعندمـا أخضع هـذا السلطان قبيلة البرقـد بعد حـرب طويلة حلق ذقن ملكهم إذلالاً لـه وحفظهـا مع آلات الملك. وقـد صنعت من بعد فـرشـاة من شعـر الغنم على هيئة الـذقن لتحمل على الحـراب في الاحتفالات. كـذلـك أخذ سجادتهم الملكيـة المصنوعـة من شعر الغنم معلنـاً بذلـك نهايـة ملكهم وضم بلادهم إلى سلطنته[5]. وكانت هذه السجـادة تحمل على الحـراب أمام السلطان في موكبه[6]. ومن قبيـل ما فعـل سلطان الفور بـذقن ملك البرقـد ما

---

(١) Nachtigal, Gustav, Sahara and Sudan, Vol. IV Waddi and Fur, translalet by A. G. B. Fisher and H. J. Fisher, P. 2660.

ويشار إلى هذا المصدر فيما يلي بعبارة: ناختقال.

(٢) نفسه، ص ٢٧٨.

(٣) نفسه، ص ٢٩٠.

(٤) نفسه، ص ٢٩٠.

(٥) نفسه، ص ٢٨٧.

(٦) نفسه، ص ٢٨٨.

روي عن علي باشا الجركسي أحد حكام السودان الأتراك والذي قيل إنه حلق لحى وشوارب بعض مشايخ القبائل[1]. وفي وصفه لعوائد البيت السعودي في الحكم ذكر الرحالة الفرنسي شارلس ديدير أن العقوبة التي يخشاها الناس مثل خشيتهم للإعدام كانت حلاقة الذقن للمخطئ. وعند النوبة في شمال السودان كانوا يقطعون شعر المرأة إذا أتت جرماً كبيراً، وكان ذلك تأديباً بالغ الأثر. وقيل إن الكاشف أحمد كارا اشتكى من زوجته. وكانت ابنة عمه ـ لأنها تركته في خطر وهم عائدون من الحج فاستكبر الناس ذلك فحلقوا لها شعرها تقبيحاً لما ارتكبت من العار وطلّقها الكاشف وذهب طلاقها منه موضع العجب لأنها كانت في موقع العز والرفعة. وعندما انسحب اسحق بن تيراب من المعركة بعد أن هزم أمام السلطان عبد الرحمن وترك خلفه المروحة المليكة المصنوعة من ريش النعام[2] كان ذلك من آيات الهزيمة.

وعندما أعاد السلطان حسين تعيين عبد العزيز مقدوماً للجنوب عززه بآلات: نحاس وعمامة وككر وهبابة من ريش النعام ورمح يسمى «كورى دومى»[3]، وهي الأدوات التي تمثل شخص السلطان عند المقدوم وتجعل له سلطة الحكم[4]. وذكر ناختقال الشمسية وهبابة ريش النعام من بين آلات الملك[5]. وفي موكب السلطان كان بعض المشاركين يحملون أجراساً صغيرة يدقونها[6]. وقد ظهر في الموكب الطبول ورماح وحراب طويلة وقصيرة ملفوفة بقماش أحمر ومصحف كان ملفوفاً أيضاً في قماش[7]، ولم يذكر المصدر لون هذا القماش الذي لف به المصحف. وذكر عمر التونسي أنهم كانوا يروحون على السلطان إذا طال مجلسه بهبابات من ريش النعام، وإذا خرج كانوا يظللونه بشمسية وأربع هبابات كبيرة من ريش النعام مغلفات

---

(١) خطاب من علي سري إلى كاتب الخديوي في ٥ ذي القعدة ١٢٧١ هـ، وكان الجركسي قد عذب سري نفسه.
(٢) ناختقال، ص ٢٩٠.
(٣) نفسه، ص ٢٩٠، ٩٠٧، ٩٠٩.
(٤) نفسه، ص ٣٣٦.
(٥) نفسه، ص ٣٤٢.
(٦) نفسه، ص ١٧٠.
(٧) نفسه، ص ٣٤٣.

بالجوخ الأحمر، وإذا ركب ترفع أمامه السجادة[1]. وقدذ كر حرابه وطبوله[2] وسجادة مجلسه[3]. وذكر أنهم في ودّاي يجعلون للسلطان إذا جلس في مجلسه راية يرفعونها من طاقة ويعلنون عن ذلك بصوت البردية، وهي طبل قال إنه كالكوبة المعروفة في مصر بالدربوكة [4]. وقال إن لسلطان الفور مخزناً لآلات السلطنة يسمى الديحاية وتحفظ فيه أدوات الزينة والحلى والملابس والنقود الثمينة [5]. وكان للديحاية ملك يتولى المحافظة على مقتنياته، وكانت مسئوليته جسيمة. ولعله قد بلغك أن سلطان المساليت قتل أمين مخزنه بسبب نحاس من نحاساته وألقى بجثته في العراء عقاباً له على هذا الجرم الشنيع! وكان من محفوظات ديحاية الفور: النحاسات، الهبابات، الشمسية، مصحف، السجادة السلطانية والسجاجيد التي غنموها، ككرات، حربة حديدية (السلطية) وستة حراب عادية بأيد خشبية، درع سليمان سولونج «شريم» وطبله «فنزي» وعصا السلطان التي يشير بها إلى الثور الذي يذبح لتجليد المنصورة بجلده. وكان ملك النحاس في رأي نعوم من رجال الدولة والمجتمع في الفاشر [6]. وذكر البروفوسور أوفاهي في كتاب «الدولة والمجتمع في دارفور» من آلات سلاطين الفور الشمسية والنقاقير، ومن بينهما نحاس المنصورة، والككر السلطاني والطاقية والعمة وفردة الشال [7]، وقد أفادنا بأن الككر يحفظ في حوش النقاقير [8]. وذكر أن المنصة التي يجلس عليها السلطان في ديوانه مفروشة بالسجاجيد [9].

---

(١) التونسي، محمد بن عمر، تشحيذ الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان، تحقيق د. خليل محمد عساكر ود. مصطفى محمد سعد، مراجعة د. محمد مصطفى زيادة (القاهرة ١٩٦٥) ص ١٧٠، ويشار إلى هذا المصدر فيما يلي بعبارة: التونسي.

(٢) نفسه، ص ١٧٢.

(٣) نفسه، ص ١٧٨.

(٤) نفسه، ص ١٩٩.

(٥) نفسه، ص ٢٠٧.

(٦) نعوم شقير، تاريخ السودان، تحقيق الدكتور محمد ابراهيم أبو سليم (بيروت ١٩٨١) ص ١٧٨، ويشار إلى هذا المصدر فيما يلي بقولنا: نعوم شقير.

(٧) D Fahey, R. S., State and Society in dar Fur (London 1980) p 20.
ويشار إلى هذا المصدر فيما يلي: أوفاهي.

(٨) نفسه، ص ٢٠.

(٩) نفسه، ص ٢٥.

وقد أوردت القصيدة التالية جملة أدوات وآلات الفقرا والأولياء التي يحتفظون بها اقتداءً بالرسول وتبركاً وحفظاً لهم من كل شر، وهي فيما نظن من نظم أحمد الأزهري بن اسماعيل الولي، خريج الأزهر، ومؤلف الرسالة المشهورة في دحض مهدية المهدي: «النصيحة العامة لأهل الإسلام عن مخالفة الحكام والخروج عن طاعة الإمام». وقد قتل الشاعر في واقعة قرب بارة في سبتمبر ١٨٨٢ وهو في طريقه إلى الأبيض ليتسلم منصبه الجديد شيخاً للإمام وقاضياً عمومياً لغرب السودان:

اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

خلف طَه المصطفى أربيقه ومصحفاً ... ودرعه ومغفراً وسيفه المشرفا
ومجنة ورمحه وتاجه المستشرفا ... وبردة وجبة وخاتماً مستظرفا
رداءه ازاره ثم القميص الأشرفا ... قل والسراويل التي من عدها قد أتحفا
وسبحتين والكسا سجادتين شرفا ... وحصره من عدها ثلاثة قد أنصفا
بساطه وابرة تخيط كلما عفا ... أقداحه الثلاثة التي بها قد اكتفا
سواكه ومشطه خفا ونعلاً عرفا ... رحى عصى مكحلة أرض بها خير صفا
متاع بيت عده مع البراق من قفا ... وجلدا في بغلته والناقة العضبة المعرفا
حماره يعفور مع شات فذا ما خلفا ... فهذه جمعتها على طريق بالوفا
من حازها في بيته نال الأمانا ... والشفا من ضر مسه يا فتى بها تلطفا
كتبها وحملها رقى أهل الصفا ... براً وبحراً نافعاً لكل من تخوفا
من ضر طاعون ومن حرق متلفا ... وسارق مع غرق ومعتد لن ينصفا
وكن بها ذا ثقة وواثقاً بالمصطفى ... ولذ بأهل بيته وصحبه والخلفا
والأوليا أحبابه أهل الكمال الشرفا ... فها أنا نظمتها رومي بها إن أتحفا
أنا العبيد أحمد بن الولي ذو الجفا ... لكردفاني الذي به أبغي التشرفا
في الدنيا والدين معاً ... إذ هو حسبي وكفا[1]

واستطراداً مما ذكر الشاعر من أدوات الرسول عليه الصلاة والسلام نقول إن الجزء الأول من كتاب «زاد المعاد في هدي خير العباد» لابن قيم

---

(١) أربيقه يعني إبريقه، والمغفر يقصد به ما يتقي به الوجه، والمجنة الدرقة، ورحى المرحاة أو الرحاية، ويعفور اسم حمار النبي.

الجوزية ثبتـاً جيداً لمـا خلف الرسـول من الأسياف والأدرع والقسي والجعبـة والترس والأرماح والمغفر والجبب والرايات والخاتم والملابس والدواب وسائر المتعلقات مع فوائد كثيرة.

القسم الأول

الككر

الككر، ويقال أيضاً الككرة، وجمعها ككرات، مقعد خشبي قديم في أفريقيا، كما هو قديم في التاريخ، وشائع في أنحاء مختلفة في البلدان الإفريقية. وقد بدأ فيما نخال كمقعد يقعد عليه الإنسان العادي ثم دخل ضمن آلات الملك موازياً لكرسي الملك أو العرش. ومن اليسير أن نتصور بدأه عندما نتخيل شخصاً يقعد على جذع شجرة بعد عناء أو مشي طويل ليستريح عليه مثلما يجلس أحدنا الآن على مصطبة أو شيء مرتفع للراحة أو ليكون مرتفعاً على غيره. ثم أخذوا هذا الجذع بالتهذيب وما زالوا به حتى وصل إلى الككر المعروف: المقعد المسطح والمستند على أرجل بارتفاع مناسب للشخص ليقعد عليه.

وعند طوافنا في جنوب السودان على رأس لجنة لإعادة رسم المديريات الجنوبية وقفنا على مقاعد خشبية يستعملها الناس في حياتهم الخاصة. منها مقعد منقن mangon، وهو عبارة عن خشبة طولها نحو قدم وقطرها نحو قدم أيضاً وطرفاها بالجانبية مسطحان مستديران وقائمه مخطوط دائرياً، ويحمله الرجل معلقاً بحبل من الجلد على ساعده كما يحمل السكين أو الحجاب، فإذا رقد للنوم أو للراحة وضعه على الأرض أفقياً واتخذه مخدة بأن يضع رأسه في الطرف المخروط، وإذا أراد أن يجلس عليه وضعه عمودياً على أحد طرفيه وجلس على الطرف الآخر. وهذا المقعد منتشر بين الدينكا تويج والدينكا أقار. كذلك وقفنا على مقعد يسمى طوج TOJ، له أربعة أرجل ومسطح يجلس عليه، وهو منتشر بين الدينكا ملوال الغربية، وهذا شبيه

بـالككر الـذي عرف في شمـال السودان. ومن مـدينة التـونج اقتنينـا مقعـدين جميلين ارتفاعهما نحو قدمين. ويستنـد سطح أحـدهما على ظهـر جامـوس، ويقف الجاموس نفسـه على مسطح يستنـد على أربعة أرجـل. ويستند سـطح المقعـد الثاني على ظهـر فيل، وقـد جعل لـه الفنان الـذي أعده سنـامين من العاج، ويقف الفيل نفسه على مسطح يعتمد على أربعة أرجل.

هـذا الككر الـذي صنعه الإنسـان للراحة دخـل في دنيا الملوك، وكـان ملوك السـودان يجلسون عليـه في حفل التـتـويج ويعـرضونـه في الاحتفالات العـامـة. ولا بـد أنهم ورثـوا هـذا التقليـد من تـاريـخ قـديم. وكبـار الملوك السـلاطين تـتم مراسم تـتـويجهم على هذا الككـر، فـإذا تم التـتـويـج سـار المهنئون أمامه وهم يحيونه ويباركون له. وكان كبار الولاة يقعدون على الككر عند تعيـينهم على يد السلاطين والملوك. وقد زعم آركل أن أصل الككـر من مصر، وهو يستشهد في هذا الموضع بصورة لمقعد أوردها المؤرخ برستيد في تـاريخه المشهـور وثلاثـة مقاعـد من طيـة المصـريـة معـروضـة في المتحف البريطاني. ثم دخل في نقاش طويل ينتهي منـه إلى أن الككر مصـري المنشأ وأن ملوك الفـونج اخـذوا الككر من الشلك ثم يخلص إلى أن أصـل الفونـج يرجع إلى الشلك، وأن الفونج كانوا شلكاً ثم استعربوا[1]. ولكننا مما أوردناه سابقاً نستطيع أن نزعم أن منشأ الككر هو أفريقيا ولا يستغرب وجوده في مكان منها.

وهنا نذكر مقعد الاشـانتي المشهور[2]، وهؤلاء قبيلة مشهورة بجمهورية غانا، بل هم من أقوى قبائلها، وقد قاومت هذه القبيلة حكم الإنجليز ثم نظام نكروما وأصابها من جراء ذلك ضيم كثير. وكانت لهـذه القبيلة مملكة مستقـرة منذ ١٦٦٠ م، أي معاصرة لسلطنتي الفونـج والفور، وكـان لهم مقعد مقـدس على نحـو الككر. فيـا ترى من أين اخـذت قبيلة الاشانتي هـذا الككـر، أمِنَ الشلك أيضاً! إن انشغال آركل بالنظريات يدفعه إلى تقريرات بعيـدة، ولو أنـه نظر ملياً لتذكر أن الككـر منتشر في أفـريقيا، وأن منشـأه في أي بلد فيها أمـر

---

(١) آركل المصدر السابق.

(٢) نورد ما نذكر عن ككر الاشانتي اعتماداً على كتاب داخل أفريقياInside Africa لمؤلفه الأميركي قنثرGunther.

طبيعي ولا يحتاج لما بذل من جهد، وأن الفونج يمكنهم أن يأخذوه من عادة محلية أو يستعيروه من الممالك المجاورة بصرف النظر عن أصلهم وارتباطهم بالشلك، بل إن أهل الشمال أحرى بالاقتباس من حضارة مصر ونبتا ومروى من الشلك. وإذا أخذنا برأي آركل القائل بأن الفونج في الأصل من الشلك بدليل الككر فكيف نفسر اتخاذ الفور للككر! لقد قال آركل في بعض أوراقه المحفوظة في بريطانيا صراحة أن ككر الفور مأخوذ من غيرهم وأن بعض العرب هم الذين كانوا يتولون صناعته لهم. وكيف نفسر وجوده عند الدينكا وعند الاشانتي وغيرهم من قبائل غانا! ومن الغريب أن آركل استند في ذلك على لفظ يعني حسب تخريجه الكرسي بلغة الشلك، ثم وجد لفظاً في لغة الفور للكرسي[1]. وهكذا ضاعت الحقيقة بين نظريات آركل الجامحة. وقد سألت بعض من يعرف لغة الفور فقال إن اللفظ المعني مختلف في نطقة عن لفظ ككر، وأنه يعني كرسي فحسب ولا ينصرف إلى الككر المقصود، أي المقعد الخشبي الذي يتخذه السلطان.

ولنرجع إلى الاشانتي: كان الاشانتي يعتقدون أن مقعدهم نزل من السماء وسط غيوم سوداء وأن روح القبيلة متمثلة فيه. والواقع أن المقعد كان أهم أدوات الملك بين قبائل غانا وبلاد السودان الغربي والأوسط، فكل زعيم قبيلة مهمة كان يتخذ مقعداً بالإضافة إلى أدوات أخرى كالشمسية. وكان للمقعد عندهم مقام عظيم يوازي مقام النقارة بين حكام دارفور وسنار ووادي ومن إليهم. فهو يرمز إلى السلطة والقيادة والعظمة وملكية الأرض، بل إن أرض الزعيم في غانا كان يقال لها أرض المقعد مثلما يقال الآن خدمة العَلم للتجنيد العام. وعندما احتل الإنجليز غانا طلب أحد حكامهم من الاشانتي أن يسلموه مقعدهم فرفض الاشانتي طلبه باعتبار أن المقعد مقدس وأنه يرمز إلى بقائهم، وهذا أفضى إلى حرب بينهم وبين الإنجليز. وقد خسر الاشانتي الحرب، إلا أنهم تمكنوا من إخفاء المقعد باتقان، تماماً كما حصل لبعض النقاقير في السودان في عهد المهدية. وقد عثر على المقعد في سنة ١٩٢١ بالصدفة عندما كان بعض العمال يحفرون في طريق. وقد أعلن الاشانتي أنه

---

(١) من مدونات آركل بطرف البروفسير أوفاهي ببيرجن.

إذا أخذ الإنجليز مقعدهم المقدس فإنهم سيشعلون الحرب، ومال الإنجليز إلى العقل هذه المرة وسلموه إياهم واعترفوا بأنه المقعد المقدس للقبيلة وأنه لا يمكن سلبه منهم، ثم أعادوا إليهم ملكهم الذي كانوا نفوه في ١٩٣٥، وهكذا انتهت الحرب بين الاشانتي والإنجليز.

وتاريخياً فإنّ أقدم الككرات الملوكية المعروفة ظهرت في تاريخ مصر القديم وهو ما أورده برستيد في تاريخه ويدل عليه ما عرض منه في المتحف البريطاني على ما روى آركل في مقاله، أي أننا لا ننكر تاريخية الككر المصري وقدمه ولكننا نشك في أن يكون الككر دليلاً على صلة الفونج بالشلك وأن يكون الككر المصري أصل الككر الملكي في السودان. وعلى ما يبدو من النقوش التي تركها الفنان المصري فإن قعدة الككر المصري كانت عادة تستند على أسد أو فيل، مثلما رأينا في المقاعد التي اقتنيناها من الفونج، وسطحه ينتهي برأس على شكل مثلث أو شكل المعين أو متوازي الأضلاع أو بشكل قريب الشبه بشكل اللوح المنتشر في خلاوي السودان. ونتساءل هل شكل رأس اللوح عندنا أيضاً مأخوذ من الككر أم هو مستوحى من شرافة المصحف!

وعن ارتفاع الككر ذكر آركل أن جاكسون يزعم أن ارتفاعه يبلغ ٤٠ قدماً وأنهم كانوا يصعدون إليه بالسلم، ثم عقب بأن هذا خيال، وهو محق في ذلك. ثم قال إن ارتفاعه حقيقة يتفاوت بين قدم ونصف وقدمين، وهذا ما يناسب قعدة الإنسان. وأغلب الككرات بستة أرجل، اثنان بطرف واثنان بالطرف الآخر واثنان بالوسط، ولكن بعضاً منها بأربعة أرجل. والقاعدة التي يجلس عليها مسطح يتخذ أشكالاً متنوعة وأبعاداً متفاوتة، وليس فيه ما يستند عليه الظهر.

وقد اتخذ الفور الككر لتتويج السلطان عليه، وكان السلطان بعد دق النحاس يتجه إلى ديوانه ويجلس على الككر ليتلقى التهنئة والبيعة من رجال دولته، وذلك للمرة الأولى والاخيرة، لأن السلطان لا يجلس عليه إلا عند التتويج. وفيما عدا ذلك يقعد على سجادة في الأرض. وبعد التتويج يحمل الككر إلى حوش النقارة للحفظ وهو لا يبرحه إلا للموكب السلطاني. وفي

مواكب السلطان كان الككر يعرض أمامه ملفوفاً بقماش أبيض بينما تحمل الحراب والرماح ملفوفة على قماش احمر ويحمل المصحف ملفوفاً في قماش أيضاً[1]. وقد وصف ناختقال الككر الذي رآه بأنه مستطيل الشكل وبأربعة أرجل وقال أنه مقطوع من جذع شجرة وأن سطحه كان أملس ويميل قليلاً إلى الداخل[2]. وجاء في بعض مذكرات آركل المحفوظة في بريطانيا أن ككرات الفور كان يصنعها غالباً أولاد رفاعة عرب. وكان ككر السلطان حسين مصنوعاً من العاج[3]، وقد ضاع في المهدية. وعندما جاء علي دينار صنع ككراً من الخشب. أما الفونج فكان سلطانهم أيضاً يتوج على الككر، وكذلك كبار ولاتهم. وقد وصف ديزني تتويج ملك فازوغلي وصفاً دقيقاً وبين كيف أن الملك الجديد كان يقف بين أعيان قبيلته ثم يجلس على الككر للتتويج متجها إلى القبلة فيمر أمامه المهنئون[4]. وحسبما يذكر ديزني فأن هذا الككر قد أحضرء من سنجة المك حسن عدلان مع أدوات أخرى ليتوج عليه الملك ثم عاد به بعد التتويج. وقد وصفه ديزني فقال إن ارتفاعه ١٨ بوصة وأنه كان بأربعة أرجل. وقال إنه صنع على يد الشيخ هجو في ١٩١٨ عوضاً عن الككر التاريخي الذي ضاع في المهدية. وقد جيء به ملفوفاً في قماش مزركش ووضع على الأرض. وبعد أن لبس الملك ملابسه الجديدة حمل الجندي الككر ووضعه تحت شجرة كبيرة ثم توجه الملك الجديد نحوه وجلس عليه وتم تتويجه على يد الملك حسن عدلان. وقد وصف الملك حسن عدلان تتويج مانجل الهمج وقال إن أعيان الهمج يقفون في صف عند الصباح وأمامهم الككر والذي أحضر من قلى ويقف بينهم المانجل الجديد ثم يأتي ناس العادة الذين يجرون التتويج ويجلسونه على الككر. وهؤلاء المتوجون قوم يعيشون في حلة الملك في قولي. وعندما يجلس المانجل على الككر يتقدم القوم ويخاطبونه بالمانجل مباركين له الملك، ويستمر هذا المشهد طوال هذا اليوم، وفي نهايته يأخذه المتوجون إلى منزله. وعلى ما ذكر الملك حسن فإن تتويج سلطان الفونج كان يتم بنفس الصورة.

---

(١) ناختقال، ص ٣٤٣.
(٢) نفسه، ص ٣٤٣.
(٣) نفسه، ص ٣٤٣.
(٤) ديزني، المصدر السابق.

وعن ككر سلاطين الفونج فأن آركل يذكر أنه لم يقف بنفسه على ككر يرجع إليهم، إلا أنه أورد بعض معلومات عنه نقلاً عن الملك حسن عدلان، ومنه أن الككر الوحيد الباقي من الفونج هو ذلك الككر المحفوظ في كهف قلى بجنوب الفونج والذي استعمل في احتفال تم بالقرب من قولى في أوائل العهد الثنائي. وكان منه الككر الذي كان بطرف الملك تاج الدين الذي قتله الأنصار بعد سقوط سنار، وقد أخذوا ككره وأرسلوه إلى أم درمان، وهناك اختفى خبره، ولعله كان مع النقاقير والأدوات التي وجدت في بيت الأمانة عند سقوط المهدية. وهو يروي أن ككر قلى الذي سلف ذكره مثل ككر تاج الدين بحجمه وأرجله الستة ويقول إنه صنع للسلطان قفي سنار ثم أعطاه السلطان إلى مك قلى، ويقال إن الأرضة أكلت طرفاً منه. ويقول الملك حسن عدلان أيضاً إن ناس العادة في حلة الملك بقولى كان لهم أيضاً ككر يخصهم، وقد استولى عليه الأمير أحمد فضيل. وعلى ما يذكر فأن العادة قد جرت بأن يعد سلطان الفونج الككر ويعطيه إلى حكام الولايات الكبيرة عند اعتمادهم، وقد أورد آركل صورة ككر لقبيلة البندا بكفياكنجي ببلاد الفرتيت كما أورد ككراً آخر من جبل مويه وقال أنه صنع على يد حمراوي من غرب كردفان، وورد في مقال آركل نقلاً عن وسترمان أن ككر الشلك كان المقعد الوحيد عندهم لأن الأهالي لا يعرفون المقاعد، وأنه كان يعتبر رمز السلطة ويجلس عليه الرث عند التتويج. ويعتقد آركل أن ككر الشلك شبيه بككر الفونج.

ومن السلاطين وأعوانهم أخذ صوفية السودان الككر وجعلوه من أدواتهم، وبين أيدينا معلومات جيدة عن ككرات اليعقوباب، وذلك بفضل ما جمعه آركل من بيانات وعرضها في مقال. وهو يذكر أن اليعقوباب اتخذوه سنداً للمناصب الدينية التي يحتلونها. وحيث أنها من آثار أجدادهم فأنها فيما يعتقد تحمل البركة، ولقد ذكروا له صراحة بأن آباءهم اقتبسوها من ملوك الفونج. ومعروف أنه كان بين اليعقوباب وبين سلاطين الفونج علاقات قوية. وعلى ما روى آركل فإن مقتنيات اليعقوباب كانت في مواضع أربعة، هي:

أولاً: ما كان بطرف الشيخ محمد التوم بن الزبير ابن عبد القادر ود زين، وكان عمدة بلدة السبيل بمنطقة سنار. وأبوه الزبير عبد القادر هو الزبير

ود ضو المشهور بمؤلفه عن ملوك سنار، وقد سجن في مصر طويلاً على ما هو مشهور، ثم استقر في بلده. وبعد ذلك القي به في النيل مع آخرين بتهمة الموالاة للمهدية. والشيخ محمد التوم هو خليفة الشيخ موسى أبو قصة اليعقوبابي، وتضم مقتنياته ككراً وطاقية ومركوباً خشبياً وحربتين حديديتين وعصاً خشبية وسبحة الفية. ويهمنا منها الككر بالصورة الثانية في اللوحة الرابعة مقابل صفحة ١٢، وهو فيما يزعم آركل أقدم ككرات اليعقوباب، ويزعم اليعقوباب أنه من صنع تاج الدين البهاري، وقد أكلت الأرضة بعض أطرافه فرمموه بالصفيح، وسقط منه الرجلان في الوسط، وقال إن ارتفاعه يبلغ ١٨ بوصة. ونقلاً عن الشيخ محمد التوم فإن آركل يذكر أنه يحتفظ بهذا الككر باعتباره سند خلافته لموسى أبو قصة واستمرار بركته. وذكر آركل أن الشيخ محمد التوم يحتفظ بككر آخر له ستة أرجل وزعم أنه من صنع تاج الدين البهاري، وقد أورد صورته.

ثانياً: ككر بطرف الشيخ حمدان بن عبد القادر خليفة الشيخ مرزوق بقرية الحجاج بمركز سنار، والشيخ مرزوق أخ للشيخ موسى أبو قصة. وعلى ما يزعم فإن الشيخ مرزوق هو الذي صنع هذا الككر، وعلى ذلك فإنه ككر اليعقوباب الثاني من حيث القدم. ويبلغ ارتفاعه نحو قدمين، وهو بأربعة أرجل، وقاعدته في شكل شبه دائرة، وهو بالصورة الثانية باللوحة السابعة في مقال آركل. ومع الككر مركوب خشبي وشعبة حديدية ونقارة. وكان الشيخ حمدان يعرض هذه الأدوات في الاحتفالات.

ثالثاً: ككر محفوظ بطرف زين العابدين هجو بمركز سنار، وهو يزعم أنه من صنع الشيخ محمد التوم ود بانقا، وهو بستة أرجل، وفي تقدير آركل أن هذا هو الككر اليعقوبابي الثالث.

رابعاً: ثلاثة ككرات بطرف الشيخ يعقوب بن الشيخ هجو بن عبد القادر الماصع بعمارة الشيخ هجو بسنار، وهو خليفة الشيخ محمد التوم بانقا. وأهمها ككر بستة أرجل وعلى نحو ككر محمد التوم بانقا، وهو من صنع الشيخ هجو عبد القادر الماصع. وقد زعم الملك حسن عدلان أن هجو صنعه للسلطان على شكل الككر الذي كان بطرف الملك تاج الدين والذي تم صنعه بسنار ليقدمه إلى مك قلى عند اعتماده في وظيفته.

وقد ذكر البروفسور أوفاهي ككر سلطان الفور(1). وذكر التونسي أن ككر سلطان الفور كان يحمل في مقدمة موكب السلطان في الاحتفالات العامة ملفوفاً في قماش أبيض(2)، وقد وصفه بأنه بأربعة أرجل وأن قعدته مسطح يميل قليلاً إلى الوسط. وذكر ناختقال ككر الفور، ومما ذكر أنه عندما عين السلطان حسين سلطان الفور مقدوماً للجنوب أعطاه آلات، دليلاً على سلطته، وكان من بينها ككر(3).

وذكر الطبقات أنه كان من بين أدوات المشيخة عند يعقوب ود بانقا التي أخذها محمد الهميم وشيخ بها عيسى ككر(4)، وقال إنه كان من بين أدوات الولاية التي سلمها محمد داود الأغر إلى دفع الله بن محمد أبو إدريس ككر(5). وذكر هذا المصدر نفسه في خبر علي بن برى: «فجاءه ملوك الجان السبعة بالطاعة والانقياد وجابوا له ككر ذهب وسوط عنج»(6). وعندما زار بانقا الضرير محمد الهميم جلس الهميم على عنقريبه واقعد بانقا على ككر صغير(7).

وذكر لنا الأستاذ الطيب محمد الطيب أنه وقف في قرية ود الترابي على ما وصفه بأنه أقدم وأجمل وأمتن ككر رآه يجلس عليه الخليفة في يوم العيد ونحوه.

العنقريب

العنقريب قديم في السودان وهو للجلوس والرقاد. ومنه أنواع وأشكال وأحجام. ومنه العنقريب الذي يجلس عليه وهو صغير الحجم وينسج بالحبل، ويفضله الناس لأنه خفيف الحمل وأقل مضايقة للإنسان إذا أطال الجلوس عليه. ويصنع هذا عادة من الخشب الخفيف. ومنه المصنوع من

---

(1) أوفاهي، ص ١٥، ٢٠.
(2) التونسي، ص ٣٤٣.
(3) ناختقال، ص ٩٠٧، ٩٠٩.
(4) الطبقات، ص ٣٧٣.
(5) نفسه، ص ٢٠٧.
(6) نفسه، ص ٢٩٤.
(7) نفسه، ٢٥٩.

السنط وغيره من الخشب الثقيل وهو يدبر غالباً بجريد النخل المثبت بالجلد. وهو قوي وثابت ويعيش لسنوات طويلة. وقد تطورت صناعة العنقريب فظهر منه المخروط ثم ظهرت أشكال بديعة تصنع في ورش متطورة. وأولياء السودان كانوا يجلسون على العنقريب وإلا قعدوا على الفروة في الأرض. وقد دخلنا مرة على شيخ طريقة فوجدناه قاعداً على عنقريب مستنداً على مخدات باليمين والشمال وتحت رجليه على الأرض مخدة. وورد في الطبقات أن محمد الهميم كان جالساً على عنقريب فلما جاءه بانقا أجلسه على ككر صغير.[1] فالعنقريب هنا مقدم على الككر، أو لعله شاء أن يحتفظ بمقعده بينما جاء لزائره بمقعد آخر. وكان سلطان الفور إذا جلس في التيرمة يقعد على عنقريب أو على سجادة في الأرض. وكان المهدي يجلس على الأرض عندما يباشر عمله أو يقابل زواره على عادة رجال الدين عامة ولا نسمع في خبره أنه قعد على شيء في مجلسه. أما الخليفة عبد الله فكان يجلس على عنقريب ويباشر حكمه ويقابل ضيوفه وكان يفرش عليه فروة صلاته، وكان عنقريبه من النوع المتين الجيد وهو محفوظ في متحف بيت الخليفة، وفي خلاوى الشمال كان يدبر عنقريب كبير ليرقد عليه جملة من الحيران الصغار، وبمتحف بيت الخليفة عنقريب بهذا الشكل وقد جيء به من خلوة الشيخ حسن بجة بقرية الترعة بمنطقة السير بدنقلا. وبعض الأسر كانت تعد هذا النوع فيقعد عليه الأطفال مساء حتى يكونوا بمنأى من العقارب.

ولا يعرف على وجه الدقة منشأ العنقريب، وفيما يقال إنه بجاوي، وذلك اعتماداً على أن لفظ العنقريب بجاوي، وإذا كان هذا الوجه من الاستدلال مستقيماً فإن للنوبة حق المنافسة في أصله لأنهم يسمونه باسم يقرب إلى نفس الفظ وهو: أنقري.

---

(١) الطبقات، ص ٢٢٠.



القسم الثاني

اللباس

وهو مهم لأنه مما يميز الحكام ورجال الدين والسراة من عامة الناس فضلاً عن مضمونه الاجتماعي. ومع أن لباس أهل السودان عموماً كان بسيطاً لم يعرف الترف أو التعقيد، تبعاً لمستوى حياتهم، فأن علية القوم من حكام وغيرهم حاولوا أن يميزوا أنفسهم على غيرهم باللباس، إما لإبراز الاهمية الاجتماعية وسمو المقام وإما رمزاً لمشرب معين وبياناً لسلوك. وقد ادخلوه في نظم الملك وآدابه وسلوك المتصوفة. وكان من عادة بعض الملوك أنهم يتخذون لبساً بلون خاص إذا غضبوا على شخص وهموا بقتله. وكان سلطان الفور على ما روى ناختقال يلبس السواد إذا أراد أن يفتك بأحد، وكان رجاله يعلمون ذلك ويخشون من ذلك اليوم. وكان ملوك المغرب يتخذون اللباس الأصفر رمزاً للنحس، فإذا عزموا على قتل أحد لبسوا الأصفر. وقد وضع المستشرق المشهور دوزي معجماً مفصلاً بالفرنسية لمعنى الوان الملابس عند العرب، فأرجع إليه أن شئت الاستفاضة.

ولنبدأ مشوارنا بسلطنة الفور:

يقول ناختقال إن الفور كانوا إلى عهد السلطان سليمان في حالة البدائية وإنهم كانوا لا يعرفون إلا الجلد الذي يلفّونه حول أجسامهم. وحتى السلطان سليمان كان يلف على نفسه جلداً أحمر هو لباس تشريفته.

ويقول التونسي في لباس الفور: فالاغنياء يلبسون الثياب الرفيعة جداً، بيضاء كانت أو سوداء. وأما الفقراء فإنهم يلبسون ثياباً خشنة. وأما السلطان والوزراء والملوك، فإن كل واحد منهم يلبس ثوبين كالاقمصة رفيعتين جداً،

أما مما يجلب لهم من مصر أو مما يعمل في دارفور، لكن إن كان من البيض فأنهما يكونان في غاية من البياض والنظافة، وإن كانا من السود يكونان نظيفين أيضاً. ولا يتميز السلطان عن غيره في ذلك إلا بما يلبسه زيادة على القميصين، وذلك أنه يضع على رأسه كشميراً، وهم لا يمكنهم ذلك. والسلطان يتلثم بشاش أبيض، يضع على رأسه منه طيات، وعلى فمه وأنفه لثام منه، وعلى جبينه أيضاً، بحيث لا يظهر منه إلا الاحداق. لكن اللثام يشارك فيه أوندولونج والكامنة، فأنهما يتلثمان كالسلطان، وكذلك السلاطين الصغار يتلثمون أيضاً، لكنه يتميز بالسيف المذهب، والحجاب المذهب، وبالمظلة إن كان راكباً، وبالريش وبالسروج المذهبة والركاب، وعدة الجواد التي لا يمكن سواه أن يجعلها على جواده.

وإن كان في محل جلوسه لا يتلثم إلا هو وحده، ومن ذكر لا يمكنهم أن يتلثموا بحضرته، إلا إن كانوا راكبين معه، أو كان كل منهم في محل حكمه وديوانه.

وأنواع ما تلبسه أهل دارفور الاغنياء من الملابس من المجلوب: الشاش والبغت الإنجليزي والثياب الحرير في يوم المهرجان، كيوم العيد ويوم تجليد النحاس. ولهم ملاحف يتلفحون بها، وهي كالملاءة التي يلتفح بها في إقليم مصر، وهي إما من الالاجة أو من الشاش، لكن يكون لها هدب طويل. وهذه الملحفة يتوشح بها، أو توضع على الصدر والاكتاف، وإذا حضر لابسها أمام السلطان يشد بها وسطه، وذلك من كمال الأدب عندهم.

وإن كان من غير المجلوب فالكلكف، وهو ثوب من قطن رفيع جداً وطوله عشرون ذراعاً، وعرضه ذراع واحد. ومتوسطهم يلبس من المجلوب الشوتر، وهو كناية عن العبك المصبوغ أزرق. ويجلب لهم بعض قماش من المغرب، أي من بلاد الودّاي، البرنو والباقرمة، يسمى التيكو والقداني، لكنها غير عريضة، لأن عرض الشقة قيراطان لا غير، فيتعبون في خياطتها. والتيكو والقداني المذكوران سود، لكن القداني مع أنه أسود، يرى في لونه بعض حمرة، فهو كلون قارب الحمام السود.

ومن عجيب ما رأيته في ذلك أن لابسه إذا تنخم خرجت النخامة من صدره سوداء، وذلك أن النيلة تدخل في مسام جسمه حتى تؤثر في صدره.

وبـالجملة فـالغني، سلطانـاً كـان أو وزيـراً أو ملكـاً، يلبس ثـوبين وسـراويل، وعلى رأسـه طربـوش، وباقي النـاس لا يلبسون إلا ثـوبـاً واحـداً وسروايل وملحفة أن تكن، وعلى رأسه طاقية بيضاء أو سوداء. وأكثرهم يكون رأسه عرياناً[1].

وأمـا نسـاؤهم فـإنهن يلبس مئـزراً في أوسـاطهن يسمى في عـرفهم: الفردة. ثم الأبكار يلبسن فوطة صغيرة على صدورهن يقال لها الدراعة، وهي لبنـات الاغنياء تكـون من حريـر أو الأجة أو بفت، ولبنـات الفقراء تكـون من التكاكى. ويربـطن في أوساطهن أشـرطة يجعلن فيهـا الكنافيس. والكنفـوس للبنات الصغار عندهن عبارة عن منسوج عرضـه أربع قـراريط وطولـه نحو من ثلاثة أذرع تـأخذه الـواحدة منهن، وتـدخل طـرفه من الأمـام في الشريط التي وسطها، وتفوت الطرف الآخـر بين فخذيهـا وتشبكه في الشـريط من الخلف، وهو كالحفاظ عند نسـاء المدن في أيـام الحيض، إلا أن الكنفوس عنـد نساء الفور لا يلبسنه لأجل الحيض بل يلبسه مطلقا، وإذا تزوجت البكر لبست إزازاً كبيراً يسمى في عرفهم الثوب، وهو عبارة عن ملاءة تلتف فيها المرأة، ثم هـو على قدر مقامات الناس في الغنى والفقر، فنساء الفقراء أثوابهن من التكـاكى والاغنيـاء من الشوتـر أو الكلكف أو التيكو أو القـدانى أو البغت ولا يكون من حرير ولا من الأجة[2].

وما يسميه التونسي الالاجة يعرف في وسط السودان بالعلج، وقد أورده الطبقات بهذا الاسم.

وقد شرح محقق الطبقات معنى علج فقال إنه نوع من القماش مقلم أو مخطط مثل قماش البيجامات وأغلب الوانه الأحمر والأسـود، وتسمى القطعـة منه قرن العلج. وتسمى أحياناً العلجة، وهي الفركة. وقال: أشـار إليه كـاتب الشـونة ووصفـه بأنـه القماش القـطني. ثم قال إن لفظ علج مـأخـوذ من لفظ الالاجـة، وهو قمـاش معروف لـه خطوط ملونـة من الحريـر والقـطن، وقلبت

---

(1) التونسي، ص ١٨٩ - ١٩٠.

(2) نفسه، ص ٢١٢ - ٢١٣.

الألف عيناً فصار يعرف عند أهل السودان بالعلاجة أو العلج[1]. وتلبس العرائس العلج دائماً عند قطع الرحط.

ووردت في رحلة ناختقال إشارات متفرقة إلى لباس الفور وجيرانهم الودّايين وما كان من عوائد بشأنه.

قال: «بينما العربي في وداي لا يسمح له بدخول العاصمة إلا عاري الرأس ولا ينتعل أكثر من الصندل ولا يلبس إلا جلباباً بسيطا من قماش خشن كان شيخ المحاميد يلبس جلباباً من الحرير وطاقية ملونة وحذاء مصرياً أحمر كما رأيته فيها بعد في البلاط في الفاشر لابساً شالاً كشميرياً ثميناً وهو أغلى ما يتزين به أهل دارفور[2].

ويقول: «وكان الناس (في دارفور) يصرفون على ملابسهم أكثر كثيراً مما يفعل أهل وداي، وكان الجلابة في دارفور يلبسون قماشاً قطنياً ناعماً مصنوعاً في أوروبا لونه أبيض أو ذا صبغ أزرق خفيف. وكانوا بلا شك أكثر نظافة من إخوانهم في الغرب ويتزينون فوق جلابيبهم بشيلان كشمير يضعونها فوق أكتافهم أو يلفونها مفضفضة حول رؤوسهم بينما كان أهل دارفور يفضلون جلاليب الحرير والجوارب من كل لون، وبالنسبة لهؤلاء أيضاً كان أهم طرف للوجاهة هو شال الكشمير الذي كانوا يلفونه على كتف واحد مثلما يفعل الجلابة»[3].

ويقول: «كان السلطان يرتدي ثوباً أزرقاً بسيطاً وخفاً من المخمل به زخرفة فضية»[4].

ويقول: «وكان إذا لبس السلطان السواد علم أنه سيفتك بأحد فيتقيه الناس»[5].

ويقول: «كان الكامين يرتدي عمامة الشيوخ ويضع لثاماً فوق فمه وأنفه

(١) الطبقات، ص ١٠٨.
(٢) ناختقال، ص ٢٦٨.
(٣) نفسه، ص ٣٦٤.
(٤) نفسه، ص ٢٦٥.
(٥) نفسه، ص ٣٠٩.

ولا يرفع لثامه إلا قرب السلطان مباشـرة. وداخل قصـر السلطان كان لا يلبس شاله إلا على خصره دون طي»[1].

ويقول: «كان أحـد الباسنقـا يلبس قلادة من الكهـرمان بهـا شرائـح من فضة تتدلى على صدره كما كان يلبس طوقاً مماثـلاً حول ذراعـه، وقد أهـدى السلطان موسى أسلاف الباسنقا هذا الوسـام، وكان من حقـه لبس عمامـة إذا ذهب إلى المسجد وإن كان لا يحق له لبس اللثام»[2]. وهـذه من المواضيـع النادرة التي نسمع فيها خبراً عن الوسام في سودان عهد السلطنات.

ويقول نعوم شقير في لباس سلطان الفـور إنه كـان قميصاً مقصبـاً فوقـه برنس مقصب يجلله شال من الكشمير وعلى رأسه تاج مزركش بالذهب تحف به سبع ريشات رهيفة من الذهب والفضة على شكل الأمواس[3]. وفي رجليه حذاء من السختيان الاسـلامبولي الأصفـر أو الأحمر وعلى جنبـه الأيسر سيف محدب محلى بالذهب. وكان جلوسه في التيرمة على عنقريب أو سجـادة في الأرض وعن يمينه مخدة من قطن. وفي الراكوبة «كالا» كان جلوسـه على دكة عالية من الطين مفروشة بالسجـاد، وإذا جلس على الككر أو كـرسي السلطنة لمبايعة الناس له حمل في يده اليمنى صولجاناً وهو عصا طويلة ملبسة بالفضة المحلاة بالذهب، وفي يده اليسرى سيفاً مستقيمـاً، وعلى جنبه الأيسـر سيـفاً محدباً، فيبايعه أهل الحل والعقد ليلاً وفي الصباح يبايعه العامة.

وكان سلطان الفور إذا عين ملكاً على إقليم أعطاه كسـوة فاخـرة وطاقيـة بقـرنين مقصبة[4] ونعلين من النحـاس[5]، ليتميز بهـا على غيـره بمـا يـوازي سلطانه وأهميته وليكون دليلاً على مكانته عنده.

ووصف الرحالة الإنجليزي جيمس بـروس لباس الفـونج عمـوماً وخص لباس سلطانهم ووزيرهم وستنا حاكمة شندي. قال: إن لباس سنار متواضـع، وهو يتكون من قميص طويل مصنـوع من قماش سـورات الأزرق الذي يسمى

(١) ناختقال، ص ٣٢٧.

(٢) نفسه، ص ٢٣١.

(٣) شقير نعوم، ص ١٧٨.

(٤) توهم نعوم شقير هنا، إذ لم يعرف الفور الطاقية أم قرنين.

(٥) شقير، ص ١٧٨.

ماروتي، وهو يغطي من الرقبة إلى الرجلين ولكنه لا يغطي الرقبة. وهذا هو الفرق الوحيد بين لباس الرجال والنساء، لأن لباس النساء يغطي الرقبة كاملة ومثبتاً بأزرار. ويلف الرجال أحياناً حزاماً حول الوسط. ويمشي الرجال والنساء جميعاً وبما فيهم علية القوم حفاة داخل البيوت، وأرضية بيوتهم، أي العلية، مغطاة بالسجاجيد الفارسية، وخصوصاً أجنحة النساء. وعندما يكون الجو طيباً يلبسون الصنادل في البيوت. وفي خارج البيوت يلبسون مركوباً من الخشب مزيناً بطريقة متقنة بالصدف. والرجال والنساء يتدلكون بشحم الجمل مخلوطاً بالرائحة مرة يومياً على الأقل، وهم يعتقدون أن هذا ينعم الجلد ويحميه من الحبوب التي يخافون منها حتى أنهم عندما تظهر حبة في الجسم لا يبرحون المنزل حتى تختفي. لهذا السبب فإن الواحد منهم يحتفظ بلباس خاص للدلكة بجانب قميص نظيف يلبسه يومياً. وهم لا يستعملون غطاء في الليل سوى لباس الدلكة ويرقدون فوق فروة ثور مدبوغة تصير ناعمة بفعل الدلكة المتواصلة، وفي نفس الوقت تكون باردة وأن كانت تعطي رائحة لا تبرح بالغسيل[1].

وقد وصف لباس سلطان الفونج فقال: كان السلطان، عندما دخل عليه، يجلس على سجاد فارسي وضع على حصير افترش على الأرض وحوله عدد من الوسائد المصنوعة من قماش مذهب مستورد من البندقية. ولم يكن لبسه متسقاً مع مكانته، لأنه لم يكن إلا قيمصاً كبيراً واسعاً من قماش سورات القطن ذي اللون الأزرق والذي يبدو أنه لا يختلف عن القماش الذي يلبسه خدمه إلا لكونه مخيطاً في كل أطرافه بخيطين من الحرير الأبيض وكذلك حول الرقبة. وكان رأسه عارياً وكان عاري القدمين ولكن يغطيهما بقميصه. وكانت طلعته عادية ولا يظهر عليه الحزم[2].

وكان يجلس في مواجهة السلطان أربعة رجال يلبس كل منهم قميصاً من القطن الأبيض ويضع شالاً يغطي رأسه وجزءاً من وجهه مما يدل على

---

(١) Bruce, Jamesm, Travels to discover of the Nile vol. IV, Edinburgh, MDCCXC ص ٤٧٦ - ٤٧٧.

(٢) نفسه، ص ٤٣٠.

أنهم رجال دين أو قضاة، وهؤلاء هم الذين قرأوا الخطابات التي حملها بروس إلى السلطان[1].

أما لباس الوزير عدلان، وزير الهمج، فقد وصفه قائلاً: كان يلبس قميصاً طويلاً أغبر اللون من الحرير مخطط بستان أصفر وطاقية بطرفين يغطيان أذنيه. وقد تهندم هكذا عندما ذهب صباحاً إلى اسطبلاته[2]. ثم وصف مجلسه ولباسه فقال: دخلنا صالوناً واسعاً على حيطانه مرايا وستائر من الدمقس بلون قرمزي، وفي طرف من اطرافه الطويلة سريران مغطيان بقماش الدمقس ذي اللون القرمزي والأصفر ووسادات كبيرة من قماش ذهبي اللون شبيهة لما لدى السلطان. وعندما جلس الوزير اخرج رداءه وطاقيته وقعد في قميص من الستان القرمزي يبلغ أسفل ركبتيه، واسع فوق الصدر ومكفكف، وكان محزماً في الوسط بوشاح أحمر ووضع عنده خنجراً قصيراً مطلياً بالذهب وبمقبض من العاج[3].

وكانت ستنا تحكم شندي، على ما روى بروس، بعد وفاة زوجها بمساعدة ابنها، وهي ابنة الشيخ عجيب شيخ العبدلاب، ولذلك كان نفوذها واسعاً. وقد وصفها بروس ووصف لباسها فقال: كانت ستنا رائعة في لبسها وهي تقف أمامه، وكانت تضع على قمة رأسها طاقية مدورة مصنوعة من الذهب وتتدلى منها قطع معدنية ذات بريق، وحول رقبتها سلاسل ذهبية وقطع ذهبية مثبتة عليها وعقود. وكان شعرها مضفراً في نحو عشرة إلى اثنتي عشرة ضفيرة على نحو الذيل وتتدلى إلى ما بعد وسطها. وكانت تلبس جلابية بيضاء عادية مصنوعة من القطن، وعليها شال، أو منديل طويل، من الحرير بلون أرجواني يتدلى بشكل جذاب على ظهرها ثم يلتف حول وسطها ودون أن تغطي كتفيها أو منكبيها. وفي يديها تلبس سوارين مثل قيد الحديد سمك الواحد منها نحو نصف بوصة وخلخالين من ذهب في رجليها، ويبلغ قطر الخلخال نحو بوصة. وهذا كان أسخف طرف من لباسها. وكانت ستنا فوق الأربعين تقريباً، وكانت أطول من الطول المتوسط. وكان وجهها مدوراً ممتلئاً

(1) Bruce، ص ٤٣١.
(2) نفسه، ص ٤٣٩.
(3) نفسه، ص ٢٣٩.

جميلاً، وفمها واسعاً نحواً ما، وشفتاها حمراوين وأسنانها وعينيها أجمل ما رأيت. وكانت تضع فوق أنفها وما بين عينيها نمشة صغيرة من الكحل بأربعة أركان وفي حجم أصغر من رفادة تعملها نساء أوربا، وأخرى أطول فوق أنفها، وثالثة في وسط ذقنها(١).

ويورد نعوم شقير في تاريخه صورة لملك فازوغلي، وقد ظهر لباسه واضحاً. فهو يلبس قميصاً طويلاً، وهو محزم في الوسط بشدة وعلى رأسه الطاقية أم قرنين وفي رجليه مركوبان لا بد انهما صنعا خصيصاً، وبيده اليسرى سبحة وباليمنى سيف(٢). فانظر كيف يجمع بين السبحة والسيف، الدين والملك، وكيف يتمثل التراث بالطاقية والمركوب والقميص وكيف يرمز بالشدة إلى الحرب. وفي وصف ديزني لبس ملك فازوغلي الذي توج في الأربعينات قفطاناً من الحرير وعباءة زيادة على الطاقية أم قرنين. وترى في ذلك تطوراً لأنه اتخذ القفطان بدل القميص، ولا بد أن ذلك يعود إلى التأثير المصري.

وكان من اللباس المتصل بآداب الملك الحزام، وهو هيئة لبس يلبسه الفرد أمام رئيسه. وقد ورد وصفه فيما روينا عن ناختقال. ووصف آركل حزام اليعقوباب وقال إنه يغطي الجسم ما عدا الكتف الشمالي ويلف من خلف الرجل إلى الأمام وينتهي باللف حول الخاصرة. وكان هذا الحزام فيما يقول آركل من أصول بلاط ملوك الفونج وأخذه اليعقوباب مثلما أخذوا منهم الككر. وكما يعلم القارىء فإن اليعقوباب كانوا على علاقة وثيقة بسلاطين الفونج. وورد في وصف ديزني لتتويج ملك فازوغلي أن حسن ود عدلان والعمدة الذي ساعده تحزما بعد التتويج تحية للملك الجديد. ومن اللباس اللثام وهو يغطي أسفل الوجه، والملفحة وهي تغطي أعلى الوجه. وقد ذكر ناختقال أن سلطان الفور كان يضع اللثام والملفحة. وأن بعضهم كانوا يفعلون ذلك على درجات(٣).

---

(١) Bruce، ص ٥٣٣ ـ ٥٣٤.
(٢) نعوم شقير، ص ٥٠٣.
(٣) ناختقال، ص ٢٦٢.

ويورد كتاب الطبقات، ذلك المصدر المهم للحياة الدينية في السودان، بيانات عن لباس رجال الدين. ومن ذلك ما روى عن سلمان الطوالي الزغراد، قال: فانجذب وغرق وسكر ولبس الجبة وفوقها الرحط وجرسين أحدهما يميناً والآخر شمالاً[1]. وقد عرف الدكتور يوسف فضل حسن في الموضع نفسه جبته فقال إنها الجبة المرقعة وقال إنها من زي المتصوفة وعلاماتهم المميزة. وكانت لهذا الشيخ جارية تسمى منانة تضرب له الدلوكة، وكانت، على حد قول الطبقات، تجيد جميع أنواع الضرب عليها. وجاء في خبر دفع الله ابن الشيخ محمد أبو إدريس أنه كان من بين أدوات أجداده التي تسلمها عند بلوغه القيادة الدينية جبة حبيب الله العجمي وكوفيته[2]. وقد ورد خبر هذه الجبة والكوفية أيضاً في ترجمة محمد داود الأغر[3] والذي احتفظ بالأدوات أمانة عنده حتى سلّمها إلى دفع الله. وحسبما جاء في خبر هذا الولي فإن أدوات عبد الله العركي هذه كانت تشمل الرايات والككارة وجبة حبيب الله العجمي وكوفيته وجبة الشيخ عبد الله[4]. وقد وصفت هذه الجبة بأن عليها الاسماء، وربما يعني ذلك أنه مكتوب عليها اسماء الجلالة، وزاد ود ضيف الله على ذلك قوله «الرياضات ودخول الخلوات» وليست هذه أدوات حتى يناولها أو مما ينقش على الجبة، وربما كان المعنى أنه أوصاه بالرياضات ودخول الخلوات فأوصل الأغر هذه الوصية مع الأدوات. وجاء في هذا الخبر نفسه «مكاتب أجواه السلطنة» مما يعني أن عبد الله العركي كان يحتفظ بالوثائق التي صدرت عن السلاطين بتمليكه الأراضي وأنه أودعها أيضاً عند الأغر لتسلم إلى ابنه مع الأدوات. وهذه نقطة تثير شهية الوثائقيين والباحثين عن وثائق الأرض لما فيها من المادة التاريخية. ولعل وثيقة العركي التي ضمناها كتاب «الفونج والأرض» من هذه المجموعة. وجاء على لسان صالح ابن الشيخ بانقا في وصف تنصيبه ولياً أن الرسول أمر جبريل بأن يضع على رأسه عمامة بيضاء وأنه أتى بخيط ربط به العمامة[5]. وكان الشيخ

---

(١) الطبقات، ص ٢١٨.
(٢) نفسه، ص ٢٠٧.
(٣) نفسه، ص ٣٢٢.
(٤) نفسه، ص ٢٠٧.
(٥) نفسه، ص ٢٤١.

خوجلى عبد الرحمن يلبس الثياب الفاخرة مثل البصراوي الأخضر وعلى رأسه الطربوش الأحمر ويتعمم الشيشان الفاخرة. وقال يوسف أن البصراوي نوع من الثياب الجيدة كان معروفاً في السودان حتى العقود الأولى من هذا القرن ويعد من ثياب الزفاف الرفيعة. وقال: الشيشان قماش ناعم الملمس ناصع البياض كالكرب في شكله وهو من القطن. وقد قيل لخوجلي أن القادرية يلبسون الجبب والمرقعات فقال: «ثيابي تقول للخلق أنا غنية عنكم وثيابهم تقول أنا مفتقرة إليكم[1]. وأصل العبارة من كلام أبي الحسن الشاذلي: دخل عليه مرة فقير وعليه لباس من شعر فلما فرغ الشيخ من كلامه دنا من الشيخ وأمسك بملبسه وقال: يا سيدي، ما عبد الله بمثل هذا اللباس الذي عليك، فأمسك الشيخ ملبسه فوجده فيه خشونة فقال: ولا عبد الله بمثل هذا اللباس الذي عليك، لباسي يقول أنا غني عنكم فلا تعطوني، ولباسك يقول: أنا فقير فاعطوني[2]. وكان الشيخ موسى أبو قصة يلبس العلج ويركب جمال البديد ويمشط رأسه وسوى له قصة[3]. والشيخ محمد بن عويضة كان زيه في لباسه زي المتقشفين، يلبس ثوب الدمور ويتحزم بطرف ويقنع بالطرف الآخر، وشعره طويل ويدهنه بالزبدة[4]. والشيخ محمد بن عبودي كان متقشفاً وكان لباسه قميص دمور وفردة دمور وفراشه الأرض وظله السماء[5]. ووصف محمد بن النقر بن الشيخ عبد الرزاق أبو قرون بأنه كان يوم يورى عنه لابساً بشتة صوف أزرق وثوب منير. وشرح الدكتور يوسف البشتة بأنها نوع من العباءات الصوفية ذات اللون القاتم وأنها منتشرة بين الفلاحين في مصر وعند البدو والمزارعين في البلاد العربية الأخرى. وقال إنها تسمى بشت وبشث وتجمع بشوت[6]. وداود بن محمد بن داود بن الشيخ حمدان، وهكذا طويلاً يأتي اسمه في الطبقات، زهد في الدنيا ولبس جلود الضأن حتى اشتهر بأبي

---

(١) نفسه، ص ١٩٣.

(٢) النجار، د عامر: الطرق الصوفية في مصر، نشأتها ونظمها وأورادها ص ١٨٢ نقلاً عن لطائف المنن لابن عطاء الله السكندري، ص ١٤٥، ١٦٤.

(٣) الطبقات، ص ٣٢٥.

(٤) نفسه، ص ٣٣٥.

(٥) نفسه، ص ٣٤٣.

(٦) نفسه، ص ٣٥٥.

فراو[١]. والشيخ اللعسر كان يلبس قميص الشملة[٢]. والشيخ حمدان بن الشيخ يعقوب انقطع وتزهد وتريض ولبس الصوف، فلما وصل مقامات الرجال ترك ذلك ولبس القماش العالي وركب جمال البديد، فقال له أحدهم: إن ركبت المعلوف ولبست المندوف وحقبت السيوف وتركت دراعة الصوف[٣]. والبديد في الأصل هو سرج الجمل وهو الذي به الطاقات الوثيرة والسيور، ويستعمل في جمل الركوب، ثم انصرف اللفظ إلى جمل الركوب نفسه. وهو بخلاف الحوية وهي جمل الشيل. والمقصود بالبديد هنا هو جمل الركوب الجيد المطيع الذي يدل على وجاهة صاحبه. وشرح الدكتور يوسف معنى المعلوف والمندوف وحقبت ودراعة. وقال: المعلوف من العلف، وهو الذي يعطي العلف الجيد بكثرة فيصير قوياً. والمندوف القطن الخالي من الغلالة والأوساخ، والمراد به الملابس ناصعة البياض. وحقبت أخذت السيف معك على الجمل. والاحتقاب شد الحقيبة من خلف الراكب، وهنا السيف في مكانها. ودراعة جبة من الصوف. وزاد فقال شملة يلبسها المتصوفة. وعبد الله الحلنقي، وهو من مشاهير أولياء السودان، أعطى للعركيين الثوب المنيري وثوباً أبيض وثوباً دنقسي وقرناً[٤]. والثوب المنيري فيما نقل الدكتور يوسف عن محقق كاتب الشونة نوع من القماش معروف، وفيما شرحه هو أنه قيل نسيج من مصر، وقيل أيضاً إنه لباس كبير الحجم يلبسه الرجال، ولم يدرك هيئته على وجه التحديد. فانظر: أحدهما قال معروف والآخر دخل في قيل وغير محدد. ودربيسي والدنقسي لم يهتد الدكتور يوسف إلى وصفهما، ولعل الأخير ـ وهذا من عندنا ـ الدمقس، وكان معروفاً في السودان فيما رأيت من وصف بروس. والقرن ـ والعهدة ما زالت على الدكتور يوسف ـ قرباب أو نوع من الثياب تلبسه السودانيات كازار ويشتهر من أنواعها القرن الخمري وهو نوع من القماش المزركش، وكان يمثل واحداً من ثياب الزفاف المهمة للفتاة. وكان الشيخ بدوي أبو دليق في

---

(١) الطبقات، ص ٢١٣.
(٢) نفسه، ص ٢٢٦.
(٣) نفسه، ص ١٨٦.
(٤) نفسه، ص ٢٦٦.

شبابه يلبس شملة رباعية[1] ثم عـدل إلى ما يـأتي وصفه. والمسلمى الصغيـر فيما رآه الراوي قعد على دبة حفيـر لابساً ثـوب دمور متحـزماً بـطرف ومتقنعاً بـالـطرف الآخـر[2]. والشيـخ محمـد عبـد الصـادق كـان يلبس قميصـاً من العلج [3]. وباسبار ترك لحسن ود حسونة عندما جاء بجنوده إلى جواره قميصاً أزرق وثوباً معصفراً ـ أي مصبوغاً بالعصفر وهو نبـات ذو لون أصفـر[4]. وكان الشيـخ حجازي بن ابـزيد يلبس الثيـاب الرفيعـة[5] والشيخ حسن ود حسـونـة كانت زوجته وحواره أبو حميدة يمخوان العشر ويفتلانـه وينسجانـه ليصنع منـه قميصـه، وقيل في ذلـك إن أكتافـه دبّرت من لبس قميص العشـر وبقية جلده يزلط ويبرأ[6]، وعندما يركب دفع الله أبو إدريس حماره كان قائد حماره يسيـر متحـزماً في صلبـه وحامـلاً عكازاً في يـده[7]. والجنيـد بن الشيـخ النقـر بن عبـد الرزاق اتخـذ مذهب التصـوف ولبس الجبة[8] وعـووضة بن عمـر شكـل القارح أعطى جبته لحاكم في دنقلا والبسها إياه فاستعادتها بها ملكه[9].

وروى الشيـخ صالـح بانقـا أنه رأى في ليلة تنصيبـه الشيخ عبـد القـادر الجيلاني وهو جـالس على عنقريب مستقبـلاً القبلة وكل كـراع عندهـا رجل، عليه عمامة بيضاء، فوضعوا على رأسه عمامة بيضاء والبسوه عقد سوميت كنار أزرق وأبيض يشالعن[10] وقد جاء في مكتوب عبد الله العركي بتخليف محمد ابن الشيخ دفع الله بن مقبل أنه أجـاز له لبس الخرقة[11]، والمعنى أنـه أجازه في الـطريقة إجـازة كاملة. وقـد ذكر الـطبقـات عمـامـة الشيـخ ضيف الله بن

---

(١) نفسه، ص ٨٥.
(٢) نفسه، ص ١٠٨.
(٣) نفسه، ص ١١٠.
(٤) نفسه، ص ١٠٧.
(٥) نفسه، ص ١٣٥.
(٦) نفسه، ص ٢٠٣.
(٧) نفسه، ص ١٣١.
(٨) نفسه، ص ٢٧٣.
(٩) نفسه، ص ٢٤٠.
(١٠) نفسه، ص ٦٦.
(١١) نفسه، ص ٢٤٢.

علي[1]. وقد تسلم مصطفى الشريف المغربي آلة شيخه عند وفاته حسبما كان مدبراً، وكانت تتكون من بغلته وكساويه[2].

وذكر أيضاً أنه كان من ضمن آلات محمد الهميم التي أخذها من يعقوب بانقا وخلف بها أخاه عيسى جبة تاج الدين وكوفيته. وواضح مما تقدم أن جبة البهاري وجبة حبيب الله العجمي وكوفيته كانت عند العركيين، وقد احتفظوا بها للتبرك والافتخار، وقد عرف الدكتور يوسف بحبيب الله العجمي في الهامش وساق في ذلك تحقيقاً مفيداً، وهو، أي كان ما يذهب إليه، خليفة البهاري الذي أخذ عليه عبد الله العركي في مكة.

وفي تخليف السنوسية يظهر الجرد وهو حزام صوفي يلبس في ليبيا. ويقوم الشيخ بتبسيطه ورشه بماء قليل ثم يناوله للخليفة المعين[3].

ومن لباس الصوفية الشدة والجوحة، وهي أحزمة يتمنطق بها المريد أو تشد بها على البطون، ويلبسها المريدون في الذكر أو عند خدمة الشيخ وزواره. وفي رأي الدكتور يوسف فضل أن الجوخة ربما تعني الشال أو الرداء. ويسمى الحزام جوخة إذا كان مصنوعاً من الجوخ، أما اللباس نفسه فيسمى شدة، أي ما يشد به البطن، والأصل أنه من الجلد.

وبعض صوفية السودان كانوا يلبسون الجبة التزاماً بالزهد عن علائق الدنيا وزخرفتها، وهي بخلاف الجبة المصرية التي يلبسها الموسرون. وذكر الطبقات جبة سلمان الطوالي الزغراد وجبة تاج الدين البهاري، ونحسب أن تاج الدين ترك هذه الجبة عند محمد الهميم جد الصادقاب عند مغادرته للسودان فاحتفظت بها أسرته. ومن الجبب المشهورة جبة حبيب الله العجمي، وبما أن هذا هو خليفة البهاري في مكة ولم يزر السودان فمن الجائز أن نفترض أن أحد أبناء القادرية قد جاء بجبته هذه إلى السودان. ومن قبيل الجبة الدلق الذي لبسه بعض الصوفية تعففا، مثل الذي لبسه بدوي أبو دليق وأبو دلق. ولفظ الدلق يعني في اللغة النوبية الأثمال، ولعله أصل هذه

(١) نفسه، ص ٢٤٦.
(٢) نفسه، ص ٣٣٩.
(٣) الدجاني، أحمد صدقي: الحركة السنوسية، نشأتها ونموها في القرن التاسع عشر (لبنان ١٩٦٧) ص ٢٤٩.

الكلمة في عامية السودان. وأكثر الطرق اتخاذاً للجبة في السودان هي طريقة القادرية، وجبتهم خضراء، وهذا اللون هو رمز هذه الطريقة.

وقد وصف أحمد بن إدريس الرباطابي في الفصل الثاني من كتابه «الإبانة النورية في شأن صاحب الطريقة الختمية» لباس السيد محمد عثمان الميرغني الختم فقال: إن هيئته وهيئة أتباعه في اللباس القمصان المشقوقة من حد نحورهم إلى تحت صدورهم والعمائم المرخية أطرافها على شمائلهم أو بين أكتافهم. وقال إنه كان يأمر أتباعه بحسن اللباس الفاخر لمن يقدر عليه منهم وأنه كان كثيراً ما يهبهم ذلك من نفسه ولا يخلف خليفة من خلفائه إلا كساه الجبة والقفطان والعمامة والعباءة والفرجية من نوع الجوخ والقرمصود. وقال إن لباسه كان في عامة أحواله في نفسه القيمص والعمامة وأن أصحابه كانوا غرة بين الناس من حسن هيئاتهم ثم استحسن الناس هيئاتهم وشاركوهم فيها، وما كانت تعرف تلك الهيئة إلا عندهم فقط. وقال إن هيئته في اللباس الخاص كانت على هيئة أهل الحجاز وتبعه أتباعه على ذلك. وقال إن ابنه السيد الحسن لم يكن يهتم كثيراً بفاخر اللباس، بل كان يكتفي باللباس البسيط، وكان لباسه الغالب العراقي. ويلبس الختمية الآن جلابية بياقة خاصة وهم يعتقدون أنها جاءت من الحجاز وأن السيد الحسن أول من لبسها، وأنه لذلك لقب «أبو جلابية». وكان لشباب الختمية، وهم منظمة شبه عسكرية، لبس خاص. وكان أيضاً لشباب الأنصار، وهم أيضاً منظمة شبه عسكرية، لبس خاص تميز بقصر القميص وطول السروال غير المفرط والمركوب والشال. وشاعت بين الأنصار وأهل الغرب عموماً جلابية أم جكو، وهي جلابية واسعة بأكمام واسعة تنتهي قبل اليد، وتلبس من الوجهين، ولها جيب ساعة كبير، والقبة واسعة قليلاً، وسجاف القبة واسع وينتهي عند الصدر بلسان عريض يمتد إلى الأسفل. وسجاف اليدين والطرف الأسفل صغير. وأنصار السنة الآن يتميزون بجلابيتهم القصيرة. وعلى العموم يمكنك من هيئة اللبس أن تعرف الأنصاري والختمي والسني والأخواني.

وفي العهد التركي المصري عرف السودان الملابس الغربية كالبنطال والسترة (الجاكيت) وما يلبسه الضباط والجنود من ملابس، كما انتشر فيه القفطان والحزام عليه والكاكولا والجبة، والأخيرة كانت معروفة من قبل كما

هو ظاهر من لبس الشيخ خوجلي والميرغني. وأبناء شرق السودان يلبسون قميصاً فوق سروال واسع وأولعوا بالصديري الواسع الطويل ولفوا فوق ذلك التوب فضفاضاً وحملوا العصا.

وكان المهدي يلبس جبة مرقعة فوق سراويل من الدمور، ويتمنطق بمنطقة من الخوص، وعلى رأسه طاقية مكية يلف عليها عمامة كبيرة بيضاء مفلجة كعمامة أهل الحجاز ويسدل عليها عذبة على كتفه اليسرى طولها نحو نصف متر، ويضع في عنقه سبحة وفي رِجلَيْه حذَاءَيْن أو نعلين، وهو لباس الدراويش المعتاد في السودان الذي فرضه على جميع أصحابه. ذلك ما قاله نعوم[١].

أما إبراهيم فوزي فقال إنه كان يتعمم على قلنسوة من نوع ما يتعمم عليه أهل مكة، وعمامته كبيرة منفرجة من الأمام يرسل عذبة منها على منكبيه حتى تتجاوز سرته، ويضع على منكبيه رداء من الدمور ويتمنطق بمنطقة من الخوص أو بخرقة من الدمور[٢]. وكان يجلس على فروة من الضأن ويقعد القرفصاء وحوله أخصاؤه وأقرباؤه يذاكرهم.

أما لباس الخليفة عبد الله فكان الجبة المرقعة فوق سراويل من الدمور المعروف بالقنجة والعمة المفلجة فوق المكاوية مدلاة منها عذبة على كتفه اليسرى، ويلقي على كتفيه رداء بطرفه حرير أزرق، ويتمنطق بمرقعة حول خصره وكتفه اليسرى، ويتلثم برداء من الشاش الرفيع فوق العمة بحيث لا يظهر من تحته إلا دائرة وجهه، ويلبس في عنقه سبحة كبيرة[٣]. وقال: وكان الخليفة إذا ركب الجواد يلبس أحياناً الدرع والخوذة وألبس جواده اللبوس[٤].

ولقد حث المهدي في مواضع كثيرة من أبياته على لبس الجبة وجعلها من ثوابت تعاليم المهدية وآدابها. ففي مشهد تنصيبه مهدياً في حضرة وصفها في خطاب إلى محمد الطيب البصير، أورد الجبة ضمن الموضوعات المهمة

---

(١) نعوم شقير، ص ٣٤٩.
(٢) فوزي، إبراهيم: السودان بين غردون وكتشنر، جـ٢ ص ٦٦ - ٦٧.
(٣) نعوم شقير، ص ٨٩١ - ٨٩٢.
(٤) نفسه، ص ٣٩١.

التي تواجها المهدية، يقول: «ثم يأتي النبي ﷺ ومعه الشيخ عبد القادر الجيلاني لابس جبة وعليها سيور، فيقول الشيخ عبد الله: يا سيدي يا رسول الله، الناس منكرون الجبة ويتعففون عنها، أفهي سنة واردة أم لا. فيقول ﷺ: وذات الإنسان رقع: في رأسه رقعة زرقاء وباطن شفتيه رقعة حمراء وأسنانه رقعة بيضاء وأظافره رقعة صفراء. ويقول ﷺ: الرقع أربع، بيضاء وزرقاء وحمراء وصفراء. ويقول ﷺ: «لولا أني خشيت عليك أن تصير مغشياً لأريتك جبب الخلفاء الأربعة»[1]. هذه فقرة مهمة في موضع مهم هو تحديد القضايا الرئيسية للمهدية. وكون المهدي أتى بالجبة هنا يعني أن للجبة هذا القدر من الأهمية. وقد ربط بينها وبين الألوان على المنوال الصوفي، بل ذهب ليقول: إن الرقع والألوان ـ وهي طرف مهم من الجبة ـ أمور ثابتة في حياة الإنسان ثبوت أطراف الإنسان نفسها.

وفي موضع آخر يقول: «وليتجنب الترفهات والركوب على فراوي الريف وتعدد الغلمان في ركوبه ليسعوا حول دابته بل يقتصر على تابع واحد فقط يمشي خلف دابته ويكتفي بالجبة المرقعة من تعدد الملبوسات»[2] وفي موضع آخر يقول: «وكذلك مما يقطع عن الله ورسوله الترفه في اللباس والفراش والمأكل والمشرب»[3]. وفي منشور إلى جيشه يحث على ترك كل ما يكون من علامات الترك ولباساتهم[4]. وفي منشور إلى الملازميين يحثهم ويحث كل الأنصار بقوله: «ومن رأى لباس الصحابة وزيهم علم أنهم مطلقون الدنيا لعدم قيامهم بحظ من حظوظ أنفسهم، وكان الواجب على من يعلم أن جسمه عايد إلى التراب ويكون جيفة أن لا ينزهه وأن لا يربيه بل يربي حياة الأبد ويطلب ما عند الله ويكون بحق ربه لا بحظ نفسه»[5]. وروي عنه: «يأتي في آخر الزمان أقوام يأكلون أطياب الدنيا وألوانها وينكحون أجمل النساء وألوانها ويلبسون أجمل الثياب وألوانها ويركبون فراه الخيل وألوانها،

---

(١) الآثار الكاملة للإمام المهدي، تحقيق الدكتور محمد إبراهيم أبو سليم (الخرطوم ١٩٩٠) مجلد ١ رقم ١٥ ص ٨٠.
(٢) نفسه، رقم ١١٤ ص ٣٣١.
(٣) نفسه، رقم ١٣٢ ص ٣٧٨.
(٤) نفسه، رقم ١٤١ ص ١٩٨.
(٥) نفسه، رقم ١٥٧ ص ٤٢٩.

لهم بطون بالقليل لا تقنع ومن الكثير لا تشبع، عاكفين على الدنيا يغدون ويروحون فيها، لأمرها ينتهون ولهواهم يتبعون، اتخذوها إلّهاً دون إلّههم ورباً دون ربهم فعزيمة من محمد المهدي بن عبد الله من أدركه ذلك الزمان أن لا يسلم عليهم ولا يعود مرضاهم ولا يشيع جنائزهم. من فعل ذلك فقد أعان على هدم الإسلام» انتهى.

ومنه: «قال لي ﷺ: البس أنت وأصحابك الجبب المرقعات والأزار والتاج والعمة، وتلك سنتي وأنتم في أثري بأمر الله لك ولأصحابك، لأن الجبب المرقعات لهن أربع خصال: أولها تشبيه بأهل الصفا وينعكس الصفا لباطنه، والثاني تهابه الأعداء، والثالثة تكرمه أهل الحضرة، والرابعة تمنع وقوع الشبهات»[1].

وعندما أرسل المهدي إلى غردون رداً على رسالته التي أرسلها إليه من بربر بعث إليه بجبة ومتعلقات أخرى باعتبارها الشاهد على ترك المرء لمشتهيات الدنيا والإقبال على الآخرة، ويقول المهدي في ملحق خطابه: «باطلاعك على ما تدون بالجواب إليك تعلم باطنه وبه كسوة الزهاد أهل السعادة الكبرى الذين لا يبالون بما فات من المشتهيات طلباً لعالي الدرجات، وهي جبة ورداء وسراويل وعمامة وطاقية وحزام وسبحة، فإن أنبت إلى الله وطلبت ما عنده لا يصعب عليك أن تلبس ذلك وتتوجه لدائم حظك. وها هو الرسول الذي أتى منك واصل إليك مع رسل من عندنا كما طلبت والسلام»[2].

لقد جعل المهدي الجبة المرقعة الزي الموحد لاتباعه. ولهذه الجبة خلفية صوفية عميقة. وهي رمز لزهد الدنيا وتعلقاتها وإقبال على الخلوص وارتباط. ويرتبط بالجبة اللون، وهو في الأصل لون الخرقة التي يلبسها المريد، وذلك لأن كل طريقة صوفية تتخذ لوناً من الألوان رمزاً لها. ونحن نورد عن ذلك بعض تفصيل عند الكلام عن الراية، ولكننا نخلص هنا إلى أن الجبة دليل على مدى تأثر المهدي بالصوفية. وقد ألغى المهدي كثيراً من رسوم الصوفية ولكن الجبة بقيت، وكذلك الرايات بألوانها ذات الخلفية الصوفية. وجبة الأنصار جبة واسعة تصل إلى ما بعد الركبة، ويبدو السروال

---

(١) مخطوط النجومي، الأصل ص ١١٣، التحقيق ص ٤٠٧.

(٢) نعوم شقير. ص ٤٥٤.

تحتها واضحاً وممتداً إلى القدم. وفتحتها من الأسفل واسعة لتسهل حركة الرجلين، وفتحة القبة أي الرقبة موحدة الاتجاه من الخلف والأمام حتى يمكن للأنصاري أن يلبسها كيفما كان الاتجاه، وذلك يساعد على سرعة تحركه كما أنه يزيد من عمر الجبة، لأن اللبس يبلى بجهة الاحتكاك، فإذا كان الاحتكاك موزعاً بالطرفين فإن ذلك يطول من عمر اللبس. وكانت الجبة الأنصارية رخيصة الثمن لأنها مصنوعة من الدمور الذي يصنع محلياً. وكان ببيت المال بأم درمان قسم مختص بإنتاج جبب الأنصار مثلما كانت هناك إدارات لصناعة القرب والرايات والحراب والسيوف وغيرها. وكان هذا الزي موحداً يجمع بين الغني والفقير والكبير والصغير ويتساوى به كل الناس، ويصبحون اتباعاً في سلك واحد ومجاهدين في جيش واحد. وهكذا تصير الجبة المرقعة المتواضعة رمزاً لمضمون اجتماعي وديني كبير.

وبالإضافة إلى الجبة والسروال كان الأنصار من كبيرهم إلى صغيرهم يلبسون السيعيدانة، وهو مركوب رخيص الثمن كانت تلبسه العامة ويسمونه الشيقيانة، والكربة وهي شدة يشد بها الوسط، والطاقية والعمة والسبحة. ذلك هو اللباس الثابت لكل الأنصار، محاربهم وغير المحارب. وكان الجهادية يحملون البندقية. أما كافة الجيش فكانوا يحملون السيف أو الحربة والسكين.

وكانت الجبة، ومعها العمة والطاقية، مما أهداه المهدي إلى غردون كما ذكرنا وإلى السلطان محمد يوسف سلطان وداي لتكون علامة على قبولهما دعوته والتزامهما بسلوك التقشف ونبذ الدنيا ومتعها.

وكانت الجبة كما قلنا تصنع من قماش الدمور أي القنجة، وكذلك السروال. ويذكر شاعر المهدية أحمد ود سعد في مدحة له لبس القنجة ممجداً. والدمور ينسج من القطن الذي كان يزرع في السودان. فزراعة القطن في السودان لم تبدأ في العهد الثنائي ولا في العهد التركي. وكانت صناعة الدمور قديمة في السودان، وكانت تتم في مصانع صغيرة يسمى الواحد منها دكاناً. وكانت هذه الدكاكين منتشرة في القرى، واشتهرت بعض البلدان بالتوسع في هذه الصناعة كشندي وسنار ورفاعة والحلاوين. وكانت

تجارتها رائجة. ولثبات هذه الصناعة وصيرورتها وقوتها اتخذ ثوب الدمور أساساً للتبادل التجاري على نحو ما نفعل الآن بالعملات. وقد بلغنا أنه كان بقريتنا عدد من الدكاكين كانت تنتج الدمور من خيوط كانت تعد محلياً من القطن، وكان يقوم بالغزل النساء، وفي الأغلب المتقدمات في السن. وغالباً ما كان يذهب صاحب الطلب إلى الدكان بخيطه فيقوم صاحب الدكان بنسج القماش المطلوب ويأخذ حقه. والقطن يسمى باللغة النوبية «كشماق Koshmag» وتسمى آلة الغزل «نبرى Nibarae»، ويسمى الغزل «قونجي Gonjae» بمعنى البناء وما يصنع، ومن لفظ قونجي النوبي جاءت كلمة قنجة، وكل ذلك يعني أن صناعة النسيج قديمة في بلاد النوبة بدليل وجود ألفاظ خاصة بها. وبآلة الغزل نفسها كانوا يغزلون شعر الغنم والضأن ويصنعون منه أغراضاً كثيرة. وكانت تتردد على ألسنة الناس بقريتنا أسماء رجال كانوا يقومون بصناعة الدمور فتصنع منه الملابس، ثم قصروا جهدهم على إنتاج الشالات بعد أن غزا إنتاج المصانع الأوروبية من الأقمشة السوق، ثم توقفوا عن إنتاج الشالات أيضاً. وقد رأيت وأنا صغير دكاناً كان بقرب منزلنا وكان يديره رجل غريب قدم من أدندان بالنوبة المصرية، وكان بجانب النسيج يقوم بصيد السمك وأعمال أخرى. وكان متخصصاً في عمل الشالات. وقد احترق دكانه ومات هو بسبب الحريق فانتهت هذه الصناعة به.

الخرقة:

الخرقة، وجمعها خرق، القطعة من الثوب الممزق. وعندما قال الطبقات في خبر صالح بانقا بأنهم «جابوا نار الجيلاني وهي خرقة فتيلة فيها نار وجابوها في ياقوتة حمرا مثل نقارة النحاس»[١] فإنه كان يعني قطعة قماش بها النار. ويفهم من العبارة أن مشيخة القادرية في السودان، أي النار التي أتى بها البهاري، قد انتهت في رأي ود ضيف الله أو مصدره بوفاة بدوي أبو دليق وعاد سرها إلى بغداد ثم عادت المشيخة بسرها بظهور صالح بانقا.

---

(١) الطبقات، ص ٢٤٢.

والخرقة التي نعنيها هنا من لباس الصوفية، وهي مرقعة متواضعة يبتعد بها الصوفي أو المتعبد عن اللبس الفاخر ويرمز بها إلى التواضع والزهد عن الدنيا وهي تعني أيضاً انتقال بركة الشيخ إلى المريد والتزام المريد بكل شعائر الطريقة وربما تفرغه لها. ويورد الصوفية في أدبياتهم كلاماً كثيراً عن الخرقة ومعانيها وفوائدها، وننصح من يريد التوسع بأن يرجع إلى السهروردي. وعادة ما تكون الرقع بلون الطريقة التي ينتسب إليها الصوفي. ويلاحظ أن المرقعة لم تنتشر في السودان كثيراً لأن صوفية السودان لم يكونوا مغالين في سلوكهم، ولم يتخذها إلا قليلون. والدلق من كلام النوبة، وهو يعني الأثمال. وقال الدكتور يوسف في ذلك: والدلاقين جمع دلقون، وهي الخرق البالية، ولعل أبا دليق أراد أن يقول إنه كان يطرز جبته بالخرق البالية إمعاناً في التقشف كعادة الزهاد[1]. ولكن بعض الزهاد والدراويش كانوا يلبسون الأثمال أي القديمة المقطعة. وكان بالسكوت درويش من بلدة أبراقة يدعى عثمان، وكان يلقب بلفظ فيكي، ومعناه الدلق. ويقول النوبة في الرجل الضعيف الذي لا موقف له فيكي، أي الدلق. وأحياناً توصف الجبة ذاتها بالدلق وهذا المعنى يقرب إلى رأي الدكتور يوسف، ومن ذلك قول الشاعر في جبة حمد ولد أم مريوم: أبونا أبو دلقا مرقع[2]. وقد أورد الطبقات بعض أخبار قليلة عن الخرقة. منها خرقة بغداد التي ذكرناها قبل قليل والتي جاءت لصالح بانقا، ومنها ما ورد في إجازة عبد الله العركي لأبي إدريس: «وأجزت له لباس الخرقة واستخلفته»[3]. والقصد من هذا النص هو كمال الإجازة وممارسة التصوف أكثر من أن يعني الخرقة التي تلبس. ومن الجبب المشهورة جبة حمد ولد أم مريوم التي وصفها الشاعر فيما تقدم، وقد ذكرها الطبقات[4] ضمن أمور أخرى تدل على زهده. وعبد القادر بن الشيخ إدريس ود الأرباب مال إلى العلم بعد أن أدرك جهله فلبس متنكراً في جبة وهرب إلى نوري ليتعلم[5]. وجاء في خبر محمد بن فايد الشريف أنه كان يلبس

---

(١) الطبقات، ص ٤٨.
(٢) نفسه، ص ١٧٦.
(٣) نفسه، ص ٦٦.
(٤) نفسه، ص ١٧٦.
(٥) نفسه، ص ٣٠٨

الجبة ويشدها بمنطقة في وسطه. وقد أعطاه الولاية الشيخ إدريس وقال له: أذنا لك، البس الجبة وشيل العكاز[1]. ومرقعة موسى أبو قصة ذهبت لابنه النور، قال موسى لمحمد ود الزين: اديها لولدي النور بعدما يكبر، أول ما لبسها أعطاه القبول عند الملوك والسلاطين وملوك الفونج والعرب[2]. أرأيت سر هذه الجبة وخطورتها! وفي جبة أبو دليق قال الشاعر قولاً يعني أن الجبة شعار الولاية وأن العكاز شعار الحكم[3]. ومن الأخبار قوله: وكان عنده ناس الطريق لابسين الجبب نحو ستين[4]، أي المنقطعين من أصحاب الجبب.

ومن أدبيات المهدي: أن الرقعة فيها أربعة خصال: الأول صفاء القلوب والثاني تمويت النفس والثالث ترهيب العدو والرابع تستحي منه أهل الحضرة. ومن أدبياته أيضاً: لأهل الله في طريقهم أربعة موتات: أولها الموت الأبيض وهو الجوع، وأعني بذلك جوع العادة. والثاني الموت الأخضر وهو لباس المرقعات زهداً للمشتهيات. كان لعمر بن الخطاب ثوب فيه ثلاثة عشر رقعة إحداهن قطعة جلد وهو حينئذ أمير المؤمنين. والثالث موت أسود وهو أذى الخلق. والرابع موت أحمر وهو مخالفة النفس في شهوة أغراضها[5].

الطاقية:

والطاقية طرف من اللباس، ولها أخوات كثيرة تصنع من مواد مختلفة وفي أشكال مختلفة كالقبعة والطربوش. والغرض من الطاقية وأخواتها هو وقاية الرأس من الشمس والبرد والهواء والتراب، ثم جاءت الزينة لأن الإنسان يميل بطبعه إلى الجمال، وأضحت الطاقية مما يتزين بها الناس. وهنا جاءت الأشكال المختلفة والألوان. وقد تميز الحكام والسراة بالطواقي الغالية الثمن الجميلة الشكل، ومن هنا دخلت الطاقية في عداد علامات الحكام والأولياء وشاراتهم.

---

(١) نفسه، ص ٣٢٤.
(٢) نفسه، ص ٩٠.
(٣) نفسه، ص ١١٧.
(٤) نفسه، ص ١٢٠.
(٥) مجلس المهدي رقم ٢/ د ٣ ص ١٢ ـ ١٣. يرد هذا المجلس في الآثار الكاملة للإمام المهدي تحقيق مؤلف هذا السفر.

ومعروف في وسط السودان وشرقه أمر الطاقية أم قرنين الموروثة من ممالك السودان القديمة، وهذه لم تكن معروفة في دارفور، ونحسب أن نعوماً قد أخطأ عندما جعل لسلطان الفور طاقية بقرنين[1] في حين أن غيره يذكر طاقية بغير قرن. وكان السلطان يجلس عند التتويج على ككر ويقوم الأبوارلينقو بوضع الطاقية على رأسه ضمن طقوس التتويج. وبعد ذلك يعمم له أحد الأعيان، ويضع عليه الشال ثالث من الأعيان. وبعد ذلك تتم البيعة. وعندما يبدأ موسم الزراعة بالاحتفال في مزرعة السلطان كان يؤتى للسلطان من مخازنه بطاقية جديدة فتوضع على رأسه ومركوبين جديدين يلبسهما ثم يشرع في افتتاح الحفل ببدء الزراعة. وعادة بدء الحكم أو الزواج أو الزراعة بزي جديد شائعة، والقصد منها الانتقال من مرحلة إلى مرحلة جديدة بالجديد الذي ليست عليه شائبة.

وكان الحكام في البلاد الخاضعة للفونج يلبسون الطاقية أم قرنين علامة للسلطة، وقد صارت هذه الطاقية مرادفة للسلطة، فإذا قالوا مثلاً جاءت الطاقية لفلان قصدوا جاءه الملك، وإذا قالوا إنه لبس الطاقية عنوا أنه تولى الملك. وقال بعض الأولياء لأحد حكام العبدلاب: ود بري شال طاقيتك رماها وراء جبل قاف[2] ـ والمعنى أن ود بري سلب ملكه فراح عنه نهائياً، وجبل قاف جبل خرافة. وكان هذا الحاكم قد أساء إلى ود بري وأغضبه. وقد سمى عبد الرزاق أبو قرون نفسه مفتخراً بأبي قرينات. وقد ذكرنا في التوطئة بعض هذه المعاني.

ومن الحكام أخذ الصوفية فلبسوا الطاقية أم قرنين علامة على أنهم وصلوا درجة في التصوف تجعلهم قرناء للحكام. ويبدو مما يرويه الطبقات أن البهاري اتخذ عن الملوك بعض أدوات الملك، فلما غادر السودان أعطى هذه الأدوات، وكان منها الككر والطاقية، لبانقا الضرير، وقد بقيتا فيما ذكرنا، عند محمد التوم بقرية السبيل. كذلك أخذ حسن ود حسونه أدوات الملك فلبس الطاقية وكون جيشاً من العبيد بلغ نحو ٥٠٠، وكان له سيد قوم وحارس وعكاز.

---

(١) نعوم شقير، ص ١٧٨.
(٢) الطبقات، ص ٢٩٦.

الطاقية أم قرنين:

وتعرف أيضاً بالطاقية أم قرينات. وقد استعملها سلاطين الفونج وحكام الأقاليم التابعين لهم ثم استعملها شيوخ الصوفية، وربما كان ذلك لأن الصوفية ذهبوا إلى أن لهم دولة تدير أمور العالم بقيادة كبيرهم سواء سمي صاحب الوقت أو القطب أو الغوث. وكان للولي سلطة دنيوية قوية ينفذها بنفوذه، وأحياناً كان الولي ينافس الحاكم في سلطته. وعلى ما يقول آركل فإن بالمر ربط بين الطاقية أم قرنين وبين قرني كبش آمون[1]. وقال أيضاً إن مكمايكل ربطها بطاقية كان يلبسها بعض حكام النوبة. وذكر قرفث أنه وجد في صورة حائط في فرص وكنيسة عبد القادر (وكلا الموضعين بنواحي حلفا) حاكماً نوبياً يلبس طاقية بقرنين، وقد ذهب إلى أن الفونج أخذوا طاقيتهم ذات القرنين من ملوك النوبة وأن ملوك النوبة أخذوها من الآلة التي تظهر في غطاء الرأس عند حكام مروى، وأن الأصل في ذلك هو قرنا كبش آمون. واعتماداً على الروايات التي جمعها في منطقة سنار قرر آركل أن الصوفية أخذوا الطاقية من ملوك الفونج وجعلوها لمقدمي الطريقة. وأكثر ما يكون انتشارها عند القادرية. وكانت الطاقية توضع على رأس المانجل ومن كان نحوه عند التتويج. وتظهر هذه الطاقية على رأس ملك فازوغلي الذي أورد صورته نعوم شقير[2]. وكما هو ظاهر هنا فإنها طاقية عميقة تكسي كل الرأس ولها حدان ممتدان فوق الأذنين متجهين إلى الأمام، وكان المقصود بهما تغطية الأذنين. وموضعهما كما ترى بعيد عن موضع القرن. وقد ذكر ديزني هذه الطاقية عندما توج بها ملك فازوغلي وقال إنه جاء بها الملك حسن عدلان من سنجة، وإنها صنعت خصيصاً لهذه المناسبة، وقد وضعت ملفوفة بقماش على المنضدة مع السيف والقفطان ريثما توضع على رأس الملك عند التتويج. وكانت عبارة عن طاقية أم قرنين، بأعلاها قنبرة ويتدلى منها طرفان بالجنبين في اتجاه الأذنين على النحو الذي سلف وصفه. وقد أعدت من قماش جيد، وكان لونها أخضر ومزخرفة، وقد رسم على طرفيها الممتدين سيفان. ولا يكون مع الطاقية أم قرنين عمة أو شال.

---

(١) آركل، ص ٢٤٤.

(٢) نعوم شقير، ص ٥٠٣.

وظاهر مما تقدم أن هناك شكلين، شكل بقرنين بأعلا الطاقية على شكل قرن الكبش وشكل بحدين بأسفلها ليغطيا الأذنين نحو طاقية ملك فازوغلي وطاقية وزير الفونج التي وصفها بروس.

العمامة:

وهي قطعة من قماش تلف فوق الطاقية، وقد تلف على الرأس بغيرها وكانت عمامة الرسول عليه الصلاة والسلام التي دخل بها مكة فاتحاً سوداء ومنها أخذ العباسيون في بعض ما يقال اللون الأسود شعاراً لهم، وإنا نحيل القارىء إلى زاد المعاد لابن القيم إذ به تفاصيل عن لباس الرسول وسائر متعلقاته. وكان الأتراك والمماليك مغرمين بالعمامة، وقد وصلت إلينا صور لأشكال متنوعة من عماماتهم. وعمامة السودان قصيرة، ولا مبالغة فيها حتى عند حكامهم ولكنها أقصر من العمامة المصرية. والعمامة الأزهرية مشهورة. وأهل الخليج والسعودية والشام يضعون الشال والعقال على الرأس مباشرة. وقد أخذ حكام السودان العمامة علامة للسلطان. وقد سبق القول بأن السلطان محمد الحسين سلطان دارفور أرسل فيما أرسل عمامة لمقدوم الجنوب بعد إعادة تعيينه[1] كما سبق القول بأن أحد الأعيان يعمم لسلطان الفور عند الاحتفال ببدء موسم الزراعة. وفيما روى ناختقال فإن سلطان التنجور كان يتعمم بعمامة سوداء حزناً على ملكهم الذي ضاع. وعمامة السودان تلف كما يريدها صاحبها وهذه بخلاف العمة التي تدبر ملفوفة. وصوفية السودان جروا على ما عليه صوفية الإسلام من حيث دلالة الألوان على معاني يعرفون بها فجاءت ألوان العمامة حسب ألوان الطرق. وعند بعض الطرق يقوم الشيخ بوضع الطاقية على رأس المريد الذي يراد تخليفه ثم يلف عليها العمامة. وقد جعل المهدي للعمامة طولاً محدداً ولفة معينة اقتداءً بالرسول. وقد وصفنا فيما سبق عمامته وعمامة الخليفة. وكانت العمامة والطاقية مما أهداها المهدي إلى غردون وإلى السلطان محمد يوسف سلطان وداي مع أدوات أخرى. وزعم الخليفة أن عمامة الخليفة الرابع، يعني

(١) ناختقال، ص ٩٠٩.

علي بن أبي طالب، قد آلت إليه، ومعنى ذلك تمام الخلافة عنده، ومعناه أيضاً انتقال ما كان لدى الخليفة شريف، خليفة علي بن أبي طالب، إليه بعد سجنه. وقد سبق وصف عمائم الختمية. وشيخ السمانية القريبية عندما يعين مرشداً يعطيه عمامة مع أدوات أخرى.

وقد جاء في خبر صالح بانقا أنه عند تنصيبه ولياً عممه جبريل بأمر الرسول على رأسه بعمامة بيضاء وربطها بخيط، وإن الجيلاني كان حاضراً المشهد وعلى رأسه عمامة بيضاء. وعندما خلف الشيخ دفع الله أبو إدريس حواره صغيرون زين رأسه ثم عممه بعمامة وشد عليه شدة[1]. وسلمان العوضي بذ الجميع، فإن أتباعه كانوا وقت الذكر يفرشون الجمر أو يملأ الواحد منهم عمامته جمراً ويضعها على رأسه ويرقص، بل كانوا يأخذون الحربة والسيف ويخرطونها حتى تصير مثل المسلة[2]. وقد سبق القول عن الجبة والكوفية والخرقة في أماكن متفرقة.

وكانت عمامة الرسول عليه الصلاة والسلام التي دخل بها مكة فاتحاً سوداء. ومنها أخذ العباسيون في بعض ما يقال اللون الأسود شعاراً لهم، وإنا نحيل القارىء إلى «زاد المعاد» لابن القيم، إذ به تفاصيل عن لباس الرسول وسائر متعلقاته الخاصة.

الشال:

والشال يأتي فوق العمامة لمزيد من الحرص على الوقاية فيغطي الرأس ويمتد إلى الطرف الأعلى من الجسم، وأحياناً يلف حول الرقبة لتغطيتها، وأحياناً يوضع على الكتفين ويتدلى جانباه. والشال جزء من الزينة وقد لا تتم وجاهة الرجل بغيره. والنسوة يضعنه فوق الطرحة. والملفحة والكوفية والكشمير ألوان مما يلبسه العلية واللثام من نفس البحر، وقد سبق الكلام عنه. وفي دارفور كان كبار السن يعقدون شيلانهم حول خصورهم لتتدلى خلفهم، أما الصغار فكانوا يلبسون الشال ملفوفاً حول خصورهم كالحزام.

---

(١) الطبقات، ص ٢٠٦.

(٢) نفسه، ص ٢٢٢.

وأهل الصحراء يعنون بذلك للاتقاء من الشمس والأتربة، وقد لا يبقى عند ارتدائه، من الرأس والوجه إلا العينان والأنف. ويدخل ربط اللثام ورفعه في آداب الملوك على ما بينا في موضعه. وقد ذكرنا في مواضع مختلفة كيف كان يتم تتويج ملوك السودان وكيف أن رجلاً من أهل المراتب كان يخصص لوضع الشال بعد أن يضع آخران الطاقية والعمامة. وبينما تتجه وجاهة أبناء المدن هذه الأيام إلى العمامة الكبيرة والملفحة على الكتف يزداد في الأقاليم في الشمالية انتشار الشال الشامي والخليجي الذي يجلبه المغتربون، وهو يتخذ عادة بدلاً عن الطاقية والعمة والشال معاً حيث يلف على الرأس مباشرة. وهو يفضل لرخص ثمنه ولأنه يغني عن الطاقية والعمة والشال معاً ولسهولة تناوله[1].

الكساوي الخاصة:

وفي العهد الثنائي أعطى الإنجليز المتميزين من رجال الدين والإدارة الأهلية كساوي خاصة تقديراً لجهودهم واعترافاً بمكانتهم العالية، وكان جمهور الأعيان مأخوذاً بهذه الكساوي لما تعطي من المكانة بين الناس وفي دوائر الحكومة. كذلك أعطت الحكومة علامات خاصة للأعيان في المديريات الجنوبية بدل الكسوة. وكانت الكساوي تعطى من قبل الحاكم العام مصحوباً ببراءة مكتوبة، وكانت كسوة شخصية لا تورث بل تعاد إلى الحكومة عند وفاة صاحبها. ولكن كان من الممكن الاحتفاظ بالبراءة إذا شاءت الأسرة. وكانت الكسوة تسحب من صاحبها إذا ارتكب جرماً كبيراً.

وكانت الكساوي تعطى في المناسبات كل عام وخصوصاً بمناسبة عيد ميلاد ملك بريطانيا. ويجري الاختيار لها حسب إجراءات دقيقة ويتم نشر أسماء من ينالون ومن يسحب منهم في الجريدة الرسمية. وكان على من يمنح الكسوة أن يظهر بها في المناسبات الرسمية، وينبغي أن يكون ترتيب أصحابها في الوقوف والتقدم والجلوس حسب درجات كساويهم[2].

---

(١) الطبقات، ص ٢٨٣.

(١) الطبقات، ص ٢٩٤ ـ ٢٩٥.

وكانت الكساوي من نوعين، الكساوي الدينية وكساوي الشرف.

أما الكساوي الدينية فكانت من ثلاث مراتب، وهي:

(أ) الكسوة الدينية المخصوصة وهي من الجوخ الأرجواني ومزركشة الياقة والصدر والظهر ولا تمنح إلا لزعماء العائلات المعروفة ذات النفوذ الديني الواسع.

(ب) الكسوة الدينية من المرتبة الأولى وهي من الجوخ الأرجواني ومزركشة الياقة والظهر وتعطى لرجال الدين الذين يأتون في مرتبة تالية لأصحاب الكسوة المخصوصة.

(ج) الكسوة الدينية للمرتبة الثانية وهي من الجوخ الأرجواني ومزركشة الياقة فقط وتعطى لمن يلون أصحاب المرتبة الأولى.

وتعطى مسبحة للفئات الثلاثة مع الكسوة.

أما كساوي الشرف فكانت في أربع مراتب، وهي:

(أ) كسوة شرف خصوصة مصنوعة من الجوخ الأحمر ومزركشة الياقة والصدر والكمين والظهر ولها ثلاثة أزواج من وردات الذهب على صدرها، وتمنح لنظار القبائل وشيوخ العشائر الكبيرة ولبعض السلاطين والملوك من ذوي المكانة العالية.

(ب) كسوة شرف من المرتبة الأولى مصنوعة من الجوخ الأحمر ومزركشة قليلاً على الصدر ويتدلى منها ست وردات ذهب وتمنح لمشائخ القبائل والسلاطين والملوك وكبار العمد والمشايخ في عواصم المديريات.

(ج) كسوة شرف من المرتبة الثانية مصنوعة من الجوخ الأحمر ويتدلى من صدرها أربع وردات وتمنح لمن هم أقل شأناً من أصحاب المرتبة الأولى والذين خدموا الحكومة خدمة طويلة حسنة.

(د) كسوة شرف من المرتبة الثالثة مصنوعة من الجوخ الأحمر ولها وردتان فقط على الصدر وتمنح للعمد والمشايخ ذوي الشأن والذين خدموا الحكومة خدمة حسنة.

وكان يعطي مع الكسوة سيف وعلاقة.

وفي مرحلة ثانية تعدل لون الكساوي من اللون الأحمر إلى اللون الأزرق ولكن ذلك لم يعجب بعض المسؤولين وبعض الحائزين.

وقد أبطلت الكساوي مع الاستقلال وصار المبرزون من رجال المجتمع ينالون النياشين والأوسمة إلا أنه لم يخصص نيشان أو وسام أو وشاح خاص للخدمة الإقليمية ليحل محل كسوة الشرف.

القسم الثالث

الأدوات والآلات

١ ـ المركوب:

المركوب أو النعل أو الصندل طرف من اللباس عموماً، وهو طرف مهم من لباس الحكام والصوفية. وأغلب العامة كانوا حفاة لا يلبسون شيئاً في أرجلهم. وقد عنى الحكام والصوفية والسراة به عناية فائقة. والصوفية، بخلاف غيرهم، يحتفظون بمركوب الشيخ تبركاً. وعلى ما سنذكر بعد قليل تحتفظ بعض الأسر الدينية في السودان بعدد منه. وبخلاف لبسه فإن الصوفية يعنون بالنعل لأمور أخرى، منها عنايتهم بنعل النبي عليه الصلاة والسلام، ولهم في ذلك أشعار، وقد وقفت على ديوان مخطوط، هو «النفحات العنبرية في نعل خير البرية» جمع فيه مصنفه، وهو غير معروف، شعراً كثيراً يدور حول نعل النبي، وأهم ما يمجد في ذلك أنه تشرف بقدم الرسول وأنه صعد معه إلى السماء في معراجه وأنه أثر من آثار الرسول. وبعض المريدين يخدمون الزوار المتعبدين بحفظ نعالهم في المزارات ومراكز الطرق بل إن بعضهم يبدأ حياته الصوفية كخدام للأحذية. وفي بعض الطرق نقيب للأحذية يتولى حراستها للذاكرين. وقد ذكر هذا المعنى الشيخ الغنيمي التفتازاني الذي داوم على هذا زمناً طويلاً. وفي السودان مواقع كثيرة يعتقد العامة أن قدم الرسول وطأتها وتركت أثرها محفوراً على الأحجار.

وعلى ما ذكر فإن سلطان الفور كان يلبس في رجليه حذاء من السختيان الإسلامبولي الأصفر أو الأحمر[١]. وكان يؤتى له بصندلين جديدين مع جلابية

---

(١) نعوم شقير، ص ١٣٤.

وطاقية وعمامة وشال عند بداية حفل الموسم الزراعي الجديد في مزرعته فيلبسها حسب طقوس هذا الحفل[1] . والمقصود بهذا هو الفأل الحسن لإنتاج مبارك لسنة جديدة سعيدة. وكان النعل من ضمن الأدوات التي يقدمها سلطان الفور لولاته عند التولية، ومن ذلك أن السلطان حسين أعطى مقدوم الجنوب عند إعادة تعيينه أدوات كان من ضمنها مركوب جديد[2] .

والمركوب الخشبي يسمى «كركب»، وهو منتشر في مصر في أوساط الطبقات الشعبية لرخص ثمنه وطول عمره ولأنه يقي من الرطوبة. ويتخذه صوفية السودان في الخلوة بدلاً عن المركوب الجلدي لأنهم لا يقبلون ما كان من ذي روح. ومع الكركب يأخذون إبريقاً فخارياً للوضوء والشراب وسيفاً خشبياً يتقون به من الشيطان، ولاحظ أنه من الخشب وليس من الحديد. وحماية المرء من الشيطان بحمل السيف تظهر عندما يحمل العريس في بعض المناطق سيفاً حتى يتم الأيام الحاسمة من عرسه. وأحياناً يتقون منه بالمصحف الشريف وخصوصاً بجانب المولود وأمه وبجانب من تقضي العدة لوفاة زوجها.

أما عن مركوب الفونج فإن المصدر الوحيد الذي وصف لباسهم هو بروس، وقد ذكر أن الفونج عادة يمشون حفاة في بيوتهم، إلا أنهم خارج بيوتهم يلبسون مركوباً خشبياً مزيناً بالصدف. وعندما ذهب إلى السلطان في ديوانه وجده حافياً ولكنه غطى رجليه بطرف جلبابه. ولم يذكر مركوب الوزير مع أنه عنى بوصف هندامه. كذلك لم يذكر مركوب ستنا حاكمة شندي مع أنه وصف هندامها حتى الخلخال في الرجلين. ويبدو من ذلك أن المركوب لم يكن له موضع في مراسم الفونج. ولكن المركوب واضح وشكله ملفت في الصورة التي أوردها نعوم شقير لملك فازوغلي، وقد أعدت هذه الصورة في أوائل الفتح المصري على يد إسماعيل باشا بن محمد علي باشا مما يعني أن المركوب سابق للتركية.

---

(١) ناختقال، ص ٣٣٩.

(٢) نعوم شقير، ص ١٨٤، أوفاهي، ص ٢٠.

وكان من ضمن أدوات شيوخ اليعقوباب فيما ذكر آركل مركوبان من الخشب عند محمد التوم بقرية السبيل يرجعان إلى جده يعقوب بن بانقا الضرير ومركوب خشبي عند حمدان[1]. ومن النعال المحفوظة إلى الآن نعل الشيخ برير ود الحسين، وهو من كبار السمانية، وكان موطنه في شبشة حيث قبته الآن وهو ممن كاتبه المهدي من الأبيض مستحثاً للجهاد معه. ونعله من الجلد، وقد رأيناه في معرض أقيم بالخرطوم في أواخر العهد المايوي.

وكان الإمام المهدي يلبس نعلاً يشبه نعال أهل مكة مصنوعاً في السودان، وكان لبسه مخصوصاً بالأعراب والضعفاء. ويطلق عليه الشيقيانة ـ بالتصغير ـ فعدل المهدي اسمه إلى السيعيدانة[2]. وكانت الحكمة من اتخاذه ـ مع الجوانب الأخرى للباس المهدي ـ الزهد والتزام حياة الفقراء لبعد المهدي وأنصاره عن زخرف الدنيا ومتعها. ولبس الخليفة عبد الله في قدميه الخف الأصفر في الحذاء الأصفر، فإذا جلس خلع الحذاء وأبقى على الخف وتربع على عنقريب فوق فروة من جلد الضأن، وهي التي يصلّي عليها[3]. ولعلك تلحظ معي أنه في حذائه قريب إلى سلطان الفور في بعض ما وصف من قبل.

٢ ـ الإبريق والركوة:

والإبريق من أدوات الوضوء، وهو من لوازم الصوفية والدراويش، وبعضهم يحمله معه ليشرب منه ويتضوء به وهو من ألزم لوازم الخلوة. ومن آداب التصوف ألا يستعمل المريد إبريق أستاذه ولا يقعد على فروته ولا يرتكز على عصاه. وفي موكب سلطان الفور كان بعض رجاله يحملون أباريق من النحاس بغير ماء على وجه العرض. وفي موكب الخليفة عبد الله كان بعض خدمه يحملون الإبريق وفروة صلاته ليؤدي بهما وضوءه وصلاته عندما يحين وقت الصلاة. وإبريق فرح ود تكتوك مشهور، إذ عندما جاءته بنته في خصام مع زوجها خرج بإبريقه إلى الخلاء وكسره عن عمد، وهذا يعني أن إبريقه

---

(١) آركل، بحث عن اليعقوباب بملف مديرية النيل الأزرق برقم 66.A.4 محفوظ بدار الوثائق.
(٢) فوزي، ج ٢ ص ٦٧.
(٣) نعوم شقير، ص ٨٩٢.

كان من الفخار، ثم رجع إلى الدار يبكي فرأته بنته وهونت عليه الأمر بأن من السهل أن يحصل على إبريق آخر، فقال لها إبريقي عرف عورتي ولا أحب أن يراها إبريق آخر، ففهمت مقصده ووعت وعادت إلى زوجها. وإبريق السودان من الفخار، وكذلك محابره. وإبريق النساء شكله خاص وفتحته واسعة حتى تدخل المرأة يدها وتغرف الماء منه دون تحريكه تخفيفاً عليها. وهو يسمى في لغة النوبة «شربي اخقلاث. وقد انتشرت الأباريق المعدنية، وبعضها غالية الثمن، ثم انتشرت أباريق البلاستيك. وبعض أهل الإحسان يهدون إلى المساجد والزوايا الأباريق طلباً للثواب، فإن لم يفعلوا فعلى إمام المسجد أن يوفرها. والمساجد الحديثة توفر الماء بالصنابير.

ويلاحظ في تدبير الإبريق أن فتحته صغيرة وذلك لمنع الحشرات من دخوله، خصوصاً والإبريق يكون خارج الحجرات، وثانياً لمنع الأتربة، وثالثاً للتقليل من تبخر الماء، ورابعاً لتقليل تدفق الماء عند الاستعمال توفيراً للماء. وهذه تدابير ضرورية في بلد يكثر فيه الغبار وتكثر فيه الحشرات والماء فيه عزيز.

والركوة إبريق من الجلد، وقد أحكمت دباغته لتكون قوية بحيث تقعد عمودياً مثل إبريق الفخار. وهي بغير مسام حتى لا يتبخر الماء وفي حجمه أكبر قليلاً من الإبريق وأسهل منه حملاً. وورد في السيرة النبوية الشريفة خبر ركوة الرسول عليه الصلاة والسلام. والقوم لا يتخذون الركوة في الخلوة لأنها من جلد كان به روح. ومن الطريف أن ولي الله عبد الله ولد موسى المشمر انكسر إبريقه وصعب عليه الأمر فركب على جمل أشهب وانطلق حتى لاقاه رجل عنده ركوة فقال له: أتبيع لي ركوتك بهذا الجمل؟ قال: نعم، بعتها! فأخذ الركوة وهرب مسرعاً خوفاً من أن يندم صاحبها عليها ويطلبها، وهرب صاحب الركوة من جانبه بالجمل مسرعاً خوفاً من أن يندم صاحبه عليه فيرجع[1]. ومما يرويه الطبقات على سبيل آداب الصوفية وبركاتهم أن عبد الرازق أبو قرون خرج يستجمر فلحقه بدوي أبو دليق بإبريق فيه ماء

---

(١) الطبقات، ص ٢٦٤.

ليستنجى به فأخذ بذلك وقال له: إن كان ما أخلى قوم عبد القادر الجيلاني تتعلق بهلاكيتك مان أبو قرينات[1]. وكان ذلك سبب ولايته.

٣ ـ الفروة والسجادة:

والفروة للصلاة والجلوس معاً، على الأرض أو على العنقريب. وهي من جلد الحيوان، وأغلبها من جلد الضأن أو جلد الغزال أو العجل. وبعضهم يجمع جلد الضأن أو الماعز في فرو فينام عليه أو يتغطى به بعد أن يزيته لينعم بفعل الزيت. ويبدو أن هذا كان غطاء النوبة قبل أن يعرفوا الحرام والبطانية، بل كان الجلد لباس السودان حتى ترقى أهله. وبرش الصلاة المصنوعة من سعف الدوم في شكل دائري أكثر انتشاراً في أواسط السودان من فرو الجلد، وهو مرتفع بالجوانب ليمنع التراب والحشرات عن القاعد عليه. ويزين في طرفه ويشد برباط من شعر الغنم. وهو يسمى التبروقة أو التقروقة، ورد اللفظان في الطبقات. وروى لنا الأستاذ الطيب محمد الطيب أن الشائع في وسط السودان هو التقروقة. واللفظ ليس بعربي، ولعله من لسان البجة. وقد ذكر الطبقات تقروقة ـ هكذا ـ عبد الله الحلنقي[2]. وبرش المحس والسكوت للصلاة يصنع من سعف النخل أو من قصب القمح، وشكله أقرب إلى اللوح أو الشرافة. ومنه أشكال بديعة حقاً. وهي من صنع النساء، وأكثرهن دراية ودقة بهذه الصناعة نساء عرب القراريش. وهن يصنعن القفف من سعف الدوم. وفي دارقور كانت صناعة القفف والحصر والأطباق مزدهرة، وكانت القفف والحصر من لوازم القوافل، ففيها كانوا يضعون ما يحملونه، ولم يعرف الجوال إلا مؤخراً، وقد أطرى ناختقال أطباق دارفور الأنيقة المصنوعة من السعف حين وصف مائدة قدمت له ولمن معه، وقال إنهم يحق لهم أن يفاخروا ببراعتها. وعلى ما ذكر فإنهم كانوا يتحصلون على اللون الأسود من الحث (وهو مواد نباتية متفحمة) وعلى اللون الأحمر من سيقان أنواع معينة من الذرة. وقال إن الطبق كثيراً ما كان يزدان برسومات جميلة من سكسك زجاجي صغير أزرق اللون واشتهرت مدينة شندي بهذه

---

(١) الطبقات، ص ١٦٦، ٣٠٣.
(٢) نفسه، ص ٢٦٦.

المصنوعات، وكذلك سوق الدامر، وما تزال المدينتان إلى اليوم تحافظان على سمعتهما في هذا المجال. وتزدان الأطباق هنا برسومات خطوطية ودائرية ومربعة من السعف الملون. وقد دخل الخيط هذه الصناعة بدلاً من شرائح السعف.

والفروة والسجادة من لوازم الحكم. وكان سلاطين الفور والفونج يقعدون عند الحكم على سجادة تفرش في المقصورة.

وقد رأيت فيما سبق أن الخليفة عبد الله كان يقعد على فروة وأن خدمه كانوا يحملون له الفروة إذا خرج في موكب. وكان الخليفة إذا أراد أن يذل رجلاً أو يؤدبه ألزمه الفروة، وهو أن يجلس أمام داره لخدمته ويقدم له الإبريق وفروة الصلاة، وهي خدمة في الأصل لخادم الفكي جعلها الخليفة لمن أراد إخضاعهم أو تربيتهم فيما قال، وكان من هؤلاء سلاطين باشا مدير دارفور السابق وعلي دينار سلطان دارفور لاحقاً! وهؤلاء بغير الملازمين الذين كانوا يقومون بالحراسة وتنظيم المصلين والجمهور عموماً.

وكان شيخ السمانية القريبية يعطي للمرشد عند التخليف فروة مع أشياء أخرى علامة على الإجازة وبركة، وكان معها مصحف. ومن آداب التصوف ألا يقعد المريد على فروة أستاذه أو يستعمل إبريقه أو يرتكز على عصاه.

وسجادة الصوفية هي الفروة التي يرثها الشيخ عن شيخ الطريقة وهي في الأصل سجادة صلاته ومجلسه، وهو يحتفظ بها للتبرك وعلامة على خلافته. وعندما خلف الشيخ على النيل ابنه الجنيد قال إنه سيقعد على سجادته ويحمل سبحته، كناية عن تخليفه إياه بعده كأمر قاطع. فالقول بأن فلاناً قعد على الفروة أو السجادة يعني أنه خلف شيخه.

وقد سميت رئاسة الطريقة بالسجادة لأن شيخ الطريقة كان يقعد عليها ويمارس عمله. ويعتقد بعض الناس أن بعض الأولياء يمكنهم أن يعبروا النهر على فراوهم، وقد بلغك أن بعضهم جعل المشي على الماء في أولى درجات الولاية وذلك فيما ورد في كتاب الطبقات في درجات الصوفية. ويحكى كثيراً أن هذا الولي أو ذاك عبر النيل بفروته، وبعضهم يقعد عليها ويحرك بسبحته. وفي الطبقات أن بر ولد نعيم فرش فروته فوق الماء وقطع النهر بها حتى جاء

إلى أبو عشر ليلحق ذكراً[1]. وتسمى السجادة في دارفور بالفرشة، ومن هذا اللفظ جاء لقب الفرشة والذي يعني حاكم إقليم، وإنما كان ذلك لأن الحاكم عندهم كان يمارس الحكم وهو جالس على سجادة. وكانت الفرشة في دارفور وما تزال تصنع من شعر الغنم والجمل ويتخذها السراة. وقد وقفت على أنواع بديعة منها في سوق مليط بشمال دارفور عندما زرتها في أوائل السبعينات واقتنيت عدداً منها. وكانت سجادة ملك البرقد من شعر الغنم. وقد أصبحت السجادة في دارفور وممالك وسط وغرب إفريقيا من أدوات الحاكم التي تدل على السلطة. ويذكر أن بعض التجار استجلبوا للسلطان موسى بن السلطان سليمان، سلطان الفور، سجادة فلفها حول جسمه كالجلباب[2]، ويبدو من ذلك أن السجادة الملكية لم تعرف إلى ذلك الوقت في بلاط الفور، بل إن ناختقال الذي روى هذا يقول إن الفور كانوا إلى عهد سليمان يعيشون حياة بدائية وإن ملابسهم كانت من الجلد وأن سليمان نفسه كان في لباسه الرسمي يتدثر بجلد أحمر. وروى ناختقال نفسه أن جلوس السلطان إبراهيم كان على سجادة السلطان أحمد بكر كما كانت العادة عند تتويج سلاطين دارفور. وهذا يعني أن السجادة الملكية اتخذت على عهد السلطان أحمد بكر. وعندما هزم السلطان تيراب قبيلة القمر استولى على سجادة سلطانهم كناية عن زوال دولتهم وأيلولة أمرهم إليه، وقد حفظها في المخزن الملكي الذي يسمى الديحاية، وكانت تعرض في مواكب السلطان في أيامه ومن بعده. وعندما هزم هذا السلطان قبيلة البرقد بعد حرب طويلة غنم سجادتهم وضمها إلى مقتنياته[3] باعتبار أنهم صاروا جزءاً من سلطنته، وكانت هذه السجادة أيضاً تعرض في الموكب السلطاني محمولة على الحراب[4]. ونكاية بملك هذه القبيلة وإذلالاً له حلق السلطان ذقنه واحتفظ بشعرها ضمن تحفه. وكانت تعرض في الموكب السلطاني مرفوعة على حراب إلا أنهم استبدلوها مؤخراً بفرشاة من شعر الغنم كانت تحمل أيضاً على حراب ولا بد أن نذكر هنا أن السلطان تيراب فعل ذلك لأن الذقن من

(١) الطبقات، ص ١١٢.
(٢) ناختقال، ص ٢٧٨.
(٣) نفسه، ص ٢٨٨.
(٤) نفسه، ص ٢٨٧.

علامات الحكم، وفي ذلك تقول الأغنية الشعبية المشهـورة: ود خمسين دقن ود أربعين نقارة، أي أنه من أسرة عريقـة تولى الحكم منهـا خمسون وعنـدها أربعـون نقـارة، والنقـارة هنـا شـارة الملك والعـز وقـوة الجيش. والـذقن في مجتمع السودان مقرونة بالتدين والاستقامة وعلو المقام.

وكان ديوان سلطان الفـور عبارة عن صـالة واسعـة بها مقصـورة خاصـة للسلطان وأماكن للعلماء والحـراس وأصحـاب القضـايـا. وقـدر نـاختقـال أن المقصورة كانت تقع على بعد عشـرين خطوة من بـاب الديـوان[1] . ولم يكن في ديـوانـه شيء آخـر غيـر هـذه المقصـورة[2] . وكـانت المقصـورة مغــطاة بـالسجاجيـد ويجلس عليها السـطان عند النـظر في أمور الـدولـة[3] ، أي أن السلطان كان يجلس على الأرض لا على كرسي أو سـرير. وهـو يجلس على سجادة واحدة وبـإزائها مخـدة، وإذا ركب ترفـع السجادة الملكيـة أمامـه إلى المكان الذي يحل به[4]. وحسب رسـوم الفور مـا كان لأحـد أن يجلس على سجادة في حضرة السلطان ولا أن يتلقى رسالة منه وهو على سجادة بل يتعين أن يتسلمهـا وهو جـالس على الثـرى. وكـان لشؤون السجـادة وجلوسـه ملك خاص له أعوان يساعدونه[5]. وقد وصف ناختقـال والتونسي مجلس السلطان وديوانه وصفـاً جيداً، واعتمـاداً عليهما أورد نعـوم شقير وأوفـاهي ما أوردا عن الديوان والمجلس.

ويبدو أن بلاط الفونج كان أكثر تحضراً. فقد وجد بروس أرضيـة بيوت العلية في سنار مغـطاة بالسجـاجيد ووصف الستـائر والمخـدات الجميلة ذات الألوان الزاهية والمصنوعة من الدمقس والحرير والستان.

وكانت السجادة أو الفروة من لوازم شيوخ الصوفيـة، وكان الشيـخ يتخذ هذه أو تلك حسبما توفرت، عليهـا يقعد وعليهـا يصلي. وبعضهم كان يتخـذ عنقريباً للجلوس وبجانبه فروة أو سجادة الصلاة.

---

(١) ناختقال، ص ٢٦٢.
(٢) التونسي، ص ١٧٨.
(٣) أوفاهي، ص ٢٥.
(٤) ناختقال، ص ٣٢٠.
(٥) التونسي، ص ١٧٠.

٤ ـ السبحة:

وتسمى أيضاً المسبحة، وهي من أدوات العبادة عموماً وأدوات الصوفية خصوصاً. وهي من لوازم الدراويش. وتؤخذ بدلاً عن العد بالأنامل كما يفعل الذين لا يحملون السبحة. وكان بعض متصوفة السودان يستعملون الحصا بدل السبحة عند التسبيح. وفي بعض مناطق السودان يسبحون للموتى بالحصا يوم الكرامة، . ويقوم بذلك الجمع قبل الغداء، ويلعب حيران الخلوة دوراً هنا، وقد شاركت في ذلك، على ما أذكر، عدة مرات وأنا في خلوة الشيخ عبد الرحمن بدري بقريتي سركمتو. وكان الحيران يؤخذون من خلوتهم قبل الميعاد المحدد لمغادرتهم إلى منزل المتوفى حيث يقعدون في طرف يخلى لهم في الراكوبة المعدة للمعزين ويوزع عليهم الحصا فيدفع كل منهم الحصا التي أمامه مشاركة مع الآخرين وهو يقول مع كل حصا «لا إله إلا الله». وبعد أن يكتمل العدد المطلوب من التسبيح تؤخذ الحصا في جوال أو قفة وترحل لتوضع في كومين على قبر المتوفى ـ كوم على الرأس والآخر على الرجلين. ومع أن وضع الحصا على القبر ربما كان أقدم من الإسلام فإن المعتقد عند الناس أن الحصا على القبر تثبت التسبيح عليه. وبالطبع فإنها تحافظ على مكان القبر ظاهراً كما أنها تقيه حفظاً له من غائلة الأهوية والأمطار. وقد وجدت الحصا على القبور في بعض مناطق جبال النوبا. ولعلها عادة نوبية توسعت مع المهاجرين.

والعد بالحصا قديم، وقد عرفه العرب. ومن الحصا جاء لفظ الإحصاء ومشتقاته: حصا، يحصى، إحصاء إلخ. وأصل السبحة من الهند، وقد دخلت بلاد الإسلام وانتشرت بسرعة لأنها تيسر التسبيح وتضبطه على نحو ما يريد المتعبدون.

والسبحة العادية تتكون من ٩٩ حبة، وذلك بعدد أسماء الله الحسنى، وتتم الحبة الكبرى على شكل القبة المائة، إلا أن هذه لا تعد في التسبيح، كما أن الفاصلتين بين الأثلاث ـ بين الثلث الأول والثاني وبين الثاني والثالث ـ لا تعدان. وهناك السبحة الألفية التي تتكون من ألف حبة. وقد شاعت بين المتصوفة. ومن السبح الألفية سبحة بانقا الضرير شيخ اليعقوباب

والتي آلت إلى حوزة محمد التوم بقرية السبيل قرب سنار على ما روى آركل. وحسب الأخبار المروية فإن بانقا كان أول من ابتدع سبحة اللالوب، ولذلك تسمى سبحة اللالوب عند كبار المشايخ ببنت أب يعقوب على سبيل التغزل بها. وكانت سبحة بدوي أبو دليق سبحة قلادة فيها خمسين حبة[1] ـ وهذا بخلاف أن تكون السبحة بتسع وتسعين حبة كما هي العادة. وقيل السبحة القلادة هي التي يضعها المرء حول عنقه، ولعلها من قلد ولكن ما الأمر في ذلك، إذ يمكنك أن تضع حول عنقك أي حبل من السبحة. ولاحظ أن سبحته قصيرة الحبل لأنها بخمسين حبة. إننا نرى أن هذا العدد اتخذ لأنه يسهل التسبيح بالمئات والآلاف، ولاحظ أن السبحة الكبرى ألفية. ومن جانب آخر نظن أن القلادة نوع من الحبة. وكان ضيف الله بن محمد إذا مشى حمل سبحته في يده يصلي بها على الرسول[2]. وعبد الرحمن بن أسيد كانت محفظته في خشمها سبحة ألفية دقاقة[3]، أي صغيرة الحب. ومصطفى الشريف المغربي كان يحمل في كل يد سبحة[4]. والشيخ اللعسر سلكه شيخه وأعطاه سبحة ألفية[5]. وكان عمار بن عبد الحفيظ يقعد بين ضيوفه الكثيرين الموسرين وهو يسبح بسبحته مثلما يفعل بعض العلية الآن[6]. وقد وقفنا على ألفية كان يسبح بها الشيخ المجذوب بن المدثر إبراهيم شيخ التجانية في السودان، وهي في حجرته مع أدوات أخرى. ويشير الطبقات كثيراً إلى السبح الألفية. وعلى العموم فإن رجال الدين يحملون السبح في أيديهم عادة إذا مشوا أو جلسوا أو رقدوا ليشغلوا أنفسهم بالتسبيح وبعضهم ليظهروا التقوى. وبعض الطوائف كأنصار السنة لا يقبلون السبحة ويعتبرونها بدعة، ولعل بعضهم كره أمرها كراهة للمظهر ورغبة في التعبد سراً لله.

والسبحة من أدوات الصوفية المهمة. فشيخ السمانية القريبية عندما يجيز مرشداً يعطيه سبحة ضمن أشياء أخرى. قيل: عندما يعين شيخ السمانية

---

(١) الطبقات، ص ١٢٢.
(٢) نفسه، ص ٢٤٧.
(٣) نفسه، ص ٢٨٣.
(٤) نفسه، ص ٣٣٩.
(٥) نفسه، ص ٢٢٦.
(٦) نفسه، ص ٢٦١.

القريبية مرشداً يؤدي الحاضرون الذكر ويعطي الشيخ للمرشد عمامة ويقرأ الإجازة ثم تالياً يعطيه ركوة - يعني إبريقاً من الجلد - وسبحة وعصا وفروة ومصحفاً. وفي تخليف الشيخ شرف الدين أعطاه شيخه لبنا وسبحة ألفية. وعندما خلف الشيخ السنوسي، مؤسس الطريقة السنوسية، ابنه محمد المهدي، وهو المعاصر للمهدي، أعطاه حزب السيفي والأحزاب، جمعها في يده وأفرغها في يده وألبسه جرداً (لباس ليبيا وهو حرام صوفي) بيده بعد بسطه ورشه بالماء، وبعد إلباس الجرد بأيام قليلة ناوله السبحة وألبسه سيفاً بيده وأمره أن يصلي المغرب[1]. وقد ذكر أحمد الشريف السنوسي أنه عند تخليفه أخذ السبحة وألبس الجرد[2]. والشيخ على النيل عندما خلف ابنه الجنيد قال إنهُ سيقعد على سجادته ويحمل سبحته، بمعنى أنه اكتمل في التلقي ويخلفه. وعندما سلك الشيخ دفع الله بن أبو إدريس العركي الشيخ حمد النحلان أعطاه سبحة ألفية، قال الطبقات: فجاء - أي الشيخ دفع الله - فنزل عند الفقيه نته وحمد أخوه، فنزلوه في قطية قدامها راكوبة. فدخل عليه حمد بعد العشا وخرج منه بعد الفجر شايل سبحة هجليج ألفية[3]. وعلى ما رأيت في وصف لباس الخليفة عبد الله فإنه كان يضع في رقبته سبحة كبيرة. وألحق أن السبحة كانت طرفاً من لبس الأنصار الدائم.

وفي بعض بادية السودان يتخذها الرجال على وجه الزينة أصلاً، ولكن بعضهم بالطبع يؤدي بها تعبده. والمسنات من النساء يعلقن السبح في الرقاب، وبعضهن تلفها في اليد اليسرى بعد أداء العبادة لأنهن لا يدبرن جيوباً في لباسهن، وصغارهن يفعلن ذلك على وجه الزينة ويجعلنها بالخيوط الجميلة. أما الرجال فيضعونها في الجيوب عادة، وإلا فتعلق في الرقبة. وأهل هذا العصر يفضلون السبح القصيرة، بالثلث أو الثلثين، وهؤلاء يضعونها في الجيوب حتى يحين وقت التسبيح، ولكن بعضهم يمسكها بيده وتلعب بها أناملهم على وجه الزينة واستكمالاً للوجاهة.

---

(١) الدجاني، ص ٢٤٩ نقلاً عن الأنوار القدسية.
(٢) نفسه، ص ٢٤٩.
(٣) الطبقات، ص ١٦١.

وللمرحوم محمد أحمد محجوب، الشاعر والأديب والسياسي المشهور، قصيدة بعنوان مسبحتي ودنى، جعل بها محبوبته في هذا المعنى الجميل، وقد نشرت القصيدة في ديوان صغير مع قصائد أخرى، وهو آخر دواوينه.

ويصنع السودانيون السبحة من مواد كثيرة، منها اللالوب وهو شجرة الهجليج وتسمى في اللهجة العامية اللالوب، ومن الأبنوس الأبيض والأسود، وسن الفيل، والخرتيت، والبقس، والكوك، والزيتون والصندل واليسر. واليسر نبات بحري يكثر في البحر الأحمر وهو أسود اللون، ويوضع أيضاً في الجرتك. وسن الفيل مكروه لأنه من فطيس. ويجلب الكوك واللؤلؤ والمرجان والكهرمان وترابه من مصر ويصنع في السودان. ويستجلب من الخارج أصناف وأنواع كثيرة ومتفاوتة قيمة. ويجلب الحجاج السبح ـ والطواقي أيضاً ـ فيهدونها للأصدقاء والأقارب.

٥ ـ المبخرة:

وهي من أدوات الصوفية ومن لوازم الدراويش على الخصوص. وأكثر استعمالاتها عند الذكر لتنشيط النفوس وإشاعة البهجة. وبعض الدراويش وطلاب الحاجة كانوا يدورون في الأسواق وأماكن التجمع وهم يحملون المبخرة ودخان البخور يصدر منها فيدنونها إلى من يقصدون ويأخذون منه ما يجود به.

وكانت مباخر السودان مصنوعة من الفخار، وقد تفنن الصناع وأنتجوا أشكالاً مختلفة كان بعضها جميلاً حقاً، ومثلها أدوات الجبنة المصنوعة باتقان وذوق فني. وقد وقفت على أشكال بديعة من المباخر في جبال النوبا وحملت بعضها في رحلة طالت في أنحاء كردفان كنت فيها حريصاً على ما اقتنيت، ولكنها تحطمت في منزلنا في أول يوم وصلت فيه بإهمال سيدة كانت في زيارتنا.

وبعض الناس يتخذون المبخرة مما اتفق لأداء الغرض. وتجلب الآن إلى السودان مباخر المعدن في أشكال مختلفة.

٦ ـ العصا:

العصا والعكاز والشعبة من أدوات الملك والصوفية. وتحمل العصا لأغراض كثيرة، بعضها لأغراض الحياة وبعضها لأسرار الولاية والملك. وأبلغ ما يبين ذلك قصة عصا موسى، فإن الله سأله ماذا بيمينك يا موسى فأجاب تلك عصاي أتوكأ عليها وأهش بها غنمي ولي فيها مآرب أخرى، فأراه الله السر الذي أودعه فيها، فألقاها فإذا هي حية تسعى، أي السر الذي نافح به سحر فرعون وسحرته وجعل له الغلبة فيما كانوا يظنون أنهم الغالبون.

وعرفت مجالس القوم العصا الحداثة، وهي عصا قصيرة مخنوفة يؤشر بها المتحدث أو يخرط بها الأرض لتأكيد كلامه. وبعضهم كان يخرط في الأرض بصباعه لنفس الغرض أو يؤشر في الهواء بيده أو صباعه. وفي بلاط دنقلا كان الملك يناولها للمتحدثين من الأعلى إلى الأدنى بمثابة الإذن لهم. وهي تسمى لغتهم القنقبايا. وفي هذا المعنى قال شاعر من الكبابيش في المهدية: سلطان تقود بالقنقبايا[1]. ويعرف في أواسط السودان بالبنبقة، قال الشاعر: الحديث بالأنتكايا والكلام بالبنبقايا.

وقد ذكر نعوم شقير أن سلطان الفور كان إذا جلس في ديوانه بعد التتويج لتلقي البيعة يحمل في يده اليمنى صولجاناً، وهو عصا طويلة ملبسة بالفضة المحلاة بالذهب[2]، وأنه كان إذا عين ملكاً على إقليم أعطاه عكازاً مفضضاً[3].

وكان المهدي يتوكأ على هراوة طويلة مصنوعة من النحاس مكسوة بجلد أو هراوة من النوع المعروف باسم خيزران[4]. وعصا الكنجارو هي العصا التي كان يؤشر بها سلطان الفور إلى الثور الذي يجلد بجلده نحاس

---

(١) أطلعني على هذا الشطر وعلى عصا بلاط دنقلا الدكتور عبد الله علي إبراهيم وأرشد إليّ صفحة ٥٠ من رسالته للماجستير: عقالات نوراب الكبابيش وديوانهم في القرنين ١٨ و١٩ وممالك السودان لأوفاهي وأسبولدنق، ص ٤٣.

(٢) نعوم شقير، ص ١٨٤.

(٣) نفسه، ص ١٨٧.

(٤) فوزي، ج ٢ ص ٦٧.

السلطنة، وهي عصا بكلاب. وهذه العصا تحفظ في مخزن الديحاية ولا تستعمل مرة أخرى، وقد ساعد وجودها فيما بعد في بيان تتابع السلاطين.

وكان من أدوات شيوخ اليعقوباب المحفوظة لدى محمد التوم بقرية السبيل شعبة من الخشب[١]. وكان حسن ولد حسونه فيما يروي الطبقات يحمل مشكاراً في يده، وقيل إن المشكار عصا مثل الشعبة[٢]. وقيل صوابه مشكاك، ومن ذلك البحر قولهم في حلقه المديح: الشاك فيه مشكاك. وكان للشيخ خوجلي عبد الرحمن عصا من الحديد أورد الطبقات خبرها وأبرز الدكتور يوسف فضل حسن رسماً لها، وهي محفوظة الآن في قبته في عهدة خليفته الشيخ أحمد الأمين والذي تفضل بأريحية بإعطاء وثائق مهمة ترجع إلى عهد الفونج إلى كاتب هذه السطور، وقد ضمنت هذه الوثائق في كتابنا «الفونج والأرض» باللغة العربية وفي كتاب «وثائق عامة من سنار» «Public Documents from Sinnar» وكتاب «وثائق من سنار» ;«Documents from Sinnar» اللذين صدرا بالإنجليزية من تأليفنا بمشاركة الدكتور ج. ل. اسبولدنق. وهناك كتاب مماثل لهما ولكن عن وثائق دارفور، وهو بالاشتراك مع البروفسور ر. ش. أوفاهي. أما الخبر في الطبقات فيقول: «إن سواقي المحس في توتى بعد العيش ما صار إلى صدر الإنسان ظهرت جزيرة من الرملة حالت بين الماء والسواقي، فجاء المحس فوضعوا عنده ـ أي عند الشيخ خوجلي ـ الطواري والقداديم والفوسة وقالوا له لا يسعنا المقام في هذه البلدة بعد فساد زرعنا من عدم الماء. فقام معهم وركب على حمار ووضع عصاه في البحر فقال بسم الله الرحمن الرحيم يا شيخ أحمد بن الناصري وقرأ حزب البحر مرة واحدة، ومن وقته هاج البحر وذهبت تلك الجزيرة وملأ أقانين السواقي وثبت الناس في أماكنهم ببركته. ثم أضاف: «وكانت عصاه من حديد، فما وضعت في موضع قلّ ماؤه إلا ذهب الرمل وهاج الماء فوراً»[٣]. وهذا الحادث الذي رواه الطبقات بالإضافة إلى ما يضيفه إلى مادة العصا شاهد على أن جزيرة الرمل قرب توتي قديمة حتى كان منها ما كان

(١) آركل، البحث عن اليعقوباب.
(٢) الطبقات، ١٣٩.
(٣) نفسه، ص ١٧٩.

على يد خوجلي، وهي مما تحمله الرياح من رمال وتكبر وتصغر حسب قوة الرمال واندفاع المياه. وفي هذا العام ـ ١٩٩١ ـ اتسعت الجزيرة اتساعاً واسعاً وذهب صاعداً إلى ما بعد القصر الجمهوري ولم يبق للأزرق إلا خط ضيق من جهة الخرطوم بحري، وهذا مما ساعد في اتساع الجزيرة. وفي خبر عصا خوجلي أنها أبرأت مريضة بأن رأته في منامها وهو يضربها بعصاه. وقريب إلى قصة الشيخ خوجلي ورمال توتي ما أورد الطبقات في خبر محمد العجمي بن حسونة، إذ أصاب الناس في مكة مطر شديد هدم إلبيوت وحزم السيل البيت الحرام فاستغاث الناس به فغز عكازه فبلع جميع المياه ببركته[١]. وكان محمد فائد الشريف عندما جاء من الشرق يصحبه خلائق راكبين على الجمال الصهب إلا هو لم يركب، تواضعاً، واكتفى بجبته التي أذن له بها الشيخ إدريس ونعلاته وعكازه. ولعل أبلغ القصص ما جاء في خبر علي بن اللبدي، فإنه أدخل عكازه في زيرين وساط شمالاً ويميناً وقال بسم الله الرحمن الرحيم ا ب ت ث ج ح خ فانقلب الماء عسلاً وسمناً[٢]. وعرف ولي كبير من أولياء الجعليين بعصاه، وهو حامد أبو عصا جد العمراب ـ نسبة إلى عمر بلال ـ، وهو جد الشيخ عبد الماجد صاحب المدرسة المشهورة بأم درمان وأمير الصاوي الإداري المشهور وعميد الخدمة المدنية سابقاً ومحمد وعثمان خالد أمير المهدية.

وكان شيخ المسانية القريبية يعطي المرشد عند اعتماده عصا ضمن أمور أخرى سبق وصفها. وجاء في خبر الشيخ شرف الدين أنه روى أنه بينما كان في الخلوة عند تخليفه جاءه رجل وهو يحمل عصا حديدية وضربه بها ولكنه لم يلتفت له وواصل تعبده. وورد مثل ذلك في خبر اللعسر، ولسنا نعرف إن كان يقصد به ولياً أراد جذبه أم كان شيطاناً يفسد عليه طريقه! ومن آداب الصوفية ألا يرتكز المريد على عصا أستاذه كما أنه لا يقعد على فروته ولا يستعمل إبريقه. ولعلنا نذكر أنه بمنزلنا بالقرية عدد من عصى دراويش المنطقة جمعتها والدتنا تبركاً بهم، وكانت تعتقد أنها تحمي المنزل وأهله من كل سوء وتنزل البركة. وقد وضعتها بعناية في رف في الدكان ومعها حبادة

---

(١) الطبقات، ص ٨٨/ ٨٩.

(٢) نفسه، ص ٢٦٢.

للشيخ بدري داود احتفظت بها أيضاً للتبرك، وكان لهذا الشيخ مقام كبير بين أهلنا. وقد سرق بيتنا مرة فتساءل والدنا ـ وكان قليل الإيمان بهذه الأمور ـ عن جدوى هذه العصى، ولكن ذلك لم يحرك من إيمانها، فبقيت العصى، وأظنها ما تزال موجودة.

وإذ قد أتعبتك هذه السياحة مع الأولياء فإنا نستروح نفسك بهذين البيتين:

حملت العصا لا لضعف أوجب حملها　　علـيّ ولا أني تـخنيـت مـن كـبـر
ولـكنني ألـزمت نفسي حـملهـا　　لأعـلمـهـا أنـي عـلى سـفـر

أترى صدق أم أنه حملها تحت عبء السنين!

٧ ـ السوط

وهو مما يساق به الحيوان ويؤدب به الإنسان! وكان أداة تعليم وآلة ولاية. والمصريون يسمونه الكرباج، وعندهم يعطونه للهجانة وخفر السواحل، وكان هؤلاء يدعون عند الإضرابات فيخشاهم الناس. وفي خلاوي الشمال يحمل الأستاذ جريد النخل بدل السوط وهم يسمونه أيضاً الكرباج. والكرباج قديم جداً في السودان ويرد خبره في شعر يرجع إلى عهد الفونج. ويقال كربجه بجريدة أي ضربه بها. ومن أخبار الطبقات في ذلك أن الشيخ عبد الرحمن بن أسيد كان يحمل في يده سوطاً وهو يعلم[1]، وبالطبع كان يجلد به الطالب إذا لزم. وعلي بن بري أطاعه ملوك الجان السبعة لقوة سره وقد أتوه بككر من الذهب وسوط عنج[2]. والشيخ بدوي أبو دليق عندما نصب ولياً أقعدوه على كرسي من الذهب وألبسوه سواراً وأعطوه سوط عنج[3]. وسوط العنج يتخذ من جلد القرنتي وهو حيوان نهري ضخم، ويسمى في النوبية «أرد»، والعامة يسمونه العيسيب وأهل المدن يسمونه العينسيت. ويرجع سوط العنج إلى عهد هؤلاء ولذلك نسب إليهم.

---

(١) الطبقات، ص ٢٨٢.
(٢) نفسه، ص ٢٩٤.
(٣) نفسه، ص ١١٨.

٨ ـ الحربة:

وهي من أدوات الملك والصوفية المهمة ومن لوازم الدراويش. والحراب أشكال وألوان ولكل شكل اسم خاص به. وشاعت في المهدية حربة الكبس وهي عريضة الرأس.

في دارفور شاهد ناختقال حراب السلطان محمولة أمامه في موكبه ملفوفة في قماش أحمر[١]. وعلى ما يذكر بعضهم فإن قبيلة السروج هي التي كانت تحمل هذه الحراب والدرق بينما كان يسير وراءهم البادران حاملين الحراب المكسوة بأكياس من الجوخ الملون[٢]. ويقول نعوم شقير في مكان آخر أن حملة الحراب المكسوة بالجوخ الملون كانوا يظهرون في عرضة السلطان لجيشه[٣]. ويبدو من هذه الشواهد أنه كان لحملة الحراب موضع محدد في مواكب السلطان. وكانت تحمل في هذا الموكب سجاجيد السلطنة على حراب والككر والمصحف ملفوفين في قماش كلاً على حدة. وكان من ضمن الأدوات التي أعطاها السلطان حسين لمقدوم الجنوب عند إعادة تعيينه حربة[٤]. وذكر التونسي أيضاً حراب سلطان الفور[٥] مما يؤكد هذا الموقع الذي ذكرناه في احتفالات السلطنة وأهميتها المرسمية. وكانت بعض الحراب تعد مذكراً بينما تعد أخرى مؤنثة. وقد أعطت حكومة العهد الثنائي ـ ربما لإدراكها لأهمية الحراب في بلاط الفور ـ للسلطان علي دينار عند اعتماده سلطاناً على دارفور أربعة حراب نحاسية، وقد علق عليها السلطان علمه الأخضر في الاحتفالات[٦].

وكانت من بين أدوات شيوخ اليعقوباب بطرف محمد التوم بقرية السبيل حربتان من الحديد، إحداهما كانت مدورة والأخرى كانت بزوايا. ويعتقد آركل أن الحربة الأخيرة من حراب سلاطين الفونج القديمة، ويذكر أنه وقف

---

(١) ناختقال، ص ١٨٦.
(٢) نفسه، ص ٩٠٩.
(٣) نعوم شقير، ص ٥٩.
(٤) ناختقال، ص ٣٣٦.
(٥) التونسي، ص ١٧٢.
(٦) علي أبو سن، مذكرات أبو سن عن دارفور ص ١٧٢.

على شبيهة لها في شمال دارفور كانت تستعمل مع طقوس جلب المطر. وقد وصفها بأن عودها دائري. وقد نقش في أطرافه الأربعة عبارة «إذ جاء نصر الله» ولكن آركل لم يتبين الطرف الأخير وتردد هل هو «الله» أم «لك»، ولكن السياق يقتضي من غير شك اسم الجلالة. وقد جاء في الأطراف الأربعة أيضاً خاتم سليمان، وهو تميمة يتقي بها من الشر في اعتقاد الناس، وفي طرف من الحربة جاء وسم بدنة الكيرا من قبيلة الفور على الجمال على هذا الشكل ، وفي طرف آخر علامة على شكل سكين هكذا ، وعلى الطرفين الباقيين سيف في شكل صليب على هذه الهيئة ، وهذا الشكل يتكرر في النقش على الحربة. وعلى ما يلاحظ آركل فإن هذه الحربة حملت شعارات إسلامية ومسيحية ويهودية معاً[1]. وعلى عكس ما يذهب إليه آركل فإن وسم الكيرا يدل على أن الحربة لملوك الفور لا لملوك الفونج، وهذا ما يتسق أيضاً من وجود شبيهة لها بشمال دارفور. ثم إن الوسم لا يحدد إنها لملوك. ومثل هذا النقش على الحراب والسيوف كثير. ومما ينقش عادة العقرب دلالة على مضائها على العدو مثل سم العقرب.

وكان من ضمن أدوات العركيين حربة عبد الله العركي والتي تعرف بأم كريشة، وربما سميت هكذا لأنها كانت تميل من الوسط أو كانت غليظة به. وقد وصفت بأنها التي بها الأسماء دون تحديد هذه الأسماء، وربما كان القصد نقش على نحو ما رأينا في حربة اليعقوباب.

ومن الحراب المشهورة حربة الشيخ خوجلي التي كان يرسلها للمتحاربين فيكفون عن القتال وينتظرون ما يشير به لفض النزاع، وكان هذا الشيخ نفسه يرسل طينة للحكام للشفاعة فيقبلونها ويقبلون شفاعته. وقد ذكرنا في مكان آخر حربة الشيخ سلمان العوضي التي يرقص بها أتباعه. وجاء في الطبقات أن عبد الله الحلنقي، نسبة إلى الحلانقة بجهات كسلا، كان يحمل خنجراً مع سيف، ولعله حمل الخنجر بدلاً عن الحربة، مع أن الخنجر والسلطية من أدوات الملك. وظننا أن ذلك عائد إلى أن البجة يكثرون من حمل الخنجر فأخذ عنهم.

(١) آركل، البحث عن اليعقوباب.

وكان الخليفة عبد الله يحمل في يمينه حربة قصيرة هدندوية بينما يحمل في شماله سيفاً[1]. ويبدو أنه كان إذا ركب لا يحمل الحربة. أما المهدي فكان يحمل سيفاً على ما سيجيء.

وبالرغم من أن أهلنا النوبة في الشمال قوم مسالمون ولا يتعاركون بالسلاح أبداً ويندر عندهم أن يقع حادث قتل بل وحتى العراك بالعصي قليل فإنني وقفت في صغري على حراب وسيوف كثيرة دون أن يحملها أحد وكانت هذه من مخلفات فترة المهدية وبقيت مهجورة في المنازل. وكان السيف يحمل في حالة واحدة ـ العريس لحمايته من الشيطان.

٩ ـ السيف:

وهو من الأدوات ذات الدلالة على القوة والأبهة، وهو رمز الجهاد وشارة النصر. ومنه أنواع كثيرة يعرفها المعتنون به. والسيف عند الملوك آلة أبهة وقوة وعند الصوفية قوة روحية وسلطان روحي. وهذا هو منحى المهدي في وصفه للسيف في بعض مناشيره. ومثله ما جاء في الطبقات في خبر صالح ود بانقا: الشيخ إدريس ود الأرباب أعطاه سيف قدرته بينما احتفظ بسيف الولاية لأولاده، وحسن ود حسونه أعطاه سيف ولايته وقدرته وقال: فسيف قدرتي قبضته فضة وسيف ولايتي قبضته ذهب، والإثنين وضعهن في وجه النبي، والشيخ عبد الرازق أبو قرون أعطاه سيف قدرته بينما احتفظ بسيف ولايته لولده صالح. وهكذا حاز هذا الولي على أسرار هؤلاء الأولياء وبركاتهم فاكتملت ولايته. ومثله ما روى في مشهد تولية بدوي أبو دليق على لسانه: فغسلت ثيابي واغتسلت ودخلت القبة أنا قاعد أصابتني سنة كالنوم رأيت القبة ملانة أولياء ما عرفت فيهم أحد إلا أربعة: عبد القادر والشيخ إدريس والشيخ حسن والشيخ عبد الرازق. وحضر شيخ الزين وقالوا له من جابك قال أنا شيخه في العلم. قعدوني فوق كرسياف من ذهب وألبسوني سواراً وجابوا لي سوط عنج. والشيخ عبد القادر قال للشيخ إدريس: اده نارك. الشيخ إدريس ناولني عوداً في رأسه دخان. قال لولد حسونة: اده

---

(١) نعوم شقير، ص ٣٩١.

سيف ولايتك. ناولني سيف قبضته ذهب. وأرجو أن تلاحظ أن القبضة كانت في الحالة السابقة من فضة ـ واده سيف قدرتك. اداني أيضاً سيفاً قبضته من ذهب. قال للجماعة: اقبلوها له. قالوا: قبلناها له.

وكان لسلطان الفور سيف محدب محلى بالذهب يكون على الجانب الأيسر له وعن يمينه مخدة من القطن، وذلك في التيرمة أي في الديوان، وهو عندئذ جالس على عنقريب أو سجادة على الأرض[1]، أما إذا جلس في الراكوبة «كالا» فيجلس على دكة عالية من الطين مفروشة بالسجاد[2]. وكان إذا جلس على الككر لمبايعة ا لناس له عند توليه الحكم حمل في يده اليمنى صولجاناً وفي يده اليسرى سيفاً مستقيماً وعلى جنبه الأيسر سيفاً محدباً[3]. وقال التونسي إن لباس سلطان الفور يتميز بالسيف المذهب. وكان السيف فيما وصف ديزني أحد أدوات الملك التي توج بها ملك فازوغلي على يد المك حسن عدلان سليل أسرة ملوك الفونج ورئيس الإدارة الأهلية بجنوب الفونج. وكان سيفاً أثرياً قديماً أحضره حسن عدلان نفسه معه من سنجة ثم عاد به بعد التتويج. وقد وضع السيف ملفوفاً بقماش على منضدة كان عليها أيضاً ملابس الملك الجديدة وطاقيته. وعند التتويج أخذ المك حسن السيف من المنضدة وناوله إلى المك نايل وهو أحد ملوك المنطقة فقام هذا بدوره بإعطائه إلى الملك الجديد ثم أخذه منه العمدة نمر خميس ووقف حاملاً إياه إلى نهاية التتويج. ويمثل السيف هنا السلطة.

وعندما انضم بعض عرب السودان إلى ياسوس ملك الحبشة في حربه ضد عرب رفاعة وديركن أعطى ياسوس شيخهم نقارة من نحاس وسيفاً دليلاً على الحلف وعلى حمايته لهم[4].

وعندما خلف السنوسي ابنه محمد المهدي أعطاه فيما أعطى سيفاً، وذلك مع أن السنوسي لم يكن يؤمن بالقوة في نشر الدعوة، أي إن السيف

---

(١) نعوم شقير، ص ١٧٨.
(٢) نفسه، ص ١٧٨.
(٣) التونسي، ص ٢٠٤.
(٤) بروس، ص ٨٨.

هنا يمثل قوة روحية. وكذلك حاز أحمد الشريف على سيف عند تخليفه[1]. ولا أرى أن أولياء السودان فعلوا ذلك عند التخليف، وربما كان ذلك تحاشياً من الاصطدام بالملوك. ولكن بعضهم كان يحمل السيف، ومنهم عبد الله الحلنقي الذي كان يضع في وجهه سيفاً متوماً وخنجراً وهو جالس على التقروقة.

وكان المهدي يحمل على الدوام في يده اليسرى أو على منكبه الأيسر سيفاً، وقد ذكر إبراهيم فوزي الذي أورد هذا الخبر أن المهدي زعم أن هذا هو سيف النصر الذي أهداه له النبي في حضرته[2]. ولكنا نستبعد صدور هذا القول عن المهدي.

لقد ذكر المهدي السيف الذي أعطاه الرسول في منشور الدعوة، ولكن هذا السيف لا يظهر في مشهد تنصيبه. والنص الذي أورده في هذا المنشور هو: «وقلدني سيفه ﷺ»[3]، ثم أورد علامات النصر الأخرى التي حازها بحيث ينتصر بها على أعدائه على الدوام. وفي النص المعدل من هذا المنشور جاء الأمر أكثر وضوحاً، يقول: «أعطاني سيف النصر من حضرته ﷺ وأعلمت أنه لا ينصر عليّ معه أحد ولو كان الثقلين الأنس والجن»[4]. ويأتي هذا بعد رصد علامات النصر الأخرى. بيد أن هذا السيف لم يكن سيفاً مادياً وإنما كان سيفاً روحياً علامة للنصر الدائم الذي وعد به، وهذا النصر الدائم اكتملت صورته بوجود عزرائيل ملك الموت في مقدمة جيشه عند الحرب وفي خلفه في حالة السلم، وذلك على ما نحو يذكر في حضرة التنصيب وفي مناشير الدعوة.

وقد ظل المهدي في أول أمره يعتمد في حربه على السيف والحربة ودعا أنصاره إلى الاعتماد عليهما والابتعاد عن السلاح الناري، وذلك اقتداء بالسيرة النبوية ولأن بهما سراً روحياً. وبالطبع فإن الحرب بالسيف والحربة تعتمد على الشجاعة والبسالة التي يعرفها المهدي في أنصاره. ويبدو أن

---

(١) الدجاني، ص ٢٤٩.
(٢) فوزي ج ٢، ص ٦٦.
(٣) الآثار الكاملة رقم ٢٢ ص ٩٧.
(٤) الآثار الكاملة رقم ٢٧ ص ١٣٥.

المهدي لم يكن مدركاً بما يكفي لقوة السلاح الناري حتى وقف عند هجومه على الأبيض في واقعة الجمعة المشهورة على خطورته، ومن ثم نظم فرقة الجهادية وجمع السلاح الناري وأدخله في حربه.

والأدبيات المتصلة بالحرب بالسيف كثيرة، منها العبارة التالية والتي وردت في قطعة تتضمن أموراً كثيرة رواية عن المهدي: «وبعثني الله ورسوله بالسيف أجاهدهم من أولهم عن آخرهم بفضل الله وقوته ورفع الله منهم ثوب الملك»(١). ومنها منشور يدعو فيه إلى الاعتماد على السيف والبعد عن السلاح الناري. وقد جاء فيه «أن نصرتنا بالحربة والسيف ولا حاجة لنا بالبندق لأنه لا ينفعنا، ولو كان ينفع لنفع أهله... والآن أراكم قد مالت نفوسكم وعقولكم إلى مثال السلاح الناري وتركتم الكبس والسيف مع علمكم بما أودعه الله فيهما من السر كما يشهد لذلك خبر سيد الوجود ﷺ بخبره لنا بالحديث الذي مضمونه: أيعلم المهدي أن أصحاب رسول الله ﷺ كانت نصرتهم بالبندق! ألم تكن بالسيف والحربة - وقد حرض ﷺ غاية التحريض على القنا ليعمل خشباً للحراب، أفهل يغفل أحد بعد هذا عن هذه الأسلحة ويلتفت لغيرها! فهذه منكم غاية الغفلة وعدم الانتباه لنصرة الدين وجهاد الترك المشركين، لأنه وإن كان الله تعالى قد قال في كتابه العزيز: ﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة﴾ إلخ الآية، فأنتم تعلمون أن قوتنا بالله والتوكل عليه واستعدادنا هو بالأسلحة التي ذُكرت ما استطعنا وإن كان الله ناصر دينه على أي الحالات. ثم إني لما رأيت منكم غاية الغفلة عن الكبس والسيف والانتباه في الأسلحة النارية استخرت الله تعالى على أن أخاطبكم بأمري هذا وألزم كل من بلغه من الأمراء أن يجمع كافة مقاديمه ويعرفهم بما تحرر منا حرفياً ليقم كل مقدم به على جماعته ويأخذ كل ما عندهم من السلاح الناري ولا إجازة لأحد أن يترك واحدة صغيرة ولا كبيرة ويعيد درج السلاح كل أمير بموجب قائمة واضحة البيان تتضمن عدده للمفهومية... والمقصود غاية التشمير لما ذكر مع بذل همتكم في الاشتغال بالحراب الكبسية والسيوف البلدية وصرف العقول عن الأسلحة النارية»(٢).

---

(١) مخطوط النجومي، الأصل ص ١١٣ المحقق ص ٤٠٧.

(٢) الآثار الكاملة رقم ١٠٠ ص ٢٨٨ - ٢٨٩.

وفي منشور منع «المباهاة وركوب الخيل إلا في الجهاد أو العرضة بنية تعليم الجهاد وأمر أن يراعوا رضاء الله في المشي بالدور التي بالبلد وألا يقتدوا بالترك والظالمين الذين نسوا الله واستقبلوا نعمته بالفرح والفخر وضرب البنادق والمدافع والدلاليك وما أشبه ذلك»، أي أنه منع التشبه بالترك في ضرب البنادق والمدافع والدلاليك ابتهاجاً[1]. وفي منشور آخر يقول: «إن لا تسل سيفك بينهم خوف أذية أحد بلا عناية ولا تهز سلاحك على أحد أبداً لئلا يخرج السلاح عن اليد بالغفلة أو ينصل فيضر مؤمناً. ولا يكون سل السيوف إلا في مقتضاه ومحله كما ورد ذلك. وليحذر أصحاب الخيول من اقتحام الإخوان المؤمنين وإضرارهم في ذلك»[2].

وهناك منشور منه يطلب فيه ألا يعنى الأنصار بحلية السيوف لأن الحلية مظهر لا يقدم ولا يؤخر في القتال، بل هو علامة للتعلق بزينة الدنيا وبهرجها[3].

ومن الشعر الذي قيل في مدح سيف المهدي هذه الأبيات من قصيدة ألقاها الحسن سعد العبادي على المهدي عند أول لقائه به في الأبيض:

فيا سعد سودان بمنتظر، لقد	تباهى به الأقطار معلنة البشرا
يسوق بسيف العدل أنصار حربه	ولى وليث لم يزل يطلب النصرا
برمح وسيف للنبوة أن سطا	على عسكر الكفار لم يستطع صبرا
فسار له الركبان من كل جانب	لإظهار دين الله وفقاً لما مرا

وكان الخليفة عبد الله إذا مشى حمل بيساره سيفاً وبيمينه حربة هدندوية قصيرة، وإذا ركب الجمل تقلد السيف على جنبه الأيمن أو وضعه أمامه على السرج[4].

وكان ببيت المال قسم لصناعة السيوف وإغمادها والحراب.

ولسيف من سيوف المهدي قصة، وهو سيف الصحابي الجليل

(١) الآثار الكاملة، رقم ١٤٣ ص ٤٠١ ـ ٤٠٢.
(٢) نفسه، رقم ١٨٠ ـ وهذا الطرف من الآثار لم ينشر إلى وضع هذا الكتاب.
(٣) نفسه، رقم ١٧٧ ـ وهذا الطرف من الآثار لم ينشر إلى وضع هذا الكتاب.
(٤) نعوم شقير، ص ٣٩١.

الـزبير بن العـوام، وقد أتى بـه إلى المهدي وأهـدي إليه في جبـل قديـر مـع سيوف أخرى ثمينة[1]. وقد احتفظ به المهدي حتى مات. ولا بد أنـه آل إلى خليفة المهدي وإن كان نعوم شقيـر يسوق وجهـاً مختلفاً، وبكيفيـة لا ندركهـا حصل السيد عبد الرحمن على السيف. وقـد زينه وكسـاه بالـذهب وجعل لـه غمداً من الذهب. وكان هذا السيف عند السيد الهادي المهدي بصفتـه الإمام عندما وقعت حوادث الجزيرة أبا وود نوباوي. ولمـا ذهبنا إلى سـراي المهدي بالجزيرة أبا لجمع مقتنيات السيد عبد الـرحمن وجدنـا صندوق السيف خـالياً فكـاد يسقط قلبي من موضعـه، لأن معنى ذلك أن أحـداً أخذ السيف. ولكن اتضح مؤخراً أن السيد الهادي حمل معه السيف عند مغادرته للجزيـرة، وبعد مقتله سلم الضابط الإداري الذي كان بالواقعة السيف ومبلغاً كبيراً كان يحمله الإمـام من المال إلى الـدولـة. وقـد أودع السيف في بنـك السـودان. وعنـد الاحتفال بالعيد المئوي للمهـدية أخـذ من البنك بضمـان مليون جنيـه وعرض لفترة قصيرة ثم أعيد إلى البنك. ومن المؤسف أن هذا الضابط الذي لم يقتل الهادي ولا كانت له النية لذلك والذي أورد بكل أمانة كل الأموال التي كـانت معه وهذا السيف الثمين قد عرض إلى السجن والمحاكمة. وكنا قد سألنا هذا الضابط ليكتب بأمانة الأمور المتصلة بمقتل السيد الهادي شهادة للتاريخ ففعل مشكـوراً وأودعت شهـادتـه في دار الـوثـائق القـوميـة، وصـارت من بعـد من مستندات المحاكمة.

وربما كان هذا السيف هو الذي قدمه السيد عبـد الرحمن المهـدي إلى ملك بريطانيا عندما ذهب إلى لندن ضمن الـوفد السـوداني لتهنئة الملك على النصر في الحرب العالمية الأولى، أو لعله قدم سيفاً آخر باعتبار أنه سيف أبيه ـ فهذه أمور غير واضحة. وكيفما كان الأمر، فقد أعاده الملك إليه وطلب منـه أن يـدافع بـه عن الإمبراطـورية البـريطانيـة. ومحـاولـة السيـد عبـد الـرحمن واضحة: فهو يقود قوماً كان بينهم وبين الإنجليـز عداء شـديد، وهم يحملون لهم العـداء المميت. والإنجليز لا يـطمئنون إليـه ولا إلى أنصـاره، وبعضهم يكرهه ويرجو أن يسد بابه نهائياً. وهو يحاول وسط أمواج عاتية أن يعبر بسفينة

---

(١) مجلس التاتاي، المجلد الأخير من الآثار الكاملة.

الأنصار إلى بر يكون فيه للأنصار اعتبار ومكانة ويكون له هو وضع القيادة المعترف بها. وربما كان وراء هذا المشهد بعض إداريي حكومة السودان ممن كان يدعمه ليدللوا على ولائه ويستمروا في دعمه والاعتماد عليه. ولعل ملك بريطانيا لم يشأ أن يعطيه كل ذلك الدعم خاصة وكان في الوفد غريمه السيد علي الميرغني الذي كان يرأس الوفد، وقد احتج بالفعل على الحادث. ولذلك قبل الملك الهدية ثم أعادها لتكون في دفاع الإمبراطورية. وقد طمن تقديم السيف من كان يتردد في الود نحوه من إداريي السودان ولطف الجو بين الحكومة من جانب وبين السيد عبد الرحمن وأنصاره من جانب آخر، وإن كان الخلاف حول الكينونة الأنصارية ـ المعادية بطبيعتها في نظر بعض الإنجليز ـ بين المؤيدين للسيد عبد الرحمن والمعارضين له قد استمر.

وبمتحف السودان سيف الوزير ناصر بن محمد أبو لكيلك، وهو رابع وزراء الهمج في السلطنة السنارية، وهو سيف أثري قيم. وكان بهذا المتحف سيف أثري آخر أهداه الشريف يوسف الهندي، وهو سيف بادي ود رجب وزير الهمج، وهو ابن أخ أبي لكيلك وثاني وزراء الهمج. وقد أهدت الحكومة هذا السيف في أول العهد المايوي إلى الرئيس جمال عبد الناصر، وذلك بالرغم من اعتراض المسؤولين بالمتحف باعتباره أثراً فريداً وهدية لا ينبغي التصرف فيها. وقد جاء نقش أحد جانبي السيف:

ورث الشجاعة والفطانة والأدب   بادي الكتوشم والده رجب

وفي الجانب الآخر:

وعلى الصديق ثغر صفو باسم   وعلى العدو كناب فهد أجوع

وكان من مقتني السيوف الأثرية في السودان الشريف يوسف الهندي، وقد وقفنا على بعض مقتنياته في منزله ببري بأريحية خليفته الشيخ الصديق. وفي عرض تلفزيوني عرض بعضها الأستاذ الطيب محمد الطيب مع كلام مفيد عن السيوف.

وقد وقفنا على صور لسيف وغمد عبد الله بك حمزة عند الدكتور أندرس بيركلو. وهو أستاذ بجامعة بيرجن، وقد أعد أطروحته للدكتوراه عن

شندي ووقف على أوراق عبد الله بك وسيفه بهـذه المناسبـة. وقد نـال درجة الدكتوراه بها ونشر أطروحته.

أمـا أوراقه فقـد صـورهـا واستعـان بهـا في دراستـه ثم تـولى تصنيفهـا ودراستها الأستاذ الطيب أبشر الطيب، وهو موظف بدار الوثائق القـومية، ونـال بذلك درجـة الماجستيـر. وكان عبـد الله بك حمـزة من كبار تجـار السودان، وكـان ثريـاً يملك المال والأرض، وكـانت له أمـلاك بمصـر. وقـد عـاش في التركية والمهـدية. أمـا سيفه فهـو سيف جميل عليـه نقوش، ومقبضـه مزين، وغمده جميل. ويجـري نقشه في الـطرف الأعلى ـ كما هـو المنطقي ـ لا في الطرف القاطع. وبأحد جانبيـه ثلاث عـلامات، ولسنـا نعلم ما تعني، ولعلهـا مجـرد زخرفـة. وفي الـطرف الآخـر بعـد الغمـد يـرد رسم يتكـون من أربعـة أطـراف، ولم ندر المقصـود منه، ثم عبـارة بسطرين داخـل مستطيـل طـويـل محاط بخطين، وفي داخل المستطيل نقشت العبارة التالية:

يا غارت الله خلى عقود ما ربطوا شتى شمل أقوام ننا ما أحاطوا = سطر
الله وأكبر سفّ الله قاطعهم وكلما علو في ظلمهم هبطو سنة ٦٥ = سطر

وقد جاء نقش العبارة مضطرباً من ناحيـة الإملاء، ولعـل ذلك لصعـوبة الحفر. مثلاً قال: شتي، ونظن أن المقصود: شيء، وبعد أقـوام وضع نقشـاً يقصد به تنوين الميم، ولم يضع الألف بعد: أحاطوا، وفي السطر الثاني أوله الله أكبـر ولكنه أضـاف واواً بين الكلمتين، وقال سف والمقصـود: سيف ولم يضع الألف في آخر هبطو.

وبطرف المستطيل من جهة اليسار اتصل بـه خط يسير في شكـل نصف دائرة، ويرد في داخله قوله: نصر من الله وفتح قريب.

ومثل هذا النقش كثير في السيوف والحراب، وقد تقدم بعض ذلك عند كلامنا عن الحربة.

١٠ ـ البـوق:

وهـو آلة ملك ولم نسمـع أن ولياً اتخـذه. وهـو خشب محفـور أو قـرن غزال أو وعل أو سن فيـل ينفخ فيـه فيصدر صـوتاً للتنبيـه. وكان يستعمـل في

مراسم التتويج وفي نداء الجيش. وكان البوق يحفظ لهذا الغرض. وقد ضاع أغلب الأبـواق التاريخيـة ـ فيما ذكـر ديزني وفيمـا نعلم من ظروف ـ في عهـد المهدية. وقد ورد ذكره في تتويج ملك فازوغلي، ونفخ فيه عند كمال التتويج إعلاناً بالملك الجديد وعندما خرج من النهـر بعد أن اغتسـل. وذكر الـرحالـة كرمب أن البوق استعمـل في بلاط العبـدلاب للترحيب بـالشيخ وقـال إنه آلـة المـوسيقى الوحيـدة في هـذا البـلاط. واشتهـر في التـاريـخ أمبـايـة الخليفـة عبد الله، وهي من سن الفيل. قال نعوم شقير في ذلك أن فرقة الأمباية أربعـة رجـال يحمل كـل واحد منهم أمبـاية يصـوت بها عنـد ركـوب الخليفـة، وهم تـابعون لحـرسه، وقـال إن فـرقـة البيـدو والصفـار المؤلف من همسين رجـلاً يحملون أبواقاً من قرن الوعل وطبولاً وقرعاً يابساً محشواً بالحصى. والبوق أي البـرُوجي مستعمل في كـل الجيوش ولـه مكان مقـدم في احتفـالات الـدول. وأمهر من يستعمل البوق من عامة الناس أصحاب المراكب الكبيـرة السفريـة، فإنهم يطلقون صوته للأخطار بقدومهم كما تفعل القوافل بـالنقارة وقـد يفعلون ذلك تحية لصديق أو ولي. وعلى نحوهم يفعـل أهل السفن البخـارية، ولعله قد بلغك أن البواخر كانت تطلق صفارتها عنـد الجزيـرة أبا وهي صـاعدة إلى الجنوب وعائدة منه تحية لولي الجزيرة محمد أحمد مهدي المستقبل. وكانت بواخر حلفا الشلال تحيـي الشيخ عبد القادر في دبيره.

١١ ـ القـدح:

وهـو وعاء يـوضع فيـه الأكـل فيتنـاولـه النـاس، والعـادة أن تـأكـل فيـه الجماعة، توضع فيه الكسرة وعليها المرق واللحم. ويتخـذه السراة والحكـام ورجـال الدين لإطعـام الناس، وهـو دليل الكـرم الواسـع. وكـان للنبي عليـه الصلاة والسلام أقداح كما نذكر في مكـان آخر. وأشهـر أقداح السـودان قدح محمود زايد شيخ الضباينـة، وهو مشهـور تاريخيـاً بقدح ود زايـد، وقد غنمـه الخليفة عبد الله في ١٨٨٦ وجعله لإطعام جيشه في الولائم العامة. ذكر ذلك نعوم شقير فقال إن الخليفة كان يولم وليمة عامة بعد صلاة العصر للجيش كله فيقدم لهم طعام الكسـرة وعليها اللحم المشـوي من الضأن أو البقر في قـدح كبير يسع أردب غلة وهو قدح ود زايد. وفي كتاب الطبقات ذكرت الأقداح وما

كان يقدمه الأولياء لضيوفهم من صنوف الطعام، فارجع إليه إن شئت الزيـادة، وانظر بالأخص مائدة حسن ود حسونه العجيبة.

١٢ ـ اللـوح:

وهو من أدوات الكتابة وعليه قام التعليم في خلاوي السودان ومـدارسه قـديماً. وكـان يصنع من الأخشـاب الخفيفة حتى يسهـل على الصغار حمله. ويتخـذ اللوح أشكالاً مختلفـة وبحسب أنـواع الخشب المستعمـل والأشكـال المعهـودة في المناطق. ويجهـز اللوح على شكل مستطيل وفي أعـلاه بـروز يقبض بـه الطالب بشمـاله عنـدما يكتب. ومسـطحه أملس حتى يجـري القلم عليـه بسهولـة ويكتب عليه بقلم البـوص أو النـال وحبـر العمـار الـذي يصنـع محلياً. وبما أنه مصنوع من مادة متوفرة محلياً وقلمه وحبره يصنع أيضاً محليـاً فإنه كان سهل الاقتناء والاستعمال. وعادة يملي شيخ الخلوة على تلميذه طرفاً من القرآن فيكتبه ثم يقوم الشيخ بمراجعته حتى يـطمئن على صواب مـا كتب ثم يقوم التلميذ بحفظ القطعة ويعـرضها على الأستـاذ في اليوم التـالي، وبعد أن يتأكد الأستاذ من حفظه يملي عليه الطرف التالي من الآيات بعـد أن يكون قد مسح ما سبق بالماء وهكذا يمكن أن يستعمل اللوح لفترة طـويلة. ويشرب بعضهم مـاء الآيـات للتبـرك ويستعمـل الفقـرا العـزيمـة بنفس الأسلوب أو يستعملون الطبق بدل اللوح.

وفي العهـد الثنائي عـرفت الخلاوي الألـواح المستوردة فـاستعملت ثم أبـطل اللوح بأشكـاله المحليـة والمستوردة في مـدارس الحكومـة واستعـاض المعلمون عنه بالسبورة والكراسة وأقلام الرصـاص وريشة الحبـر ـ وكل ذلـك مستورد.

واللوح هو المفضل إلى اليـوم في خلاوي القـرآن وكان الأستـاذ عندمـا يبلغ تلميذه مبلغاً من القرآن يكتب له الشرافة مزينة فيحملهـا التلميذ إلى أهله ويأتي في اليوم التالي بنفحة أقلهـا طعام ممتـاز وأكثرهـا طعام ونقـود أو هديـة معتبرة.

١٣ ـ الخيل والسرج:

كان حكام السودان وعلية القوم عموماً يقتنون الجمال والحمير والخيول المنتقاة للركوب ـ فوق ما كانوا يقتنون للخدمة ـ ويعنون بها غاية العناية. وكانوا يخصصون من يقومون برعاية هذه الدواب وهم في ذلك مثل غيرهم من الملوك وأصحاب الوجاهة، حبب الله إليهم هذه الأنعام وجعلها للخدمة وزينة وأبهة. قال تعالى: ﴿والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة﴾، وقال: ﴿ومن الأنعام حمولة وفرشاً﴾. وكان نبي الله داود عليه السلام يحب الخيل حباً شديداً وبلغ فرسه ألفاً، وقد أورث ابنه سليمان الملك وحب الخيل وخيله ففتن بها حتى ألهته عن الصلاة مرة فعقرها إلا مائة أبقاها، وقد مات على حب الخيل. وقيل جاءه بعض العرب العماليق، فلما أرادوا العودة طلبوا زوادة للطريق فأعطاهم بدلها خيلاً ليصطادوا بها ويطعموا أنفسهم، وقيل هذه أصل خيل العرب وإليها ينسب النسابة خيل العرب. وقد أتى ابن الكلبي في كتابه «أنساب الخيل في الجاهلية والإسلام وأخبارها» بخبر هذه الخيل وما ولدت وأنساب خيل العرب وأخبارها. وكانت للنبي عليه الصلاة والسلام خمسة أفراس عرفت بأسمائها ويرد ذكرها في «زاد المعاد» لابن القيم. وقد استمرت عناية العرب بالخيل وأنسابها عبر العصور واقتنى ملوكهم وسراتهم أصائلها وتفاخروا بها.

وكانت للنوبيين قديماً عناية خاصة بالخيول مع أنهم لا يعنون بتربيتها الآن، وما تزال بعض أماكنهم تحمل اسم الخيل كما كانت تدعى في الأيام الغابرة، وترد في أغانيهم القديمة ذكر الخيل وتشبيه الجميلة بالمهر. وكان ملوك نبته من فرط عنايتهم بالخيول يدفنونها في مقابر خاصة مثل مقبرة الخيول في أكدو والذي يرجع إلى عهد الملك المشهور بعنخي. وفي مقابر فركة وجدت بقايا الحصان مما يدل على أنهم دفنوها مع الموتى استصحاباً. وكان لسلاطين الفور عناية فائقة بخيولهم، إذ جعلوا لها ملكاف تحته خدم وعمال. وكان كل سلطان يأتي عند ارتقائه العرش بطاقم من هؤلاء. وكان ملكهم مسؤولاً عند الملكة. وكانوا يولمون لهم وليمة سنوية عند بداية الخريف ليضمنوا اجتهادهم، وكانوا يرتبون لخيولهم الغذاء الجيد. وحكام الفونج كانوا يرتبون أماكن جيدة لخيولهم ويرتبون لهم الغذاء الكافي. وقد

وصف الرحالة بروس عناية وزير الفونج بخيله وحظائرها. وكانوا يفضلون من الخيل ما كان من دنقلا، وهو ما عناه الشاعر عندما شبه محبوبته بمهر دنقلا:

زنوبة عيش النوبة مهر الدنقلا المجنوبة

والمقصود بعيش النوبة هو القمح باعتبار أن الذرة هي عيش أواسط السودان وجنوبه بينما كان إنتاج القمح في شماله. وإنما شبهها بالقمح ليقول إنها حمراء جميلة. والنوبة يحبون هذا اللون في النساء. والمجنوبة المطيعة سهلة الانقياد.

وكانت لخيول دنقلا سوق رائجة عند سلاطين الفونج وشيوخ العبدلاب، وكان يصدر منها إلى الحبشة فتجد فيها رواجاً. وقد شارك في هذه التجارة بعض الأولياء وأثروا منها. فالشيخ موسى أبو قصة كان يتاجر في الجمال والخيول وجمع بها مالاً وفيراً. وقال في الطبقات إنه لبس العلج وركب جمال المديد وجلبها وجلب الخيل ومشط رأسه وسوى له قصة[1]. والعلج هو اللاجة فيما تقدم. والمديد هو الجمل والحصان القوي الذي أخذ غذاء كافياً. وكانت تجارة الخيل سبب ثراء حسن ود حسونة، قال الطبقات: حسن ود حسونة اشترى فرس غرة بلا حجل إما موت وإما فقر بالعجل، جلبها إلى اتبرا عند الحمران فتوقفوا عن شرائها. غارت عليهم قوم ساقت مالهم. ركب رجل فوقها فطرد القوم وقلبوا المال، فاشتراها بمال كثير: بقر وغنم. ثم إن الشيخ قدم بالسعية إلى بلده فلما كثرت طلع بها إلى البادية وحفر الحفير واقتنى العبيد وركبهم الخيل وقال بحرس بيهم سعيتي، والمتواتر عند الناس خمسمائة عبد كل واحد شايل سيف قبضته وابزيمه ومحاحيره فضة ولهم سيد قوم وجندي وعكاكيز. ورقيقه صار حلالاً. أما تجارته في الخيل المعبدات أي العزيزات المدللات بالأكل والماء والراحة والحظائر الجيدة فقد امتدت إلى تقلى وبرقو ودارفور وسنار وقرى. وتخدم ضيوفه فرخات لابسات الفرك والدناقس. وقد سافر إلى سنار يتجنب في وجهه من الخيل ثلاثة وأربعون جنيبة سروجها مخروطة وثلاثة كراديس قدامهم والمكادة الشايلين البندق ثلاثة وأربعون وجمال البديد سبعون وكلها جنائب

(١) الطبقات، ص ٣٢٥.

في وجهه وهو راكب على جمل بطّانه حبل. وهذا الرجل توقف عن تسليك الناس خوفاً على خدمه من الفضول. انتهى النقل بتصرف.

يريد الطبقات أن يقول إن ما يكره اقتناؤه عادة صار بركة في يد الشيخ وسبب ماله الواسع. وبالطبع فإنه لا يقبل أن يكون مصدر الثراء ما فاز به من ثمن لفرسه، ومن حقنا أن نزعم إن مصدره أوسع من ذلك ـ أي تجارة واسعة ناجحة درت هذا الثراء الذي يخلب الذهن ولا يتصوره المرء في ذلك الزمن وعلى يد ولي بالذات. ولفائدة القارىء: قبعته مقبضه. وإبزيم حلقة في منتصف السيف يربط عليها سير من الجلد يعلق منه السيف أو يحمل بواسطته. ومحاحير جمع محارة، قيل إنها عبارة عن زينة في شكل المحار تعلق على السيف. والمعبدات الجياد الأصيلة التي أحسنت تربيتها وتدريبها. وقد سقنا هذا البيان اعتماداً على ما رواه الدكتور يوسف[1].

ولنترك ود حسونة وخيوله وفرخاته وجيشه وننتقل إلى مجلس عمار بن عبد الحفيظ في سنار، وهو من كبار أعيانها ونجوم علمائها. قال الراوي: فوجدت الخيل والحمير متحاوشاه ـ من كثرتها ـ وفي بابه نعلات الصرموجة والفنجاوية ـ وذلك من كثرة من كانوا في حضرته وتنوعهم. ونقلاً عن الدكتور يوسف نقول: الصرموجة نوع خاص من الأحذية مثل الشبط لها عدة طبقات من الجلد، وهي شبيهة بالنوع الذي ينتعله سكان شرق السودان وبدو القطانة، ويعرف أيضاً بقدوم الصقر. ويطلق اللفظ في الجزيرة على نوع من البروش الجيدة المزخرفة. أما الفنجاوية فلم يصل إليه علمه ولا علمنا.

وكان إسماعيل صاحب الربابة يركب الخيل وتحوشه الفقرا شايلين النشاب، الفرس ما بتشاف من كثرتهم، شايلين التهليل بالنغمات الحسنة، وناس البلد والسادر والوارد والنساء والرجال شايلين التهليل على نغمته. وكان على ثرائه وفروسيته ذا وجد فني كصاحبه سلمان الزغراد، فإنه كان يجمع الشباب من الأولاد والبنات للرقص ويضرب الربابة، كل ضربة لها نغمة يفيق فيها المجنون وتزهل منها العقول وتطرب لها الحيوانات والجمادات حتى أن الربابة يضعونها في الشمس أول ما تسمع صوته تضرب على نغمته من غير

(١) الطبقات، ص ١٣٧.

أحد يضربها ـ هذا كلام ننقله بحرفه من الطبقات ـ وفرسه بنت بَكر يشدوها له ويلبسوها الحرير وقوادها ماسكها أول ما تسمع ترنمه في كلام الحرب وهو يقول: بنت بكر المردا سلطية العرضا فإن الفرس تقوم وتقعد وتداني ـ أي تومئ برأسها وتتأتى بيدها ـ برأسها ويديها وتقول شلو شلو. وكان يتغزل في هيبة ونهجة، وقد اضطر زوج أحديهما على الرحيل من كثرة تشبيبه. وقد قتله الشلك ومعه فقراً رباهم على نغمته[1]. انظر الفرس وانظر الربابة التي ترسل أنغاماً مثل أنغام صاحبها من غير أن يحرك أوتارها أحد ـ هذا رجل فنان وكل ما حوله فن. وفي المهدية اشتهرت خيول البقارة، وبالأخص الرزيقات وفرسانهم. وفي هجوم جيش المهدية كان الفرسان عادة بالميمنة والميسرة بينما يكون حملة السلاح الناري في المقدمة، وعامة الجيش خلف هؤلاء. فإذا بدأ حملة السلاح الناري الاصطدام ببنادقهم التف الفرسان حول العدو بالجانبين ثم يتقدم الجيش بالسيوف، ويبقى بالخلف المؤن والعوائل. ومن هنا ترى دور الفرسان وبلاءهم. وكان للفرسان الدور الحاسم في الواقعة بين بادي بن نول سلطان الفونج وجيش الحبشة، وكان فرسان بادي بقيادة خميس سلطان المسبعات المقيم بسنار.

وقد ذكر الرحالة بروس خيول السودان وأطراها وشغل صفحات من رحلته عنها. قال إنها خيول عربية أصيلة جاءت إلى دنقلا مع الغزاة المسلمين الأوائل وحافظ النوبيون على سلالتها خالصة. وذكر من عادات السودانيين في ركوب الخيل أن العرب البدو يفضلون أنثى الفرس على الحصان في الحرب، وذلك لأنهم يعتمدون في حربهم على المباغتة ويخافون من صهيل الحصان إذا شم رائحة الأنثى لأن ذلك ينبه العدو بوجودهم. أما النوبيون فيفضلون الحصان لأنهم في حربهم لا يعتمدون على المباغتة، وربما كمنوا في جبالهم وألقوا العدو بنبالهم، هم رماة الحدق الحاذقون فيما شهد لهم به الغزاة المسلمون. والفونج أيضاً يفضلون الحصان ولا يخشون تنبيه صهيله لأن بلادهم مفتوحة ولا تعطي مجالاً للمباغتة[2].

---

(١) الطبقات، ص ٩٢.

(٢) بروس، ص ٤٧٦ ـ ٤٧٧.

وقد وصف خيل الفونج العربية بأن علوها ١٦ شبراً، وإنها قصيرة الجسم، وسمينة شيئاً ما في مقدمتها. وقد أطرى فقال إنها بأجمل عينين وأذنين ورأس للخيل في العالم. وهي جميلة الشكل، قوية، سريعة الحركة، وأغلب لونها الأسود وبعضها خليط من الأبيض والأسود، وبعضها على بياض اللبن، وحوافرها وما حول عينيها بيضاء.

وعند وصفه لحظائر عدلان وزير الفونج قال: ويعلق كل فارس من فرسان الوزير عدلان درعاً من الحديد بجانب حصانه في كيس من فروة من جلد الغزال ناعم مثل الشاموا تحميه من الرطوبة أثناء الليل. وبجانبه خوذة من النحاس بغير قنبرة أو ريش مدلاة إلى فوق كيس الدرع، وكان هذا أجمل أدوات الفارس. ويضاف إلى ذلك سيف ضخم عريض الحد في غمد جلدي أحمر، وفوق اللدم يتدلى قفازان بشكل كيس، أي ليس مقسماً على الأصابع. وقد علم أن للوزير عدلان بهذه الحظيرة أكثر من أربعمائة حصان بفرسانها وعدتهم الكاملة، وهؤلاء عبيده الذين اشتراهم بماله الخاص. وكان لدى السلطان نحو خمسة أو ستة حظائر بهذه الكيفية، كل على بعد نصف ميل من الآخر ـ لعله خوفاً من عدوى المرض ـ وبكل منها خيول وفرسان وخدم، ولكنه لم يستوثق إن كانت منظمة ومعدة بمستوى حظيرة الوزير عدلان. وهو يؤكد أنه لم ير عند أي ملك أوروبي حصاناً أجمل تكويناً من الذي رآه في سنار[1]. وكان أهل دارفور ووداي مغرمين بالخيل، وقد روى ناختقال قدراً من أخبار خيولهم. ومن ذلك أنه قال إن خيول وداي صغيرة الحجم ويعوزها الجمال إلى حد بعيد، ولكنها ذات نشاط وصبر على المشقة. وقال إن خيل الفور يفضل خيل وداي شكلاً وصلاحية. وروى الرحالة الآخرون عناية سلاطين الفور بالخيل واقتناءهم خيرها وحرصهم على ألوانها.

والحمار حيوان منتشر في السودان ويتخذ للركوب والخدمة، وكتاب «الزراعة في السودان» يعطينا بيانات طيبة عنه. وخير الحمير ما كان مصرياً، أما في جهات السودان فكان أحسنها من بربر، فإنه قوي وسريع وشكله جميل

---

(١) بروس، ص ٤٧٦.

عموماً. وللناس عناية بالأصول الجيدة فيعطونها الرعاية ويستولدونها. وأسوأ الحمير ما كان يسمى داراوي، فهو ليس سريعاً ولا يصبر على المسافة الطويلة، إلا أنه لا بأس به في الخدمة. والجمل الغرباوي لا يتحمل الحمل الثقيل ويفتر سريعاً ولكنه كثير اللحم. والبقر العنجاوي لم يكن مشهوراً في الساقية لأنه يفتر. ولا يعتني أهل الشمالية بالخيل مثل أهل كردفان ودارفور لأن مناطقهم مستقرة ولا حرب فيها وإنما يعتنون بالحمير لاعتمادهم عليها في الخدمة والركوب. وعلى ما يروي ناختقال فإن حمير الحمل كانت رخيصة في ودّاي. أما حمير الركوب المستوردة من مصر والتي تسمى ريفاني، نسبة إلى ريف مصر، فكانت غالية جداً. والنوع الشائع في مصر وكردفان قد يربو ثمنه في ودّاي على ثمن حصان جيد من أصل ودّايي. وقد تفوق سرعة الحمار الجيد من ذلك النوع سرعة حصان ودّاي وجمالها ما عدا الفصيلة التي اشتهرت بها البديات والطوارق. وعلى ما روي أيضاً كان الحمار الجيد أغلى في دارفور من الجمل. وكان العلية في المناطق التي تكثر فيها الخيل ينفرون من ركوب الحمير، لأن الخيل دليل العز وفيها طعم الفروسية. وفي ذلك ذكر البروفسيرتوبيانا أن زعماء الزغاوة يركبون الخيل بينما يركب الحدادون والنساء الحمير. وفي ودّاي أيضاً ينفر العلية من ركوب الحمار وفي دارفور يركب القوم الخيل والحمير والجمال ولكن العلية يفضلون الخيل ويؤثرونها.

والخيل اسم الحيوان. والحصان هو الذكر بالتخصيص. والفرس يطلق على الذكر والأنثى، والعامة يجعلون الفرس للأنثى، وبعضهم يؤنث اللفظ فيقول فرسة، وهو خطأ. وأنثى الخيل هي الحجر بكسر الحاء وسكون الجيم، وجمهور اللغة إنها بلا لغة هاء وإن وضعها مسترذل، والأشهب البني اللون، والأبلق الأبيض، والخيل المعبدة هي المدللة بطيب الأكل والراحة والحظيرة. وأوصاف الخيل في اللغة العربية بغير حد. وارتفاع الخيل يتفاوت، وعلى ما علمت فإن الخيل الأوروبي يتجاوز الخيل العربي ارتفاعاً.

والجمل حيوان قديم في وداي النيل، وقد ذكره كتاب «الزراعة في السودان»، وهو للركوب والحمل. والنوع الأخير يشار إليه بجمل الحوية والبديد. وفي مناطق البدو كانوا يعدون الهودج على الجمال لتقعد فيه كرائم النساء عند الرحيل، وهم يصنعونه بعناية ويتكلفون في زينته. ومثله ما يفعل

البقارة، فإنهم يزينون الثور القوي ويهيئونه للنساء ويتكلفون في ذلك كثيراً. وكانت قوافل السودان مشهورة، كانت تقطع هذه البلاد الواسعة محملة وتوصل بينها وبين البلاد المجاورة وكانت عليها تجارة السودان، لهامشية دور الحمار والسفن في النقل. ويأتي السودان في المرتبة الثانية بعد الصومال في الإبل المربى، وتقدر ثروته منه في حدود ٢,٩ مليون رأس، ومقدار ذلك من ثروة العرب في الإبل ٢٨٪ ونذكر في هذه المناسبة اننا في بعض أعمالنا وطلبنا من المسؤولين بيانات عن الثروة الحيوانية فأفاد المسؤول عن كتم أن أهل مجلسه يملكون ٦ ملايين من الإبل، فانظر!

وإبل السودان في أربعة أنواع: أولاً العربي، وهو يتميز بحجمه الضخم ورأسه الكبير وخفه العريض. وهو مخصص للحمل. وثانياً الرشائدي، وهو حديث في السودان لأن الرشائدة ـ ويسمون أيضاً الزبيدية ـ حديثو عهد بالسودان، إذ كانت هجرتهم إليه من الجزيرة العربية في القرن الماضي والإبل الرشائدي قليل العدد في السودان ويتميز بصغر الحجم وقصر الأرجل وقوة الجسم، وهو يستخدم في الحمل. وثالثاً العنافي، وهو يمتاز بصغر الحجم وطول الرجل وصغر الرأس والسرعة، وهو للركوب. والرابع البشاري، وهو الذي نقصد، وهو من إبل الركوب، وهو طويل الأرجل، خفيف الوزن، صغير السنام والرأس.

والجمل البشاري هو المشهور تاريخياً بجريه السريع طويل النفس، وهو الذي ذكره المتنبي مرتين في بعض شعره في مصر، إلا أنه نسبه إلى البجاة. وكما تعلم فإن البشاريين من البجة والذين هم البجاة أيضاً. وإشارة المتنبي في حد ذاتها تعني أن شهرة هذا الجمل قديمة وواسعة، ولولا ذلك لما بلغ خبره المتنبي في مصر. ولكن كانت بالناس عندها عناية كبيرة بالجمل لأنه كان أداة النقل والرحلة البعيدة ـ وذلك قبل أن تغزو العربات والقاطرات والطائرات عالمه وتحتل مكانه.

وعلى ذكر إشارة المتنبي إلى البجاة فإن أبا العلاء المعري ذكر قبيلة الزغاوة في بعض كلامه. وقد ذكرهم أيضاً الخليل بن أحمد في كتاب العين وقال إن الزغاوة جنس من السودان، وإن الزغا رائحة الحبش. وبالطبع فإنه

لم ينسب الرائحة للزغاوة ولكنه يعرف بلفظ آخر. والربط بين هذا المعنى وبين اسم قبيلة الزغاوة بعيد لأن اسمهم محلى ولا يقبل فيه تخريج عربي. ولسنا ندري ما يريد برائحة الحبش، هل يقصد رائحة العطر أم رائحة الأبدان. ظننا أنه يقصد العطر لأن العرب كانوا يستجلبون بعض العطر من الحبشة. ولكن الجاحظ يذكر في بعض رسائله رائحة الأبدان في مساوىء نساء السودان والبجاويات خاصة وقال إن ذلك بجانب مساوىء أخرى كان يقلل من التمتع بجوارهن. وذكر آدم متز في كتابه «الحضارة الإسلامية» نقلاً عن ابن بطلان الطبيب النصراني المشهور أوصاف نساء السودان من الزنج والنوبة والبجة، وليس في نقله شيء عن رائحة أبدانهن.

وإضافة إلى ذكر المتنبي فإن الجمل البشاري مذكور على الأقل في موضعين مهمين، فهو الذي فر به سلاطين من المهدية إلى مصر، في رحلة أعدت إعداداً جيداً بفضل خبراء متمرسين، وهو الذي سقط منه ومات دك هلدر بطل قصيدة رديارد كبلنج «الضوء الذي خبأ». فانظر سحر هذا الجمل وشهرته!

والبغل قريب إلى شكل الحمار، وهو نتاج اتصال الحصان بأنثى الحمار، وهو يصبر على الحمل. ويشبه المرء بالبغل إذا سمن سمناً مفرطاً وكان بليداً. وكان البغل دابة الذوات يركبونه بفاخر السرج واللجام. ويقتني في مصر كثيراً، وأكثر من مصر في أثيوبيا. وأهل السودان لا يحفلون بتربيته، وقد ورد خبره في الطبقات مرة واحدة، وذلك عند ذكر ما ورثه الشيخ مصطفى المغربي عن شيخه، مع أن الخيل والجمل يذكران كثيراً. ويؤدي الحمار في السودان كل مهام البغل فوق مهامه. ويا لسوء حظه إذ جمع على ظهره المصيبتين. وقد غنم الأنصار بعد معركة القلابات بغلة الملك يوحنا إمبراطور الحبشة بسرجها ولجامها وكل عدتها وأتوا بها إلى الخليفة عبد الله فأهداها بجميع عدتها إلى الشيخ محمد المكي إسماعيل تعبيراً عن موقعه الحميم من قلبه. وكانت غنائم هذه الواقعة كما يذكر الزاكي طمل قائد المهدية المنتصر إلى الخليفة في العبارة التالية: «وقد غنمنا جميع ما معهم من الأسلحة والمدافع والجباخين والخيول والبغال وبقية الأمتعة. وبعد استئصال المنهزمين صار تفقد الهالكين من رؤساء الكافرين بواسطة من لهم المعرفة التامة بهم

فوجدنا عدو الله الهالك النقس يوحنا مقتولاً في الواقعة الأولى كما ذكرناه آنفاً مدخلاً في صندوق مشمع ببطن خيمته وعلى صدره صليب من ذهب كان يعبده من دون الله ومعه أفخر ملابسه وبعنقه العتبة التي يتخذونها وعليه أنواع من الأدوية لئلا يتمزق. ففي الحال أخرجناه من الصندوق وحززنا رأسه ورفعناه على قناة فاستبشر الأنصار بذلك وحمدوا مولاهم على تلك النعمة العظيمة. ثم أرسلنا رأس الهالك يوحنا المذكور ورؤوس وزرائه كراس الوله وغيره لصوب السيادة إعلاماً بتأييد الدين ودمار الكافرين ومعها تاج المملكة الذي للملعون المذكور وخيامه ونحاساته وغير ذلك من أمتعته الخاصة»[1].

وعلى ذكر تاج الإمبراطور يوحنا نروي خبراً عنه وعن بعض مقتنيات حفظها الأنصار، يقول الخبر: جمع الخليفة عبد الله من مديريات الحكومة السابقة مقتنيات من أصناف الجواهر والألماظ والبرلمنت والزمرد الأخضر والياقوت، وأهمها هو التاج المحضر من ملك الحبشة، حيث كان مرصعاً بالجواهر الكبيرة والصغيرة، وقد كانت هذه الأشياء النفيسة تابعة لبيت المال لأن الفيء كان تابعاً لبيت المال، وعند انفصال الفيء عن بيت المال صارت تحت أمانة محمد بشير كرار أمين الفيء. وعند حضور سفير الحبشة قد طلب التاج من خليفة المهدي ليفديه بمبالغ كبيرة، فعندها أمر الخليفة بكسر التاج وجميع الأنتكخانة الموجودة، فشكل لجنة لكسرها، وهم الأمناء المعينين السيد علي محمد الضوي من بربر وجبريل أبمعلي من بربر وولد العجمي من بربر ويوسف حاج النور من أمدرمان ومحمد عبد الفتاح من بيت الأمانة. . . وإلى هنا وقف الخبر لأن ما بعده بتر من الوثيقة وسقط. فعل الخليفة ذلك ـ إذا صح ما روي ـ بعداً عن التيجان ومظاهر الدنيا وجلب المنفعة منها وحتى لا يفيد بها ملك الحبشة لأنه رمز دولته. ولا تعجب ـ أيها القارىء ـ مما فعل الخليفة وتحسبه فظاظة، لأنا ـ ونحن في آخر القرن العشرين ـ لسنا أكثر عناية بالمقتنيات. وإلا فما رأيك في إزالة تماثيل غردون وكتشنر وسلاطين وإعادتها إلى بريطانيا في حركة صبيانية قصد منها البطولة، وما رأيك في إزالة بوابة السكة الحديد المواجهة لبوابة القصر الجمهوري والتي صنعت على طراز

---

(١) نعوم شقير، ص ٤٤٨ ـ ٧٤٩.

إحدى بوابات القصور الملكية ببريطانيا، وما رأيك في من قلعوا تمثال نهرو في أم درمان وألقوا به في النيل مع ما يرمز إليه من معان، وما رأيك فيما روينا عن سور جامع الخليفة على يد نميري وتحطيم النصب التذكاري للمهدية على يد من جاءوا بعده وحسبوا أنفسهم حفظة تراث المهدية. كل ذلك استهوان بالآثار والتراث أو قل إنه قلة الحجى.

والشعر العربي مليء بما قيل في الخيل، ولا يتسع المجال للخوض فيه، وهو قريب المنال لمن شاء في كتب التراث. ولكننا نريد أن ننقل بعض ما قيل في تراث السودان منه، ونرجو أن يستزيد القارىء من مصادره:

قالت بنونة بنت الملك نمر في رثاء شقيقها عمارة:

ما هو الفافنوس	ما اهو الغليظ البوص
ود المك عريس	خيلا بجن عركوس
أحيّ على سيفو	البحد الروس
كوفيتك الخودة	أم عصى بولاد
درك في أم لهيب	الشمس وقاد
سيفك من سقا	يتو استعجب الحداد
قارحك من غير شكال	ما بقربو الشداد
يا مقنع بنات	جعل القرار من جم
الخيل عركسن	ما قال عدادهن كم
فرتاك حافلن	ملآن سروجن دم

وهي قطعة يغنيها المطرب عبد الكريم الكابلي بأداء جيد. وقال صاحبي[1] الذي أمدني بالقطعة مشكوراً: «في هذه المرثية عدة أبيات تنسحب مضموناً ومعنى على ما أشار إليه المؤلف ـ يقصد كاتب السطور ـ من أدوات الملك والولاية كالسيف والخيل والدرع والخوذة. ومن خلال هذه الأبيات المختارة قد استطاعت بنونة أن تصور لنا أخاها في صورة فارس مغوار يتأبط شراً وخرج ممتطياً صهوة جواده القارح الذي يعجز الشداد (الخادم) من

(١) هو الأستاذ أحمد إبراهيم أبو شوك الذي التقينا به في جامعة بيرجن في شتاء ١٩٩٠ وهو يعدّ لأطروحته عن بيت مال المهدية بينما كنت أستاذاً زائراً في الجامعة نفسها.

إعداده من غير رباط (شكال) وسيفاً تعجب نافخ الكير من حدته وعلى رأسه خوذة تقيه من ويلات الحرب بالإضافة إلى درع له بريق ولمعان في ساحة الوغى».

وفي الأدبيات الشعرية التي جمعها الأستاذ قرشي محمد حسن من الشعر الشعبي وأشعار المهدية ترد نصوص في الخيل والفروسية وعدتها من درع وغيره. ويغني المطرب الشعبي بادي محمد الطيب في أداء جميل أبياتاً من مدحة لشاعر المهدية المشهور أحمد ود سعد تمجيداً لوقائع المهدية وأبطالها في الجبهة الحبشية، وهي التي تبدأ بقوله: أنصار الإمام راكبين عواتي الخيل، وهي من شعر الحماس عند الأنصار الذين يكثرون من هذا اللون من الشعر تفاخراً بأمجادهم واعتزازاً ببطولتهم ـ وحق لهم ذلك! وهذه القصيدة واردة في السفر الذي خصصه الأستاذ قرشي لشعر المهدية: قصائد من شعراء المهدية، ومثبتة لود سعد، ولكن الأستاذ عبد الوهاب موسى الذي رجعنا إليه لمراجعة هذا الكتاب يذهب إلى أن القصيدة لعبد القادر ود حبوبة.

ونختم هذا الموضع بقول مشهور وهو «الخيل تجقلب والشكر لي حماد». وقد ذهب مثلا وحماد المعنى هنا هو حماد الحماداب العبدلاب بحي الحماداب بمدينة الشجرة بالخرطوم وهناك مثل يجري نفس المجرى وهو: «القتال للهلالي والشكر لأبو زيد».

كان للخيل في السودان دولة وعرش، وكانت قوة القبائل والدول تحسب بخيولها وفرسانها، وكان من خير ما يمدح به الرجل في السودان أن يوصف بأنه فارس. وعلية القوم كانوا يقتنون الجيد من الخيل ويعتزون به. وفي الاحتفالات القبلية والمواسم العامة يستعرض الفرسان بخيولهم ويرقصون بها على أنغام الطبول. ولعلك تذكر الولي وحصانه الذي يرقص على أنغامه. وفي الخرطوم ميدان لسباق الخيل مشهور له رواده. وتعد في الأقاليم مسابقات سنوية. وكان السيد عبد الرحمن من المشجعين لسباق الخيل، لأنه كان مغرماً بهذه الرياضة ذات الأثر في تقويم الرجولة وبث روح الفروسية، وكانت له حظائر في جنوب الخرطوم وخيل مشهورة يشارك بها في السباق. وفي مكتبنا كأس فضي من كؤوس السباق لعله فاز به أو لعله كان يقدمه ليتنافس عليه الفرسان.

والسرج من أدوات الركوب والحمل على الخيل والجمل والحمار والبغل. وبعض الناس يركبون هذه الحيوانات بغير سرج. وكان المنتشر منه هو السرج البلدي، وهو أنواع، منه ما هو للركوب وما هو للشيل. ويختلف كل ذلك حسب الطراز المتبع في كل إقليم. وهو يتكون من جانب خشبي وحشو يأتي بين الخشب وظهر الحيوان ليقيه من خشونة الخشب وضغط الحمل عليه. وعادة كان الحشو من القش، وخاصة لدواب الحمل وهذا يسمى خشابي. وبعضهم كان يضع القطن أو صوف الغنم في وسادة سميكة، وهو أكثر حماية. ثم جاء اللباد من مصر وطرابلس، وكانوا يضعون ست أو ثماني طبقات على ظهر الحصان تحت السرج، وقبل اللباد كانت سروج الخيل تماثل سروج الحمير. والسرج ا لمبطن يسمى بديد. وأقوى سروج الحمير ما يصنع في دنقلا، فهو من السنط ومجلد بعناية. وكان سرج المهدي والخليفة علي الحلو من هذا النوع، وكانا ضمن مقتنيات السيد عبد الرحمن التي انتهبت من بيت المهدي.

ويذكر ناختقال إن أهل دارفور كانوا معادين للسرج التركي، وقد توجسوا منه لأنه كان يركب على سرج تركي، فاضطر لذلك إلى شراء سرج عادي. وكان ذلك لأن الفور كانوا يخشون من أن يمتد الغزو التركي إلى بلادهم، فكرهوا كل ما له صلة بهم. وكانوا يتوجسون أيضاً من ناختقال نفسه وعَدَّه بعضهم جاسوساً للترك.

١٤ ـ الدرع

وهو من أدوات الملك، وإن كان في أغلبه من قبيل السلاح لا الأدوات. وقد ذكر ناختقال درع سليمان سولونج، أول سلاطين الفور، وقال إنه أخذ صغيراً إلى ودّاي هربا من الفتن التي نجمت من جراء التزاحم على الملك. فلما كبر عاد ليصارع عمه تنسام ويتغلب عليه ويصير سلطاناً. وكان معه درع يسمى شريم، وكان حول الدرع أجراس صغيرة تصدر صوتاً إذا هزه. وقد نظر إليه الفور بالخوف والرهبة وظنوا به سراً وسحراً، فإذا سمعوا صوت أجراسه تيقنوا أن سليماناً لا بد علي وشك الظفر بأعدائه. وقد ذكر

ناختقال أن هذا الدرع كان محفوظاً لعهده ضمن مقتنيات السلطان[1].

وعلى ما يذكر نعوم شقير فإن فرسان الفونج كانوا في حربهم ضد الحبشة يلبسون دروع الزرد[2]. وذكر بروس أن وزير الفونج الذي زاره كان يعلق دروعه في حظيرة خيله، أي يعلق كل فارس درعه بجانب حصانه استعداداً للقتال. وذكر شقير أيضاً أن الخليفة عبد الله كان إذا ركب جواداً لبس أحياناً الدرع والخوذة[3]. وبدار الوثائق القومية بالخرطوم خوذة نحاسية كانت ملكاً للأمير النور عنقرة وأهدتها أسرته.

وحث المهدي على لبس الدروع، وذلك من باب حرصه على الاعتماد على السيف، قال راوياً عن الرسول في حضرة: والبسوا الدروع والأمات والتل الذي في الرأس اقتداء بي وإن إلباسك للدروع لا لتحصين عند الحروب ولا غيره بل اقتداء بي وبسنتي [4].

والدرع من الحديد والنحاس ويلبس على الجسم لاتقاء السيف والحربة. وهو يسمى أيضاً المجنة والترس. والدرقة تؤدي نفس الغرض ولكنها لا تلبس، وإنما يحملها الفارس باليد اليسرى للوقاية من الضرب بينما يحمل بيمينه السيف أو الحربة ويجادل خصمه حتى يجد مضرباً بينما هو يقي نفسه بالدرقة. وفي حين أن الدرع ثابت في الجسم فإن الدرقة متحركة. ويمكن أن يتخلص المحارب منها بسهولة وهي أقل وزناً من الدرع وبالتالي أكثر رحمة. وهي تصنع من جلد الحيوانات ذي الصلابة كالفيل والقرنتي. وقد صنع لي أحد أعلام الشلك درقة على سبيل الهدية عندما زرنا ملكال في طوافي لرسم المديريات الجديدة للجنوب.

ومن الشعر الذي قيل في الدرع ما قيل في رثاء نعمان ود قمر، شيخ المناصير، وكان فارساً مغواراً:

---

(١) ناختقال، ص ٢٧٨.
(٢) نعوم شقير، ص ١٠٨.
(٣) نعوم شقير، ص ٨٩٢.
(٤) مخطوط النجومي، الأصل ص ١١٣، المحقق ص ٤٠٧.

زايله يا نعمان العديل | واوعك تخب عيب للمناصير
سيروك بي يوما عسير | ولبسوك حزام الضفير
زايله يا نعمان كان ولد | وهد كبد القيقر رقد

١٥ - ١٦ - الشمسية والهبابة

والشمسية أداة يتقى بها من حرارة الشمس، وقد اقتناها السراة للوقاية إذا خرجوا في زمن القيلولة. ثم صارت من أدوات الملك ولوازمه. وكانت تسمى في الدولة الإسلامية شمسية الخلافة وسميت في مصر مظلة. ويقول آدم متز في ذلك إن المظلة كانت في القاهرة علامة أبهة الخلافة وكان لونها يشابه لون ثياب الخليفة. وقد شاعت في ممالك افريقيا الغربية والوسطى. ولعلهم أخذوها من المراسم الإسلامية وقد اتخذها سلطان وداي وسلطان الفور. ومع الشمسية ا تخذت الهبابة، وهي عادة تسمى ريش لأنها تصنع من ريش النعام[١].

وكان سلطان الفور إذا خرج يظلل بشمسية كبيرة فوق رأسه ويسير في ظل واسع بينما تكون الهبابات بطرفيه، اثنتان باليمين ومثلهما باليسار، فتنعش له الجو. وفي ديوانه كان يروح عليه بالهبابات[٢]. وقد وصف نعوم شقير شمسية السلطان وهباباته بقوله: ترفع فوق رأس السلطان مظلة واسعة جداً تظلله وجواده ومن ورائه رجلان يحملان هبابتين كبيرتين يزين حواشيهما ريش النعام لحجب الشمس عن ظهره وعن كل من جانبيه مروحة يحملها رجل يروح بها عليه[٣]. وعندما يدخل السلطان المسجد كان يحمل معه الهبابات والشمسية. وكان الإداريون الإنجليز يعلقون على سقف مكاتبهم قماشاً من الدمور ويجعلون له حبلاً يمسك بطرفه الآخر مسجون يظل بجر الحبل ويتركه فيتحرك القماش جيئة وذهاباً ويحرك الهواء في المكتب ويستروح به الإداري.

---

(١) التونسي، ص ٢٠٤، ناختقال، ص ٣٣٦.
(٢) التونسي، ص ١٧٠، ناختقال، ص ٢٦٢ و٩٠٧، أوفاهي، ص ١٥.
(٣) نعوم شقير، ص ١٨٦.

وكانت شمسية ملوك السودان مصنوعة من ريش النعام، وكذلك الهبابة. وكان لون الريش خلطاً من ألوان زيادة في زينتها، ويثبت الريش على قماش بألوان مختلفة، وكانت في حالة خاصة مثبتاً على حرير أخضر يتخلله الأحمر والأصفر. وكانت الهبابة تغلف بالجوخ. ومثل هذه الهبابات ـ وإن كانت بشكل أصغر ـ تصنع الآن في أشكال جميلة وتباع. وريشها عادة تثبت على قطعة من نسيج السعف أو الجلد. وأهل الشمال يصنعون الهبابات من السعف ومن الخيط في ألوان زاهية. وتباع كميات كبيرة منها في محطة شندى للسكة الحديد.

ومما يروى في خبر الهبابات بدارفور أن اسحق بن السلطان تيراب ترك خلفه هباباته عندما هزم أمام جيش السلطان عبد الرحمن[1]، وكان ذلك من دلائل هزيمته.

١٦ ـ ١٧ ـ الختم والخاتم

الختم من أدوات الديوان المهمة، ولا تتم مكاتبة رسمية إلا به. وهو مما يذكره ابن خلدون في مقدمته ضمن آلات الدولة. وقد استعمل في السودان بشكل واسع بدلاً عن التوقيع نسبة لتفشي الأمية. وهو يرد كطرف ثابت في مفتتح محررات الفور والفونج وتقلى، وذلك على ا لوجه العربي الإسلامي. وجاء في مختتم الرسائل الشخصية وسائر الوثائق الإثباتية وفي محررات المهدية كإجراء ديواني ثابت لتأييد ما سبقه من نصوص. وقد تعرضنا إلى أختام السودان وما يتعلق بها في كتابنا «الختم الديواني في السودان» وبشكل مخصص عن أختام المهدية في كتابنا «الحركة الفكرية في المهدية».

هذا ما كان من أمر الختم، أما الخاتم فموضعه الإصبع، وغالباً ما يكون لبسه في البنصر والخنصر وقليله في الوسطى وأقله في الإبهام. أما في السبابة فنادر، ولم أره! وقد تضع المرأة في أكثر من اصبع. وبعض الناس يضعه في اليد اليمنى، وبعض في اليد اليسرى، والأخير هو الغالب. وكان

(١) ناختقال، ص ٢٩٠.

بعض الناس ينقشون عليه أشكالاً أو عبارات يتفاءلون بها أو يستحسنونها أو ينقشون ما يجعله ختماً تبصم الوثائق به. وكان ختم الرسول عليه الصلاة والسلام وخلفائه من هذا القبيل. ولبس الخاتم سنّة عند المسلمين إذا التزم صاحبه بشروطه، وهي أن يكون مطابقاً لختم الرسول في المعدن والوزن وأن يكون بغرض الاقتداء. على أن أغلب الناس يتخذونه بغرض الزينة - أو العادة! وهم يتخذونه من المعادن أو من العاج أو من غيرهما. وأكثر خواتم السودان كان من الفضة أو النحاس، وبعضه من مواد محلية كالخشب وسن الفيل، ولم تنتشر في السودان الخواتم ا لثمينة ولا فصوص الأحجار الثمينة غالية الثمن - اللهم إلا في أيامنا!

وقد جاء في خبر السلطان أحمد بكر، سلطان الفور، أنه عندما دنت وفاته نادى ابنه محمد دورا وأقره على الحكم بعده وأوصاه بأمور يفعلها وسلمه خاتمه[1] باعتبار أن انتقال الخاتم إليه هو انتقال الحكم نفسه. وهذا الخاتم لم يكن عليه النقش الديواني الذي تعتمد به الرسائل وإنما كان خاتماً عادياً بغير دلالة ديوانية، إذ إن سلاطين الفور كانت لهم أختام خاصة لأعمال الديوان. والعلامة التي نقل بها أحمد بكر الحكم إلى ابنه محمد دورا حالة فريدة لم نقف على مثلها، اللهم إلا ما فعله علي النيل عندما جعل سبحته اثباتاً لتخليف ابنه الجنيد بعده.

وعلى ذكر الأختام نقول إن المهدي كان يضع في اصبعه خاتماً من الفضة لم يكن عليه نقش ديواني، وقد وجدته يوماً في إصبع المرحوم محمد السيد بن الخليفة عبد الله، وقد جاءت مناسبة فض هذا السر إليَّ عندما استدل به على أن حجم المهدي كان قريباً إلى حجمه، وذلك بدليل أن خاتمه هذا - أي خاتم المهدي - يناسب صباعه. وقد أثارني هذا الأمر فقلت له: لو كانت لي سلطة لصادرت منك هذا الخاتم ووضعته في المتحف القومي في صندوق خاص مؤمن عليه، إذ لا ينبغي أن يكون مثل هذا الخاتم إلا في متحف. فقال لي: لو كنت أنت صاحب السلطة وبهذه العناية لأعطيتك الخاتم لما أردت بطوعي وأنا سعيد. وعلى ما أظن فإن خاتم

---

(١) ناختقال، ص ٢٩٠.

المهدي قد جاءه من أمه لأنها بنت المهدي. ولما توفي محمد السيد اختفى الخاتم، فيما بلغني، مرة أخرى ولا بد أنه سيظهر في دورة تالية، وعسى أن نكون عندها أكثر حرصاً وحدباً فنضعه في المتحف القومي. ويورد نعوم شقير خبر هذا الخاتم في تاريخه فيقول إنه كان من الفضة وله فص من عقيق أحمر مستدير، وأن الخليفة عبد الله استولى عليه بعد وفاة المهدي وجعله في بنصر يده اليمنى. ثم ذكر أن الخليفة طلب سيف المهدي ولم يجده لأن نساء المهدي أخفينه ثم أعطينه إلى الخليفة شريف زاعمين أنه السيد الذي يكون النصر فيه وإن ذلك كان من أهم أسباب الضغائن بينه وبين الأشراف. وكما تعلم فإن السيد محمد السيد الذي ذكرناه هو ابن الخليفة وأمه هي بنت المهدي وتساعد المناسبتان على وصول الخاتم إليه.

وأقول: إن كثيراً من تراث المهدية بأيدي الناس، خصوصاً أنصاره، وهم - عن حق - حريصون عليه وضنينون به على غيرهم. ولكن تراث المهدية تراث قومي وأصبح لكل السودان، ولا بد أن يدفعنا الوعي القومي إلى جمع هذا التراث وإيداعه في المتحف القومي.

وقد كان لنا مع إخوة آخرين من جامعي الآثار والوثائق جهد نحسبه كان مهما. فقد جمعنا بعد حادث ود نوباوي والجزيرة أبا في أوائل العهد المايوي تراثاً كثيراً يخص السيد عبد الرحمن المهدي وابنيه الصديق والهادي من قصره بالجزيرة أبا وبعض الدور في الخرطوم، وكان من ضمن ذلك متحف خاص بقصره بالجزيرة ابا جمع فيه تحفاً كثيرة وثمينة وأتى لها بالفنيين فرتبوها ونظموها وجعلوا لها بطاقات وإرشادات. وقد بقي المتحف على حاله إلى أيام الهادي الذي جعل في مكانه بعض الدواوين ونقل المقتنيات إلى مخزن - وقد فعل حسنا، فإنه بذلك أبعدها عن العبث. ولما ذهبنا إلى الجزيرة لننقل وثائق السيد عبد الرحمن وننظر في مقتنياته وجدنا هذا المتحف بكامله محفوظاً في المخزن إياه. وقد نقلنا كل هذه المقتنيات وتراث السيد عبد الرحمن وابنيه مما يستحق أن يعرض في متحف إلى الخرطوم وحفظناها في بيت الإمام المهدي تحت عهدة مصلحة الآثار. وكان الظن بنا أن نجعل في متحف السودان جناحاً خاصاً بالسيد عبد الرحمن تكون به هذه التحف وما يجمع من بعد. ولكن كل هذا الجهد وكل النوايا الطيبة ذهبت أدراج الرياح،

لأن غيرنا كان ينظر إلى الأمر بأسلوب مختلف ويعتبر هذه المقتنيات مغصوبة منهم أو هو وجدها فرصة سانحة للحصول عليها، إذ ما إن جاءت أيام المصالحة بين مايو والمعارضة إلا وقام بعض الأنصار في تصرف أهوج بفتح أبواب البيت عنوة وأخذ هذه المقتنيات فتفرقت وضاعت وتبخر ما كنا نأمل فيه.

ومثل هذا وقع للنصب التذكاري الجميل الذي شيد بمال الشعب السوداني بالرخام الفاخر واللوحات النحاسية الثمينة التي كانت تصور أهم وقائع المهدية. لقد بذل في هذا النصب جهد كبير وبذل فيه مال كثير، وتوخى المخططون له الدقة في الجمال والضبط في المعلومة التاريخية والحرص على أن يكون معبراً عن المهدية. ومثل هذا النصب لا يشيد بسهولة، وهو يرمز لأمجاد المهدية لا لمجد من شيده، ويقوم في أعز مكان في المدينة ـ مدينة المهدي وخليفته. ولا يطعن في ذلك بأنه مسجد، لأنه ليس معموراً ولا تقام فيه الصلاة، وليس في النصب ما يدنس. وقد رأيت في داخل المسجد نفسه ملاصقاً لبيت الخليفة بيوتاً عشوائية يسكنها بعض الناس ويؤدون فيه بالطبع ضرورات الحياة ولم يعترض على هذا أحد، ولا شك أن بناء النصب خير من ذلك. وإنما العيب المعيب أن يكون النصب بحاله، لا هو قد أزيل ولا هو قد أبقي عليه. وقد تحسرت على اللوحات الجميلة المصنوعة من النحاس والتي مجدت انتصارات المهدية وأنفق في إعدادها جهد كبير.

ولنقل بعد ذلك: إنا نعترض على إزالة السور التاريخي وتجديده، وقد أبقي، استجابة لاعتراضات جهات كثيرة، على طرف منه، ونعترض على تحويل المسجد إلى حديقة ـ بل وكنا معترضين على إقامة النصب في مكانه ومقترحين أن يكون بشرق بوابة عبد القيوم، وأن يضاف إليه نصبان للعالم الجليل الحسين إبراهيم زهرا والأمير الزاكي طمل المدفونان بنفس المكان ويمثلان جانبي القلم والسيف في المهدية في مجديهما ولكن اقتراحنا لم يؤخذ به. وحيث قد تم بناؤه في طرف من المسجد، وهو غير معمور كما قلنا، فلم يكن هناك ضير يدفع إلى الاعتداء عليه، اللهم إلا الغضب على أفعال مايو، والغضب لا يمثل العقل دائما.

إننـا نقدر المشـاعـر التي أدت إلى هـذا التصـرف ولا نجـرمهـا، ولكن بصفتنـا مختصين بالتـراث نشعر بـالأسى كلما تـذكـرنـا هـذه المقتنيـات التي ضاعت إلى الأبد وهذا النصب الذي تحطم جزء منـه: فلا نحن أبقينـاه حيث شاء مشيده، ولا أزلناه كما أردنا، ولا حولناه إلى مكان آخر.

١٨ ـ السكـة

سارت تجارة السـودان على التبادل السلعي، واعتمـدت أثواب الـدمور في المدن أساساً للتعامل إلى حد بعيد. أما العملات المعدنية فقد عرفت في المدن التجارية الكبيرة مثل بربر وشندي وسنار في شكل محدود، وكانت كلها عملات أجنبية أهم ما يهم السودانيين منها كمية الـذهب والفضة التي تعـوض قيمتها. وأقوى العمـلات سريـاناً وقـوة كان الـريال الاسبـاني ماريـا ثريسـا ثم الريال المجيدي. وكانت هناك عملات معدنية مثـل المحلق والأشرفيـة. ولما جاء العهد التـركي المصري انتشـرت العملات التـركية تبعـا للنظام المصـري ونتيجة لتطور التجـارة وتوسعهـا. ويمكننا أن نتصـور عدد العمـلات المعدنيـة وأنواعها في هذا العهد من القـائمة التي وضعهـا المهدي لهـا في منشور عـام معتمداً صيرورتها ومبيناً قيمتها قياساً على الريـال المجيدي تنـظيماً للعمليـات التجـارية في الأسـواق. وفي العهد المصـري التـركي لم يتم سـك أي عملة معدنية في السودان.

وأول عملة صدرت في تاريـخ السودان هي أوراق البـون التي أصدرهـا غردون أثناء حصار الخرطوم عندما شحت العملات في خزينة الخرطوم، وقـد حدد صيرورتها بوقت معلوم تلتزم خزينة الدولة المصرية بعده بصـرف قيمتها. وكانت في فئات مختلفة وبختمه وإمضائه. ومن الـطريف أن بعضهم زوّر هذه العملة بـوسم نقشـه في قـرع وطبعهـا ولكن تم ضبط المـزورين وأوقف هـذا التعدي. وفي أول الأمر قوبلت هذه العملة بـالرفض من قبـل التجـار وسـائـر المتعاملين لأنهم لم يروا من قبل عملة ورقية، وقد سبق أن قلنا إن السودانيين كـانوا يعتمـدون العملة بقدر مـا فيها من ذهب أو فضـة، فكيف لهم أن يقبلوا الورق! ولكنهم في نهايـة الأمر أجبـروا بأمـر الحكومـة وتحت ضغط الظروف

على قبولها. ولم يشهد السودان عملة ورقية بعد بونات غردون إلا عندما جاءت العملات الورقية المصرية في العهد الثنائي.

وأول عملة معدنية سكت في السودان هي التي أصدرها المهدي بعد سقوط الخرطوم، بل إن المهدي أول حاكم يسك عملة باسمه في وادي النيل لأن المصريين إلى ذلك الوقت كانوا يصدرون عملاتهم باسم السلطان العثماني. ولتكملة الصورة نقول إن السودان عرف في عهد السلطنات الإسلامية والعهد التركي قطعاً من الحديد وعملات أجنبية صغيرة كانت تستعمل للتبادل. ففي دارفور استعمل الناس الفوراوية والدمج وفي كردفان استعملوا الكردفانية والجرقندي والكباشي. وعرفت في سلطنة الفونج عملة معدنية تسمى أشرفية، وقد سبق ذكرها، وأخرى تسمى المحلق، والمهلق في اللغة التبداوية ـ لغة البجة ـ هو النقود، وكما ترى فإن اللفظ محرف من محلق على لسانهم. ويبدو من ذلك أن هذه العملة كانت منتشرة هناك.

وعملات المهدي كانت ثلاث قطع: القطعة الأولى الجنيه، وهو من الذهب الخالص وكان شكله شبيهاً بشكل الجنيه ا لمجيدي طبق الأصل، وحتى في تاريخ الإصدار. وربما تطابق الشكل حتى تقبل العملة من غير تردد. وهذا شبيه بما فعل عبد الملك بن مروان، فإنه عندما أصدر عملته، وهي العملة العربية الأولى، إذا استثنينا العملة النحاسية التي سكها الحجاج بن يوسف، قد جعلها شبيهة طبق الأصل بالدينار الرومي، بل وجعل عليها صورته كما يفعل الروم، وذلك زيادة في تطمين المتعاملين. ومع ذلك فإن مطابقة جنيه المهدي للجنيه التركي أمر غريب، لأن المهدي منع التشبه بالترك وشدد في ذلك حتى في الخط، فكيف به يحاكي عملة الترك. وإذا كان المهدي أبدى كل حرص عند نقش أختامه حتى تجيء وفق اتجاهه، فكيف التجاوز هنا والتفريط إلى حد التاريخ ومكان الضرب! لعلنا نقول إن المهدي لم يشر بما ينقش على عملته وترك تفصيل إخراج العملة من نقش وغيره للأعوان الذين عهد به إليهم تحت إشراف أمين بيت المال ولم يقف على نقشها حتى صدرت العملة فعلا. وهذا يؤيده الخبر الذي يقول بأن المهدي غضب عندما رأى عملته شبيهة بعملة الترك، إلا أن هذا خبر غير موثوق به كما أن الرأي حول عدم وقوف المهدي على العملة قبل صدورها

مجرد اجتهاد منا. وإنما جعل المهدي عملته ذهباً خالصاً لاعتبارات لنقاء التي يلتزم بها وحتى لا يغش المتعاملين بعملة دون سعرها. وكان ذهبه من عيار ٢٣ مع أن الجنيه المجيدي كان من عيار ٢١، ولذلك صهره الناس واحتفظوا به ذهباً أو هربوه لأن العملة جاءت أعلى من قيمتها.

والقطعة الثانية ريال الفضة فئة عشرين قرشا، وكانت من الفضة وقليل من النحاس. وقد جاءت في وجه طغرائه عبارة: «بأمر المهدي» وفي الوجه التالي: «ضرب في الهجرة ١٣٠٢»، وفوق هذه العبارة الرقم ٨٥ والرقم ١٣٠٢ هو تاريخ السنة باعتبار تاريخ الصدور، والرقم خمسة يشير إلى عمر المهدية في ذلك الوقت، أي أن العملة صدرت في السنة الخامسة للمهدية، ومثل هذا التقويم مأخوذ به في أنظمة بعض الدول. ولفظ الهجرة يعني به أم درمان عاصمة المهدية، وسميت دار الهجرة لأن المهدي عسكر فيها ليتجه منها إلى الجهاد شمالاً إلى مصر ثم استقر الناس فصارت عاصمة المهدية.

والقطعة الثالثة الريال فئة العشرة قروش، وهي من الفضة وقليل من النحاس، وجاء في طغرائها عبارة: «محمد المهدي»، وفي الطرف الثاني «ضرب في الهجرة ١٣٠٢».

وقد استغل المهدي في ضرب نقوده كميات الذهب والفضة التي غنمها من الأبيض والخرطوم وغيرهما من المدن، وقد أتى بالصاغة وأوكل إليهم أمر السك وجعلهم تحت إمرة أمين بيت المال.

ويقول نعوم شقير عن عملة المهدي: «وكثر ما غنمه المهدي من مصوغات الذهب والفضة من الأبيض والخرطوم وقلت النقود في أيدي الناس فأراد أن يسد هذه الحاجة ويبين للملأ استقلاله عن الدول وتأسيسه مملكة جديدة بعملة جديدة فجمع الصاغة وأمرهم بسك النقود فأنشأوا ضربخانة في بيت المال وضربوا من الذهب جنيهاً قلدوا به الجنيه المصري، فهو على مثاله بطغرائه وتاريخه وقطعه وثخنه، عملوه من ذهب خالص ولكنهم جعلوا وزنه أقل من وزن الجنيه المصري بحبتين، وضربوا من الفضة ريالا بقطع الريال المجيدي ووزنه فجعلوه سبعة دراهم فضة ودرهم نحاس. وقد كتبوا على وجهه الواحد «ضرب في الهجرة سنة ١٣٠٢ هـ»، وعلى الوجه الثاني «بأمر

المهـدي» بهيئة طغـراء وضربـوا منه نصفـاً وربعاً. وكـان بدء هـذا العمل في جمادى الأولى سنة ١٣٠٢ هـ/ فبراير ١٨٨٥م»[١].

وفي عهد الخليفة صدرت عملات كثيرة ظلت نسبة الفضة فيها تنخفض مـع مرور الـزمن، وقد أطلق عليهـا أسمـاء كثيـرة مثـل أبـو صـدر وأبـو كبس ومقبول. وفي حالات اضطر الخليفة إلى فـرض عملته لمـا توقف النـاس عن قبـولها لانخفـاض قيمتها. وقيـل في ذلك إنـه وجد يـومـاً ورقـة في المسجـد مكتـوب فيها: يـا غبي يا بليـد أتصنع عملة من حـديـد. ولكنـا نستبعـد هـذه الـرواية وإن كنـا نعتقد أن روايتهـا تـدل على جـو الاعتـراض على العمـلات منخفضة القيمة.

ويقـول نعوم شقيـر في عملة الخليفـة: «واستمـر الخليفـة على ضـرب النقـود كسيده المهـدي ولكنه لم يضـرب شيئاً من الـذهب بل ضـرب الريـال وأجزاءه من الفضة والنحاس. وأول ريال أصدره في أيام ود عدلان كتب على وجهه الواحد «ضرب في أم درمان سنة ١٣٠٤» وعلى الوجه الآخـر «مقبول»، فكان كالـريال المجيـدي بقطعـه ووزنه وقيمتـه، أي سبع دراهم فضـة ودرهم نحاس، وهو الـريال الـوحيد الخـالي من الغش. ففي أيام النـور الجريفـاوي أصدر ريالا سمي «أبو صدر» فجعله ٤ دراهم فضة و٤ دراهم نحاس. وهكذا أخـذ ينقص من قيمته تـدريجياً حتى صيـره في سنة ١٣١٢ سبعـة دراهم كلها نحاس وليس فيه من الفضة إلا الطلاء، فأطلق عليه التجار اسم «بزاجـوري»، قيل أرادوا به «بداجوره». وقد رفعوا أسعـار الأشياء بـالنسبة إلى نقص الـريال ليحفـظوا قيمتها الحقيقيـة. وقلد البعض عملة الخليفة فعـاقبهم بقطع أيـديهم وأرجلهم من خلال. وراج في أيامه الريال المجيدي والريال أبـو طيره والليـرة الإنكليزية»[٢].

وفي العهـد الثنائي تعـامل السـودان بـالعمـلات المـصريـة المعـدنيـة والورقية وبـالشلن الإنجليزي ونصفـه. وسمى السودانيـون العملة فئة العشـرة قروش ريالاً وفئة العشرين ريالاً كبيراً والشلن شلنـاً ونصف الشلن فرنـك، مع

---

(١) نعوم شقير، ص ٥٩٨ ـ ٥٩٩.

(٢) نفسه، ص ٩١٣ ـ ٩١٤.

أن الفرنك ليس عملة الإنجليز. والريال في مصر وحلفا كان فئة العشرين وفئة العشرة كانت تسمى نصف ريال.

وفي العهد الوطني سكت العملات الأولى في الخارج ثم أسس مصنع سك العملة لسك القطع المعدنية والأوسمة والنياشين وما إليها.

١٩ ـ الألوان والرايات

يعنى الناس باللون للتمييز بين الأشياء وإدراكها ولما توحيه من مشاعر الحزن والفرح والغضب والانشراح والتشاؤم والتفاؤل. وما يرى الإنسان لوناً على شيء سواء كان شجراً أو حائطاً أو قماشاً أو معدنا أو بشراً إلا ويستجيب له بما يوحي به إليه ذلك اللون. وقد تفاضل الناس فيما بينهم أو انقسموا لأنهم سود وبيض وصفر. وللجاحظ رسالة في فضل السود على البيض مشهورة، وقيل إن الجاحظ مال إلى السود وتعصب لهم لأنه كان في دمه قدر من السود. وقيل في هذا المعنى:

وفي السمر معنى لو تأملت حسنه لما عشقت عيناك بيضاً ولا حمرا
أحب لأجلها السودان حتى أحب لأجلها سود الكلاب

وكان العرب يحكمون على الناس بألوانهم من بياض الوجوه وسوادها وكحيل العيون وزرقتها. وزرقة العيون عند العرب علامة القبح والغدر وأحياناً على الحسد. ولون العرب كان الأحمر وليس الأبيض. وأشير إلى السيدة عائشة زوجة الرسول في حديث شريف بالحميراء لأنها كانت حمراء وكان لون النبي أبيض مشرباً بحمرة. والبيض هم الفرس، والعرب حمر. وكان في العرب السمر ـ بخلاف الزنج ـ ولم يكن ذلك بقادح، وقد افتخر بعض أشرافهم، وهو الفضل بن العباس بن عبد المطلب ـ بلونه الأسمر:

وأنا الأخضر من يعرفني أخضر الجلدة من بيت العرب
من يساجلني يساجل ماجدا يملأ الدلو إلى عقد الركب

ولكن اللون أحياناً لا يدل على المخبر، وقد يضلل إذا لم تكن ممحصا. قيل في ذلك: ما كل أسمر مسكاً ولا كل أحمر ياقوتاً ولا كل أسود زبادا، أي لا تأخذ الأمور بظواهرها لأن الظواهر تخدع ولأن المهم هو

المخبر. فلو وجدت شيئاً بلون أحمر فلا تحسبنّه ياقوتاً ولا تحسبنه ثميناً لأنه في لون الياقوت، وإذا وجدت شيئاً أسود فلا تحسبنه مع الزباد.

واللون الأبيض لون الطهر، والأسود لون الحزن، والأحمر لون الغضب، والأخضر لون الخير. وفي اللهجة السودانية يعبر بالأخضر عن الأسمر وبالأزرق عن ا لأسود كراهة للأسمر والأسود وتشاؤما منهما.

وكان سلطان الفور إذا غضب على شخص ونوى قتله ألبسه كسوة حمراء[1]. وإذا غضب سلطان الفور لبس الثياب السود وتطيلس بكشمير أحمر[2]. وملك التنجور تعمم بعمامة سوداء حزناً علي مملكته التي ضاعت[3]. وكان سلطان الفور يضع على أعلى بيته قماشاً أحمر وأبيض لتمييزه عن بيوت غيره[4]. والشجرة الخضراء في دارفور يكنى بها ظل العلماء[5]. ولون الثورين والعجل المعد للذبح في احتفال تجليد نحاس السلطان في دارفور لا بد أن يكون الأسمر، وإذا لم يتوفر فللضرورة يقبل لون قريب. وإذا رفع أحدهم قماشاً أبيض فمعنى ذلك جنوحه إلى السلم وقبوله التسليم. وعلى مقابر الأولياء وأماكن ظهورهم توضع الأعلام البيضاء. وتلبس النساء السواد للحزن. وإذا رفع العلم الأبيض في الأنداية فمعنى ذلك وجود المريسة، وإذا أزيل فمعنى ذلك عدم وجودها. وكذلك كانت تفعل العرب في الجاهلية. ويتفاءل الناس بلون اللبن ويحبون الاصباح به. وحصان سلطان الفور أبيض اللون. هذه أمثلة أوردناها بغير ترتيب لنبين بها مدى اتخاذنا للألوان لنرمز بها إلى المعاني.

وقد نقل الناس هذه المشاعر نحو الألوان ليرمزوا بها إلى المعاني والمواقف، ولذلك تكثر الألوان في الأعلام والرايات، لأن كل لون يرمز إلى شيء من المعتقدات أو الاتجاهات.

---

(١) التونسي، ص ٢٢.
(٢) نفسه، ص ٩١.
(٣) نفسه، ص ١٣٨.
(٤) نفسه، ص ٢٠٤.
(٥) نفسه، ص ٢٤٢.

فـاللون الأحمر، لـون الدم، رمـز للغضب وللثورة. وهكـذا تجـده في أعلام الدول الآن. قيل وكان هذا اللون شارة القرامطة، وهم طـائفة إسـلامية خارجة على الدولة ولهم معتقدات ينكرها الآخرون عليهم. وقيـل في ذلك إن القـرمط من القـرمـز، وهـو الأحمـر، وإن هـذا سبب تسميتهم ولكن الـرأي المعتمد في ذلك بخلاف هذا الـرأي. والأرجح أن لـونهم كان الأبيض. وفي عهد الرسول رفعت الرايات بألوان مختلفة دون تخصيص، وكان لواء الـرسول عليه الصلاة والسلام عندمـا دخل مكـة يوم فتحهـا الأبيض، وكان على رأسـه عمامة سوداء، ولم يكن سائر لبسه يومئذ السواد. ولـم يلبس النبي السواد راتبا ولا كان شعاره في المواسم وإنما اتفق لبسـه يوم الفتـح، وسائـر أصحابـه لم يكونوا بهذا اللون. والعباسيون انفردوا باللون الأسود في لبسهم وراياتهم كناية عن حـزنهم على شهداء بني هـاشم، ولم يكن ذلك استنـانا بعمـامة الـرسول السوداء فيما تقول بعض المصادر. وقد سموا لـذلك بـالمسودة. واستمـر هذا اللون شعاراً للعباسيين حتى رجـع عنه المـأمون واتخـذ اللون الأخضر وجعـل رايتـه خضراء. ولمـا انشق العلويون عن العبـاسيين وشقوا طـريق المعـارضـة اتخذوا اللون الأبيض ـ وهو عكس الأسود على النقيض. وجعلوه في راياتهم. وهكذا اتخذت الفرق الإسلامية الألوان للرمز على المواقف. وللمستشرق آدم متز وقفة طيبة حول الألوان عند الطوائف ودول الإسلام في فصل سماه «رسوم دار الخلافة» في كتـابه «الحضـارة الإسلاميـة في القرن الـرابع»، وننصـح من يريد الزيادة بالعودة إليه.

ولما جاءت الطرق الصوفية اتخذت الألوان في شاراتها، وهي قد تتعدد في راية للدلالة على جذور الطريقة التي ترفعها ونسبتها إلى الـطرق التي تدل عليها الألوان . هذه الألوان توضع في الراية وفي العمة وفي الخرقة.

بل رمز الصوفية إلى المعانى باللون، ومن ذلـك قول المهـدي: «لأهل الله في طريقهم أربعة موتات: أولها الموت الأبيض وهو الجوع وأعني بـذلك جوع العادة، والثاني الموت الأخضر وهو لباس المرقعات زهداً للمشتهـرات. كان لعمر بن الخطاب ثوب فيه ثلاثة عشر رقعة إحداهن قطعة جلد وهو حينئذ أمير المؤمنين. والثالث موت أسود وهو أذى الخلق. والرابـع موت أحمـر وهو

مخالفة النفس في شهوة أغراضها»[1]. وقد سبق أن أوردنا هذا النص في مكان آخر. ومنه استشهاد المهدي بألوان أطراف جسم الإنسان كالشفتين والأظافر ليدل على ثبات الألوان للدلالة على المعاني.

وقد اتخذ الأقطاب الأربعة، وإليهم ترجع الطرق الصوفية الرئيسية الأربعة في الإسلام، أربعة ألوان، كل قطب لوناً، وصار اللون المحدد شعاراً لطريقة القطب. ومن ثم صار اللون مميزاً للطريقة ووضع في الرايات إما بأن يكون في أرضيتها من اللون المحدد أو بأن تثبت قطعة القماش بهذا اللون في أعلى الراية، وعلى ما يلبسه شيخ الحضرة وأصحاب الرتب سواء كان اللون على اللباس نفسه أو على الخرق التي عليه وعلى الشدة والعمامة. وقد جاءت الطرق وألوانها على النحو التالي:

اللون الأخضر	لون عبد القادر الجيلاني	ومن ثم لون الطريقة الجيلانية
اللون الأحمر	لون أحمد البدوي	ومن ثم لون الطريقة الأحمدية البدوية
اللون الأسود	لون أحمد الرقاعي	ومن ثم لون الطريقة الرفاعية
اللون الأصفر	لون إبراهيم الدسوقي	ومن ثم لون الطريقة الدسوقية

وقد جمعت بعض الطرق الحالية ألواناً متعددة، وذلك علامة للجذور التي أخذت منها الطريقة. فالطريقة البرهامية الدسوقية الشاذلية جمعت بين الأبيض والأصفر. والطريقة الختمية جمعت أربعة ألوان هي الأحمر والأسود والأبيض والأخضر. ويمكنك بذلك رد أصول هذه الطريقة والتي يرمز لها بنقشجم، أي النقشبندية والقادرية والشاذلية والجنيدية والميرغنية، إلى الأقطاب بحسب ألوانهم.

ويكتب أهل الطرق في هذه الرايات شعارات عامة وخاصة. أما ما هو عام بينهم جميعاً فمثل الشهادة، أما ما هو خاص فاسم القطب والعبارة الخاصة. ومثل ذلك عبارة: «لا إله إلا الله، الأمان الأمان، محمد رسول الله، السلطان السلطان» التي ترد على رايات الختمية. وقد اختلف الناس حول أصل العبارة على الراية، فبعض قال إن الختم هو الذي وضعها، وبعض قال بأن الحسن هو الذي وضعها.

---

(١) مجلس المهدي، رقم ٢/ د/ ٣ بدار الوثائق القومية، ص ١٢ ـ ١٣.

وهم يرفعون هذه الرايات في المناسبات الدينية كالأعياد والأيام الخاصة في شهور معينة ومولد النبي والحوليات وفي المسيرات. وبيارق الختمية ترفع في الحضرات الكبيرة وليلة المعراج والمولد، أما في الحضرات التي تعقد في البيوت والزوايا فلا ترفع. وتوجد في كل قرية في مناطق الختمية عدد من البيارق لترفع في المناسبات، وهي مختلفة الأحجام.

ومن رايات الصوفية التي ذكرها الطبقات رايات عبد الله الحلنقي، قال: وقدم من التاكة إلى أبو حراز لزيارة شيخه ويعزي الشيخ في أبيه حمد تجنب في وجهه من الخيل سبع جنائب وشايلين قدامه سبع رايات وسبع سيوف متومات[1]. وفي خبر هذا الشيخ ورد اسم تلميذ له يسمى أبو رايات، ولعله كان الموكول إليه برفع الرايات وحفظها. كذلك أورد الطبقات خبر راية محمد بن الشيخ الطريفي، قال: ثم طلعت ـ أي محمد الطريفي المتحدث ـ إلى الضهرة أسلم على الشيخ أحمد أخوي بفقراي ورايتي في وجهي، فلما دنينا منه قلت الشيخ أحمد رجل غيور ملصنا الراية وسويناها في جراب فتلقاني خارج الحلة برايته وسلم فوق رأسيّ وقال مرحباً بوصي أبويّ وصنو أبواتي، والله يا أخوي أبواتك حموني القعاد وأمروني بجيتك، فأخذ رايتي سواها في عود رايته شالوهن قدامي[2].

ولعل أشهر الرايات هي راية إدريس ود الأرباب المعروفة بالأجهورية. وقد أورد خبرها الطبقات وأورد محققه الدكتور يوسف فضل حسن تحقيقاً جيداً.

تقول القصة: إن الشيخ إدريس أفتى بحرمة التنباك بينما أفتى آخرون بجوازه، وقد احتكم الطرفان إلى العالم المالكي المشهور بالأزهر الشيخ الأجهوري فأفتى بإباحته، وذلك بعكس ما ذهب إليه الشيخ إدريس، وبالتالي حل عليه غضب الشيخ وأفضى به إلى العمى، فعاد عن فتواه إلى حرمة التنباك توافقاً مع الشيخ إدريس، وإرضاءً له أرسل له التحية وإنه على حق وأهدى له راية وعمامة وشدة وجوخة مع أحد تلاميذه، وهو البري.

---

(١) الطبقات، ص ٢٦٥.

(٢) نفسه، ص ٣٣٧.

هـذه هي القصة، وسـوف نعود إليهـا. وقد سعى محقق الـطبقـات إلى المـزيد فـأورد أن صديقـاً روى في طبعته أن الـراية كـانت موجـودة حتى عام ١٣٤٨ هـ/ ١٩٣٠، ثم استفسر فعلم أن الشدة والجوخة والعمامة قـد أهديت من قبل إدريس نفسه إلى الشيخ صغيرون ولا يعرف أحفاد الشيخ شيئاً عنهـا. ومن عندنا نقول إن بعض وثائق المهدية قد أشارت إلى وجودها في ١٣٠٢ هـ وأن المهدي أصدر مكتـوباً بعـدم التعرض إليهـا. ووردت في الطبقـات واقعة إهداء الشدة والجوخة والعمامة إلى صغيرون وقيل في ذلك هدية عالم لعالم. وكان صغيرون ممن يدعمون الشيخ إدريس.

وقـد أورد المحقق وصف الرايـة فقال إنهـا مكونـة من جـزئين: الجـزء الأعلى، وقد نقش على وجه منه «هديـة من الشيخ الأجهـوري سنة ٩٧٦ هـ» وفي الوجه الآخر «وقف الشيخ إدريس محمد الأرباب نصر من عند الله وفتـح قريب». وهذا الجزء يسمى الأجهورية ويبدو في نظر المحقق أقدم من الجـزء الأدنى. وهو مصنوع من الفضة، وقد أوشك أن ينفصل عن الجزء الأدنى لولا أن تداركته يد مرمم.

الجـزء الأدنى: وهو عبـارة عن بيرق أو قـطعة قمـاش كلما تبلى تجـدد ويعاد نسج الكتابة، وقد سطر عليها:

لا إلّه إلا الله الأمان الأمان

محمد رسول الله السلطان السلطان

لا إلّه إلا الله محمد رسول الله

الشيخ إدريس بن الأرباب ولي الله

وقـد لاحظ المحقق، وهـو محق، أن السـطرين الأولين أقـرب إلى مقـولات الختمية التي صـار حفدة الشيـخ إدريس من أتبـاعهـا. وقـد سبق أن وقفنا على هذه العبارة عندمـا نظرنـا فيما يكتبـه الختمية في بـوارقهم. أي أن هـذا الطرف جـديد ويحمـل عبـارات ختميـة وعبـارة تشيـر إلى ولايـة الشيـخ إدريس، وقد ألصق إلى الراية الأجهورية.

والـراية الأجهـورية مؤرخـة في ٩٨١ هـ في الخبر الـذي أورده المحقق بينمـا هي مؤرخة في الـراية نفسهـا في ٩٧٦، أي بفرق خمس سنـوات. ولا

ندري سبباً لهذا الاختلاف. وقد توفي الشيخ الأجهوري في ١٥٦٠ م/ ٦٧ - ٩٦٨ هـ - فتأمل!

وقد جاء في تاريخ الأجهوري أنه عمي بسبب اعتداء طالب مغربي عليه، ولم نستطع أن نحدد تاريخ الاعتداء وابتلاء الأجهوري بالعمى. ومثل هذا التحديد مهم لضبط الحادث الذي ترويه مصادر ود الأرباب. ولنا أن نتساءل: إذا كان الأجهوري وغيره يدرك أن سبب ابتلائه هو اعتداء الطالب فكيف استقر الشيخ إلى أن السبب هو فتواه وغضب إدريس عليه، وهل كان الأجهوري من الجهل إلى هذه الدرجة. وكيف عرف الأجهوري أن إدريس غاضب عليه، وهل كان الأجهوري من الجهل إلى هذه الدرجة. وكيف عرف الأجهوري أن إدريس غاضب عليه، وكيف يؤمن أن شخصاً في نواحي الخرطوم يستطيع أن يضر شخصاً في القاهرة. وهل نحن أيضاً نصدق مثل هذا وأن الشيخ إدريس استطاع أن يبلغ بغضبه إلى القاهرة وأضر بالعالم الأزهري. ولماذا يغضب الشيخ ويبلغ الغضب به إلى هذا الحد. لقد أفتوا الأجهوري في أمر وهم على قناعة بعلمه، ومعنى ذلك قبول ما يفتي به، فلماذا الغضب إذا أفتى بما بلغ اجتهاده. ثم أما كان الأجدي أن يكون سر الشيخ إدريس في إقناع مخالفيه أو ردعهم بدلاً من أن يكون حرباً على عالم بعيد عنه. وكيف لنا أن نتصور أن عالماً في قدر الأجهوري ينقلب عن فتوى أصدرها ويصدر فتوى أخرى لخوفه من غضب شيخ ثم يطلب منه العفو. وهناك سؤال مهم، وهو: هل كان الأجهوري ذا مشرب صوفي ويقبل مزاعم الصوفية الدراويش!

إن غاية ما ننتهي إليه هو أن الأمر في شقين: شق يخص الخلاف بين علماء السودان وأوليائه حول حرمة التنباك وجوازه، وقد أفتى الأجهوري بالجواز على خلاف ما أفتى به الشيخ إدريس. والأمر الثاني إهداء الراية. وفي تقديرنا أن الرواة ربطوا بين الشقين مع أنهما أمران متباعدان. وفي رأينا أنه: إما أن علاقة ما من الود كانت قائمة بين الأجهوري والشيخ إدريس بما أدى إلى هذه الهدية، وإما أن التلميذ قد اختلق الأمر كله بعد أن دبر الراية بنفسه تقرباً إلى الشيخ إدريس.

أما الشدة والجوخة والعمامة فلم نقف على خبرها بعـد أن أهديت إلى الشيخ صغيرون.

ومن طـرائف ما روي عن صـاحب الراية مـا أورده شقيـر عن بـائعـات المـريسة في بلد إدريس ود الأربـاب، قال: من عـادة بـائعـات المـريسـة في العيلفون أن ترفع كل منهن راية فوق منـزلها ـ وتلك عـادة المراسـة كما قلنـا ـ إعلاناً عن بضاعتهن ـ تنادي بـأعلى صوتهـا: يا شيـخ إدريس يا راجـل الغدة والمـدة تلحقنا وتفـزعنا وتبيـع مريستي، فيجتمـع النـاس عنـدهـا فتخـرج من المـريسة مـلء قدر فتسقيهم إيـاها مجـاناً تصـدقاً عن روح الشيـخ إدريس ثم تشرع في بيع الباقي بالثمن.

وكـان المهدي بـاعتبـاره صـوفيـاً يتخـذ الـرايـة وعليهـا اللون الخـاص بالسمانية وهو الأخضر. وكان معتنياً بالرايات. وعندما يخرج بجماعته للطواف على البلدان أو في المـدن كان هـو وجماعتـه يحملون الرايـات ـ كغيرهم من الصوفية ـ ويرددون عبارة: الدايم دايم الله، وما نحـوها من العبـارات المعتبرة عندهم. وعندمـا بلغه أن حـريقاً أتى على بيـوت موسى محمـد الأحمر وأهله كتب إليه يؤاسيه وأرسل إليه قطعة قمـاش ليعد منهـا رايات عـوضاً عن رايـاته التي احتـرقت. وكان مـوسى من أعيان السمـانية، وهـو من قبيلة الجـوامعـة. وكـان على صلة قويـة بالمهـدي فيما يمكن أن يفهم من بـادرة المهدي هـذه ومخاطبته له فيما بعد بما يعني أنه كان ملتزماً بتأييد مهديته عند إعلانهـا، وقد انضم إليـه بالفعـل، وهو الـذي جعله أميراً على الجـوامعة عـوضـاً عن المنـا إسماعيل.

يقـول المهدي في رسـالته: «وقـد بلغنا أن رايـاتكم احتـرقت من جملة الأشياء التي ضاعت في احتراق بيوتكم، عظم الله قدركم وأكثر أجركم وجبـر الله كسركم. وقد أرسلنا لكم من عندنا أعلام رايات فخذوها على نية البـركة، فإنه يخرج من هذه القـطع المرسـولة إليكم عـدة رايات فـأقسموهـا على نحو ثلاثة أو أربعة على حسب ما يوافق واجعلوا باطناً فيها بياضاً أو زراقـاً وكتابتهـا كـذلك. وتكـون المحافـظة على هذه الـرايات على نيـة البركـة والزيـادة عند الله»[1].

(١) الآثار الكاملة رقم ١٤ ص ٧٥.

وكـان للمهدي خمس رايـات كان يـطوف بها، وهي التي أبـرزهـا قبـل واقعـة الجزيـرة أبا وكـانت كلها تحمـل شعار التـوحيد «لا إلّـه إلا الله محمـد رسول الله»، وتحمل راية منها: الجيلاني ولي الله، والرابعـة: أحمد البـدوي ولي الله. وهي تمثل رايات الأقطاب الأربعة التي ذكرناها. أما الراية الخامسة فلم يكن عليها اسم ولي[1]. ولا يذكر مصدرنا ألوان الـرايات ولكن يمكن أن نحتمل أن كل راية كانت بلون القطب المعني.

وقبيل واقعة أبا أحضر المهدي الرايات والدواة وعـوداً من الأراك متفوف الرأس وكتب على الراية الخالية: محمد المهدي خليفة رسول الله، وكتب في أعلى الرايات: يا الله يا حي يا قيوم يا ذا الجلال والإكـرام. وقد تم كـل ذلك في الليل بعد صـلاة التراويـح. وعندئـذ أمر المهـدي بحمل الـرايات وتقـدم الجميع إلى القرية حيث اصطفوا في انتظار القتال[2].

لقـد تحولت رايـات الفقرا إلى سـلاح للقتال. وهـذه هي اللحظة التي تحـولت فيها رايـات المهدي من رايـة صوفيـة إلى راية قتـال وجهاد، وتحـول أتباعه من حيران وفقرا إلى مجاهدين، ورفعها الأنصار في كـل وقائعهم وأبلوا في سبيلهـا كل البـلاء وتسـابقـوا للشهـادة يتمنـونهـا تحتهـا وسجلوا للسـودان وللإسلام أعظم الملاحم والمفاخر في أرض المعركة.

وقد قسم جيش المهدية على أساس هذه الرايات. وكان في الأول ثلاثة فرق. الأولى الراية الزرقاء ـ وأصلها سـوداء وهي راية الـرفاعي ـ وقـد انضوى تحتهـا أبناء الغـرب عمومـاً ويقودهـا خليفة هـو الخليفة عبـد الله بن محمـد. والثـانية الـراية الخضـراء وانضوى تحتهـا عرب دغيم وكنـانة والحسنـات ومن إليهم من عـرب النيـل الأبيض، ويقـودهـا خليفـة هـو الخليفـة علي ود حلو. والراية الثالثة الراية الحمراء وانضوى تحتها أبناء دنقلا وبربر والخرطـوم وسنار والجـلابة، ويقـودها خليفـة هو الخليفـة محمد شـريف. ولا تـظهـر في هـذه المرحلة الراية الرابعـة أي الرايـة الصفراء، كمـا إننا لا نجـد فـي القيـادة من يتولى هذه الراية. ويبدو أن الخلافة الموازية لخلفاء الرسول جـاءت فيما بعـد

---

(١) علي المهدي، جهاد في سبيل الله، بإشراف عبد الله محمد أحمد حسن، ص ١٣.
(٢) نفسه، ص ١٥.

وأن الناس كانـوا يحاربـون تحت الرايـات حسب الترتيب الـذي بينا. وكـانت الراية البيضـاء، وهي راية المهـدي، هي راية القيـادة، ويقودهـا أخوه محمـد عبد الله. ويبدو أن أهل الراية الصفراء كانوا تابعين له. وكان لكل خليفة طبل ـ يعرف أيضاً بالنقارة والنحاس ـ يضرب للتنبيـه للتجمع والعـرضة والحـرب. وعند العرضـة يقف الجيش صفاً واحـداً متجهاً إلى القبلة كـوقوفهم للصـلاة، أولهم الراية الزرقاء وإلى يسارها الرايـة الخضراء، ثم الـراية الحمـراء. وكان المهـدي ـ ومن بعده الخليفـة ـ يمـر عليهم راكبـاً جـواده من أول الصف إلى آخره.

وبعد احتلال الأبيض، وفي إطـار التعديـل الذي تم في نـظم المهديـة أعيد النظر في أمر الرايات. لقد جعل الخلفاء خلفاء للخلفاء الراشدين متسقاً مـع كونـه خليفة رسـول الله. وبالتـالي صار الخليفـة عبد الله خليفـة الصديق ـ أبي بكر الصديق ـ والحلو خليفة الفاروق ـ عمر بن الخطاب ـ والثالث خليفة ذي النـورين ـ عثمان بن عفـان ـ ومحمد شـريف خليفة الكـرار ـ علي بن أبي طالب. وهنا ذهبت الخلافة الثالثة والراية الصفراء لمحمد المهدي السنوسي، ولكنه لم يقبلها. وقد أدى ذلك إلى بعض الاضطراب، لأن المنا كان موعـوداً بهـذه الخلافـة، وهذا مـا أدى إلى قتله. وقد اختفت رايـة القيادة لأن محمـد عبد الله قد قتل في واقعة الجمعة. وبالتالي أصبحت قيادة الجيش تحت إمـرة الخليفة عبد الله، وهو في نفس الوقت خليفة الراية الزرقاء. وقد أضيفت إليه الراية البيضاء تبعاً للقيادة العامـة، والرايـة الصفراء ربمـا حتى يحسم أمرهـا. صـار يعقوب بن محمـد هو أميـر القيادة العـامة وأميـر أمراء الـراية الـزرقـاء، وعبد الرحمن النجومي أمير أمراء الراية الحمراء، وعـدد من الأمراء يمثـل كل منهم قبيلة من قبائل النيل الأبيض تولوا قيادة الراية الخضراء.

وتحت هذه الرايات الكبيرة تم التقسيم إلى وحدات يقود كلاً منها أمير، ثم تحت هؤلاء أمراء، وكل الأمراء برايات. وصار لفظ الراية مـطابقاً لجمـاعة من الأنصار تحت قيادة. وكان بعض الأنصار يسعون إلى الانتقال من راية إلى راية إما نظراً للحظوظ وإما لتبدل العلاقات. وقـد منع المهـدي ذلك، بـاعتبار أن الجيش جيش واحد ويتغذى من ثـدي واحد، ولا يـرجو المـرء الانتقال إلا لطلب الدنيا.

وقد استعمل الأنصار لفظ الراية والبيرق، وجمعوا اللفظ الأخير ببوارق، ولكن الصواب لغوياً البيارق. وعلى ما نظن فإن المهدي نظر في بوارق ابن عربي التي جعلها للمهدي المنتظر وجيوشه المظفرة. وهناك منشورات هامة في تنظيم الجيش والبوارق، منها:

١ ـ منشور إلى أهل البوارق مطلعه: إن في خلق السموات والأرض، وتاريخه ١٧ الحجة ١٣٠٠، وهو في الآثار الكاملة في المجلد الأول رقم ١٤١ بصفحة ٣٩٧ ـ ٣٩٨، وموضوعه: منع استعمال المعازيف والدلاليك والنحاس والنقاقير إلا في الجيش وترك كل ما يؤدي إلى التشبه بالترك كاللباس والبوري والطرنبيطة.

٢ ـ المنشور الذي يصف فيه تنظيم الجيش.

٣ ـ المنشور الذي يمنع فيه الانتقال من راية إلى راية.

٤ ـ المنشور الذي يدعو فيه إلى تصفية الجيش، أي ضبط عدد المحاربين.

ومن الطريف أن رابح فضل الله، والذي انسلخ من جيش سليمان بن الزبير باشا واتجه غرباً وكون دولة في حوص تشاد أعلن تبعيته للمهدية استجابة للدعوة التي أرسلت إليه، وألبس جنده جبة المهدية ولقب نفسه بعامل المهدي في دار كوتي وبلاد الفرتيت وجعل رايته الرئيسية الراية التي أرسلها إليه الخليفة عبد الله، وهي راية سوداء كتبت عليها عبارة «لا إله إلا الله محمد رسول الله» من جانب، وعلى الجانب الآخر عبارة «نصر من الله وفتح قريب»، وكانت بجانبها راية بيضاء عليها مربع أحمر كتب عليها «محمد أحمد المهدي». وتحت هذه رايات حمراء وبيضاء وسوداء هي رايات الفرق العسكرية، أي أن الراية عند رابح هي الفرقة.

وقد تفاوتت الرايات في الحجم. أما في الشكل فإن أرضية الراية اتخذت اللون المحدد بينما جرت الكتابة بالقماش الأبيض، وغطيت أطرافها بقماش من الألوان الحمراء والبيضاء والخضراء. وكانت هناك على ما يبدو رايات بها عبارات مختلفة عما ذكرنا يحملها الأمراء، وذلك بشاهد ما سنرى في رايات متحف بيت الخليفة. وقد عهد إعداد الرايات إلى قسم ببيت المال

بقيادة خياط الرايات، وهو في الحالة التي سوف نراها بعد قليل محمد الإسكندراني. وبالرغم من أن المهدي ألغى كثيراً من شعارات الصوفية بعد إلغاء الطرق الصوفية فإن الرايات، وهي من أهم أدوات الصوفية. قد بقيت. وربما كان السبب في ذلك هو أنها دخلت في تنظيم الجيش وشارات الجهاد، بل وصارت إحدى علامات المهدية.

وفي ١٣٠٥ هـ أصدر الخليفة أمراً ينظم الرايات ببعض التعديل، وإليك نص الأمر:

صورة ما ورد من خليفة المهدي بخصوص كتابة الرايات:

الراية الزرقا: يا الله يا رحمن يا رحيم يا حي يا قيوم يا ذا الجلال والإكرام لا إله إلا الله محمد رسول الله محمد المهدي خليفة رسول الله أحمد الرفاعي ولي الله.

الراية البيضا: يا الله يا رحمن يا رحيم يا حي يا قيوم يا ذا الجلال والإكرام لا إله إلا الله محمد رسول الله محمد المهدي خليفة رسول الله الدسوقي ولي الله.

الراية الحمرا: يا الله يا رحمن يا رحيم يا حي يا قيوم يا ذا الجلال والإكرام لا إله إلا الله محمد رسول الله محمد المهدي خليفة رسول الله البدوي ولي الله.

الراية الخضرا: يا الله يا رحمن يا رحيم يا حي يا قيوم يا ذا الجلال والإكرام لا إله إلا الله محمد رسول الله محمد المهدي خليفة رسول الله الجيلاني ولي الله.

الراية الصفرا: يا الله يا رحمن يا رحيم يا حي يا قيوم يا ذا الجلال والإكرام لا إله إلا الله محمد رسول الله محمد المهدي خليفة رسول الله.

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله الوالي الكريم والصلاة على سيدنا محمد وآله مع التسليم.

وبعد، فمن عبد ربه محمد الإسكندراني خياط الرايات إلى المكرم حمدان أبي عنجه، تولاه الله، آمين.

سيدي، إن خليفة المهدي عليه السلام قد أمر بأن تكون الرايات بهذا الوضع وأن لا يصير تبديل أي راية كانت لونها الأصلي، أعني من عطيت له أولاً راية خضرا أو بيضا فلا يبدلها بلون آخر، ولمعلوميتكم والأجري كأمر السيادة لزم تحريره والسلام. سنة ١٣٠٥.

وبمقتضى هذا التعديل صارت راية المهدي هي الراية الصفراء وراية الدسوقي هي الراية البيضاء بخلاف ما كان عليه الأمر أولاً. ولا ندري الحكمة من وراء هذا التعديل إلا أن يكون متعلقاً بتخلف السنوسي عن قبول الخلافة والراية وما كان من أمر الخلاف بين الخليفة عبد الله والخليفة شريف في هذه الفترة. وكما تعلم فإن بعض قادة الراية البيضاء عندما كانت راية القيادة أصبحوا الآن في راية الخليفة شريف من أمثال عبد الرحمن النجومي.
وقد جرى تعديل في النص، إذ كان الوجه القديم يجري على نحوين:

أولاً:

بسم الله الرحمن الرحيم
لا إله إلا الله محمد رسول الله
محمد المهدي خليفة رسول الله
يا حي يا قيوم يا ذا الجلال والإكرام

ثانياً:

يا رحمن يا رحيم يا حي يا قيوم
يا ذا الجلال والإكرام
لا إله إلا الله محمد رسول الله
محمد المهدي خليفة رسول الله

إن بمتحف بيت الخليفة بأم درمان ثماني رايات مختلفة الشكل ومتفاوتة الحجم. ويبدو أن الذي جمع الرايات في هذا المتحف لم يكن على دراية برايات المهدية وإلا لجعلها مستوفية. وهناك راية بيضاء بقبة الإمام المهدي. وترد صور للرايات في كتاب قليخن: «السودان الإنجليزي المصري»[1]

---

(١) Gieichen, Count A.E.W The Anglo - Egyption Sudan - A Compedium, London, 1905.

وكتاب «سودانا: أهراماته ومعابده»(١) . أما رايات المتحف فهي كالآتي:

١ - راية حجمها ١٤٨ × ١٢٨ سم، وكتابتها:
يا الله يا رحمن يا رحيم يا حي يا قيوم
يا ذا الجلال والإكرام لا إلّه إلا
الله محمد رسول الله محمد المهدي
خليفة رسول الله

٢ - راية حجمها ١٦٤ × ١٣٤ سم، وكتابتها نفس العبارة السابقة ولكن في تسطير جديد، هكذا:

يا الله يا رحمن يا رحيم
يا حي يا قيوم يا ذا الجلال والإكرام
لا إلّه إلا الله محمد رسول الله
محمد المهدي خليفة رسول الله

٣ - راية حجمها ١٦٤ × ١٣٣ سم، وكتابتها مطابقة لكتابة الراية الثانية.

٤ - راية حجمها ١٦٤ × ١٣٢ سم، وكتابتها مطابقة لكتابة الراية الثانية.

٥ - راية حجمها ١٧١ × ١١١ سم، وكتابتها بإضافة البسملة وإلغاء عبارة يا حي يا قيوم. . . والإكرام، وذلك في ثلاثة أسطر:

بسم الله الرحمن الرحيم
لا إلّه إلا الله محمد رسول الله
محمد المهدي خليفة رسول الله

٦ - راية حجمها ١٢٨ × ١١٨ سم، وكتابتها بالبسملة والشهادتين والصلاة على النبي مع إلغاء يا حي يا قيوم. . . والإكرام، وذلك في أربعة أسطر:

---

(١) Our Sudan, its Pyramids and Progress.

بسم الله الرحمن
الرحيم لا إلّه إلا الله
محمد رسول الله صلى
الله عليه وسلم
ولا يرد في هذه الراية اسم المهدي.

٧ - راية في شكل مربع وممتداً في شكل مثلث وكتابتها في خمسة أسطر هكذا:

لا إلاه إلا
الله محمد
أحمد المهدي
خليفة رسول الله
١٢١٦

وها هنا ذكر اسم المهدي بالوجه القديم أي محمد أحمد، وقد كتب الرقم ٣ من تاريخ السنة ١٣١٦ مثلما نكتبه الآن: ٢. ولاحظ أن الشكل مختلف.

٨ - راية محمود ود أحمد، حجمها ١٥٢ × ١٢١ سم، وسمك البرواز ٦,٥ سم ولها وجهان، بالوجه الأول لفظ الجلالة: الله، وفي أسفله مثلثان متقالان، وفي أطرافه دوائر تكون مربعاً.

وكان علي دينار أحد ثوار الفور من أجل إعادة سلطنة الفور وقد أعلن نفسه سلطاناً، إلا أن الأنصار ضيقوا عليه حتى سلم وسلم كل الثوار، وقد أرسل إلى أم درمان وجعله الخليفة عبد الله أحد حراس بابه، وظل على هذا الحال إلى أن كانت واقعة كرري فتسرب مع جماعة من الفور واتجه إلى دارفور، وفي طريقه اجتمع عليه كثيرون فظل يتقوى حتى اقترب إلى الفاشر. وكان رجل من سلالة السلاطين يدعى إبراهيم علي قد أعلن نفسه سلطاناً بتأييد كتشنر وتقلد الأمر إلا أنه تنازل عن السلطنة خوفاً من علي دينار الذي تسلم السلطنة واعترفت به حكومة العهد الثنائي وفق ترتيبات ومقابل مبلغ يدفعه لها.

وقد أعاد السلطان علي دينار عوائد سلاطين الفور، بل كان مغرماً بالشارات والأدوات، فقد اتخذ النحاسات لنفسه وأعطاها لقادة القبائل، ورفع الرايات، وجلس في الديوان، ولبس لبساً خاصاً وجعل لنفسه أختاماً متعددة وبأشكال وأحجام مختلفة، وبلغ ما وقفت عليه منها نحو ١٦ ختماً واتخذ السيف والحراب، وقد ملأ جدران بيته وديوانه بالآيات القرآنية والعبارات وأسماء السلف. وكما سبق أن قلنا فإن حكومة الخرطوم أرسلت إليه حراباً نحاسية فرفع بها أعلامه. وقد استولى الجيش الفاتح على أعلامه، ومنها:

ـ العلم الكبير، وهو شارة محمود الدادنقاوي، وقد غنمه منه موسى مادبو في ١٩١٥ بعد هزيمته. وقد أعاده إلى الفاشر بعد الفتح فوضع في قاعة الطعام بمنزل المدير ـ قصر علي دينار نفسه.

ـ العلم الأخضر وقد أحضر من البرنجية ووضع بالمنزل نفسه.

والنقش على الأعلام من جهة الشمال والجنوب كالآتي:

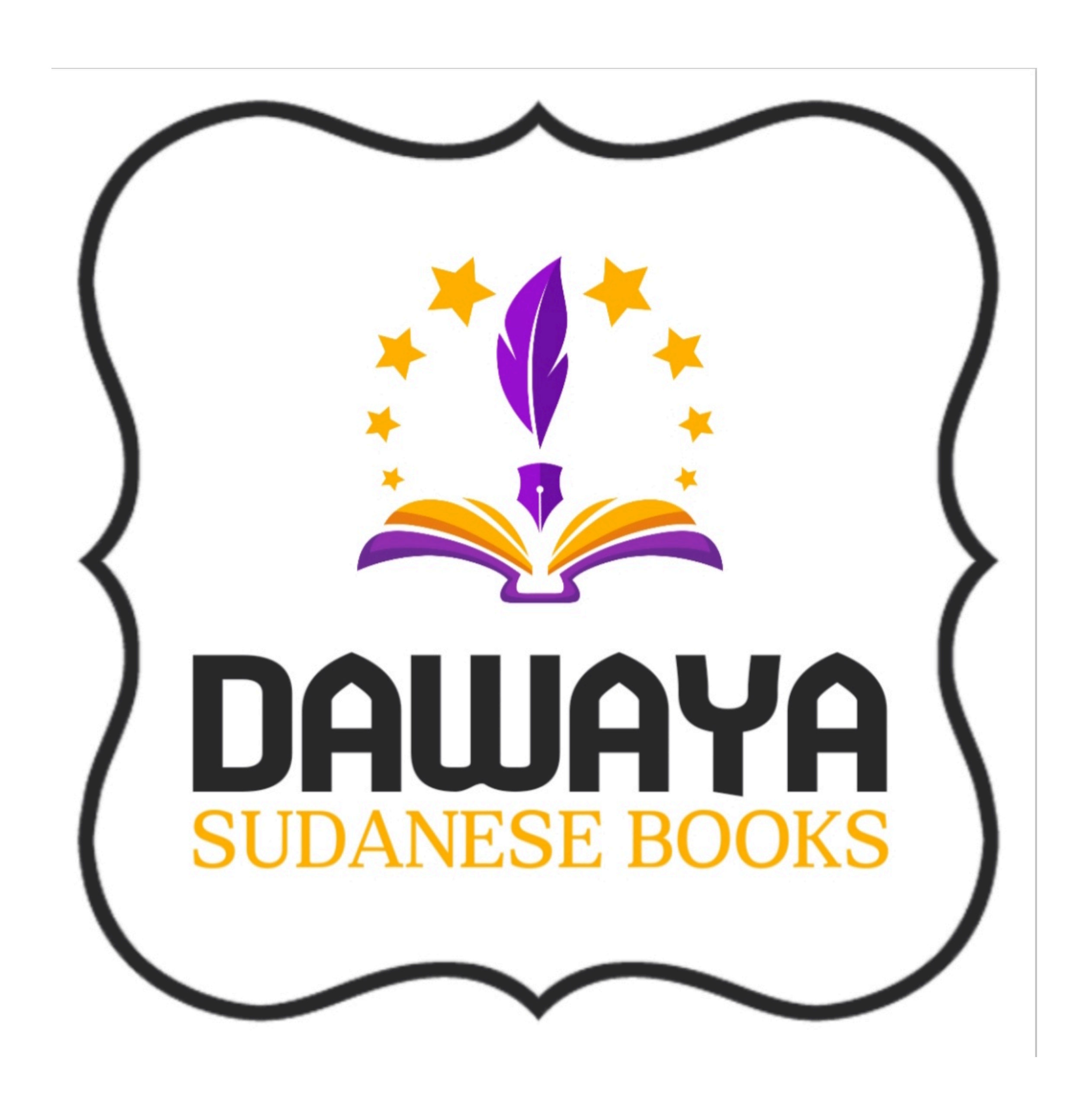
أبو بكر	يا الله يا رحمن يا رحيم يا حي	عمر
حمزة	يا غفور يا ذا الجلال والإكرام	العباس
الحسن	لا إلَه إلا الله محمد رسول الله	الحسين
عثمان	نصر من الله وفتح قريب وبشر المؤمنين يا محمد	علي

ولعلك ترى أنه أخذ من رايات الأنصار مقولات. وقد أغرم السلطان بالنقوش والمقولات ووضع الكثير منها على الجدران. وإننا ننصح القارئ بالعودة إلى مذكرات علي أبو سن لمزيد من التفاصيل.

وقد رفعت حكومة العهد الثنائي علمي مصر وبريطانيا على سارية قصر الحاكم العام ورئاسات المديريات والمراكز وعلى عربات الحاكم العام وممثليه في الأقاليم.

ويوم إعلان الاستقلال توجه أعضاء البرلمان بشقيه وسط أمواج الجماهير وتم إنزال العلمين ورفع علم السودان المستقل على يد رئيس الوزراء وزعيم المعارضة رمزاً للتوافق القومي. وكان الجانبان قد اتفقا من قبل على شكل العلم ذاته. وقد اتخذ السودان في نفس الوقت وحيد القرن شارة للدولة اعتباراً لقوته ولأنه لا يوجد إلا في بلاد قليلة منها السودان. وفي العهد

المايوي استبدل العلم بعلم جديد جاء أجمل شكلاً ووحيد القرن بصقر الجديان والذي أختير ليتفق مع النسر العربي الذي دخل في شارات بعض الدول العربية وليمثل في نفس الوقت ذاتية السودان بالصقر السوداني.


DAWAYA
SUDANESE BOOKS

القسم الرابع

الآلات الايقاعية

الآلات الإيقاعية ذات الرق:

تعددت الآلات الإيقاعية ذات الرق في السودان واستعملت في أغراض مختلفة، وهي قديمة فيه، وجذورها إفريقية في بعضها وأوروبية في بعضها وعربية في أغلبها. وقد رأينا أن نسوق تعريفاً سريعاً لها توطئة للكلام عن النقارة:

الطبل:

ذكره الرائد لجبران مسعود فقال: آلة كالصندوق، جوفاء مستديرة، يشد على كل من وجهيها جلد يضرب عليه بعود أو عودين لإحداث الأصوات. ويتخذ الطبل للهو أو لعزف بعض الألحان العسكرية في السلم وفي الحرب. وقال: جمعه طبول وأطبال.

وقال المعجم الوجيز (طبعة ١٩٨٠): طبل، بالغ في ضرب الطبل، والطبال ضارب الطبل أو الماهر فيه. والطبل آلة يشد عليها الجلد ونحوه ينقر عليه، وتكون في الأغلب ذات وجهين. وقال: جمعه طبول. والطبلة: الطبل واستعملت فيما إذا كان ذا وجه واحد.

وفي المعجم الوسيط: (طبعة ١٩٧٢) طبل طبلاً: ضرب الطبل، طبّل بالغ في الضرب. والطبالة حرفة الطبال. والطبال صاحب الطبل والضارب عليه أو الماهر فيه. والطبل آلة يشد عليها الجلد ونحوه ينقر عليه، وأغلب ما

كانت عندهم بوجهين. وقال: جمعه طبول وأطبال، والطبلة: الطبل، واستعملت فيما إذا كان ذا وجه واحد.

قلنا: وكما ترى فإن المعلومة عن الطبل والطبلة في الرائد والمعجم الوسيط واحدة.

وفي مختار الصحاح لم نجد ما يفيد عن الطبلِ أو النقارة.

وفي محيط المحيط: طبّل الرجل يطبّل طبلاً ضرب الطبل. الطبل الذي يضرب ويكون ذا وجه وذا وجهين كطبل النوري والنقارة الصغيرة التي تضرب لإطارة الطبرج. وقال: جمعه أطبال وطبول.

ويقول ابن سيده في المخصص: ومن الملاهي الطبل، يقال طبل وأطبال وطبول، حكاها ابن دريد صاحب العين. الطبال صاحب الطبل وحرفته الطبالة وقد طبل يطبل، ومن أسمائه الكبر والكوبة، ومنه حديث عبد الله بن عمر: نهى رسول الله ﷺ عن الخمر والميسر والكوبة والغبيراء وكل مسكر. وقال الشاعر في الكبر:

وإذا حنت المزامير والمز هر تسمو بصوته الأوتار
وتغنى الشادي المغرد لما جاوبتها الدفوف والأكبار

ويقال هو الدفّ والدفّ، والجمع دفوف، والدفاف صاحبها، والدفاف صانعها، والمدفف ضاربها، والدفدفة استعجال ضربها، صاحب العين: الضغاطة الدف، ابن دريد: الضغاط اللعاب بالدف، أبو عبيد: الدراب: صوت الطبل. غيره: الدف يكركر ويقهقه وهي حكاية صوته.

قلنا: وقد ذكر هذا المصدر البوق فقال: شبه مثقاب ينفخ فيه الطحان، ويقال للذي لا يتكلم السر إنما هو بوق مثل به.

ويقول: يقال إن فلاناً بوق فلان إذا كان يردد ما يقول ويقال له أيضاً: صوت سيده. كما يقال لمن يغالي في مدح أحد أنه يطبل له ويقال دقت طبول الحرب بمعنى الاستعداد للحرب والعمل على نشوبها. وظاهر مما جاء في كتب اللغة أن الطبل أو الطبلة آلة لهو وطرب ولكن اللفظ قد ينصرف كناية، كما هو الحال في استعمال السودان، إلى النقارة المخصصة للنداء ويرمز للعز والسلطة.

وفيما أورد الباحثون فإن يوسف فضل حسن في تحقيقه للطبقات يخلط بين الطبل والنقارة والدلوكة. فالنقارة طبلة كبيرة جداً. والدلوكة هي الطبلة. أما عون الشريف فإنه لا يذكر في قاموس اللهجة العامية في السودان الطبل وإنما يذكر النقارة والدنقر. وكل ذلك لأن الناس يتداولون هذه الألفاظ بغير تدقيق كما أن الآلات نفسها كثيرة وعلى أشكال شتى وتأخذ أسماء مختلفة في أقاليم السودان.

وقال عادل الألوسي إن الدف قديم قدم الحضارة، وكان أحد الآلات الموسيقية الأثيرة عند الأشوريين. وقد عرفه العرب قبل الإسلام بالطار وكان في أيدي القنيات أثناء الحرب. وعرف لدى أقوام أخرى، وعرف في مصر بالطار وفي مراكش باسم صنيف وفي الجزائر بالبندير وفي فارس بالدائرة. وقال إنه انتشر إلى أوروبا عن طريق عرب الأندلس. ثم قال إنه كان يستعمل في الموسيقى التركية أو موسيقى الدراويش الإنكشارية في حلقات الذكر والموالد ومناسبات أخرى. وقال إن الدف قطعة من جلد يثبت باتقان على خشبة مدورة هي الإطار وقد يحمل بالصنوج وبالحلق وقد يترك دونما شيء[1]. ويقول عبد الجبار موسى السامرائي إن الدف عرف في الجاهلية وأنه ذكر في التوراة وأنه كان في أيدي المحصنات والقنيات أثناء الحرب، وكان يصحبه المزمار في بعض الأحيان. وقد كان الدف أيضاً الآلة البارزة في الحياة الاجتماعية، وقال إنه يصنع على هيئة إطار من خشب خفيف مشدد عليه جلد رقيق وبجوانبه صنوج نحاسية صغيرة لتحلية نقرات الإيقاع ولتبيين الخفاف منها[2].

وعن الطبل يقول نفس المؤلف إنه الأكثر انتشاراً والأقدم بين الآلات الموسيقية والإيقاعية وأنه يصنع من جذع الأشجار ويستحدث نغمتين متمايزتين من كل فتحة من فتحتي الجذع ويحدث دوياً يحمل في أعطافه

---

(١) عادل الألوسي: لوازم الدراويش، مجلة التراث الشعبي، مجلة شهرية يصدرها المركز الفولكلوري في وزارة الإعلام العراقية، عدد ١١ (السنة الخامسة سنة ١٩٧٤) ص ٦٧ ـ ٦٨.

(٢) عبد الجبار موسى السامرائي: الغناء والموسيقى عند العرب قبل الإسلام، نفس المجلة، عدد ١٥ (السنة الخامسة سنة ١٩٧٤) عدد خاص عن الموسيقى والأغنية الشعبية ص ٢٠.

معنى القوة. وهو من الآلات الموسيقية المصاحبة للمغني في ضبط الإيقاع. وقال إن العرب استعملوا الطبل ذا الوجهين.

وقال إن الطبل على نوعين، أولهما الطبل الإسطواني ومنه نوعان. الأول نوع ذو جلد واحد واسمه القديم كبر وهو على ما يعتقد من لفظة كبرو الأمهرية. وقد استعار العرب نوعاً واحداً من الطبل على الأقل من الحبشة، وربما عرف باسم العرطبة لأن العرطبة طبل الحبشة. وكان الطبل الذي على هيئة الإسطوانة أو البرميل أكثر شيوعاً. وكان هذا النوع يستعمل إبان الحرب. والنوع الثاني من الطبل الإسطواني نوع ذو جلدين، وهو على أشكال شتى، منها ما عرف قديماً باسم الكوبة، وهي الطبل الصغير، واستعماله دائماً للمخنثين. وكان العرب يستعملون الطبل ذا الوجهين في الحروب. وقد يبلغ قطر وجه الطبل الكبير منه مائة سم. وهو أجوف مشدود على وجهيه جلد رقيق يضرب بعصوين من الخشب ينتهيان بكرتين، ودائره مصنوع من الخشب الخفيف المتين وحافتاه من المعدن ومحاط بأربطة وضوابط متصلة بوجهي الطبل، وأصغرها أكثر استعماله في مصاحبة نغم المزامير.

أما النوع الثاني من الطبل فهو الطبل الكأسي، ويشمل الكوس والنقارة، وكان طبلاً حربياً استخدمه العرب في القرن العاشر الميلادي، ومنه طبل المركب، وهو أرق صوتاً من الكوس، وطبل الحج هو النقارة أو الطبل الشامي. وأكبرها عند المسلمين يسمى الكوركة، وقد ذكره ابن بطوطة[1].

وعند النباعي: شكله علبة من نحاس في شكل مخروطي ولها فتحة دائرية عليا وأخرى عند أسفلها، وتشد السيور على العليا بجلد البقر. وفي السودان يصنع من كبكة خشبية يتم خرطها من الداخل لتصبح في شكل البازة. ويضرب عليها بقطعة مستطيلة صنعت من الجلد المقوى.

وذكر هذا المصدر في تاريخ الطبل في السودان أنه عرف مع دخول الطرق الصوفية وقال إنها تعرف بالعامية بالبازة. وقال: تستعمل عند الأحمدية

---

(١) السامرائي، ص ٣٠ ـ ٣١.

والرفاعية والقادرية والسمانية والإسماعيلية. فهو إذا واسع الاستعمال عند الطرق الصوفية. وواضح أنه في الأصل للطرب وولج من بابه إلى الطرق لينشط الحركات ويذكي الروح[1].

النوبة:

ذكرها السباعي وقال إنها من الدولة المصرية القديمة، ثم وصفها بأنها: ثلث برميل حديدي ذي فتحتين جانبيتين يبلغ قطر كل فتحة منها ثمانين سم وعرضها ما بين الفتحتين ثلاثين سم، ويثبت على الفتحتين جلد ماعز. وقال إنها تحمل على الكتف بحبل معلق على جنبيها عند السير والوقوف داخل حلقة الذكر. ويستعمل لدقها مطرق خشبي أعد خصيصاً بالجهة اليمنى وأحياناً يضرب باليد اليسرى من الجانب الآخر لإبراز بعض النبرات. وقال: تستعملها عدة طرق صوفية كالأحمدية بفروعها والرفاعية والقادرية بفروعها والسمانية والتسعينية.

الطار:

ذكره السباعي وقال إنه قديم في التاريخ. ثم ذكر أنه يستعمل للطرب في الصعيد وفي بلاد النوبة. وقد وصفه بأنه إطار خشبي ذو حجمين، كبير وصغير، الكبير هو الأمية، والصغير الشتم. وقال: الإطار الخشبي يثبت على إحدى فتحتيه جلد الماعز. ثم ذكر أنه يستعمل عند القادرية والسمانية ـ وهو من أهم أدوات المداح. ولنا وقفة عند استعماله في بلاد النوبة أي حلفاً شمالاً ـ إذ يبدو أنهم تأثروا بالصعيد وأخذوا بالطار، وهم لا يصفقون ولا يعرفون الطنبور ويقع رقصهم في صفوف تتحرك خلفاً وأماماً على أنغام الطار، وهذا بخلاف ما عليه أقرباؤهم في المحس والسكوت، فهؤلاء لا يستعملون الطار كآلة طرب وإنما يستعملون الصفقة والطنبور.

---

(١) عباس سليمان السباعي: إمكانية استخدام الإيقاعات الدينية في الموسيقى وسط السودان، أطروحة جامعية لدرجة الدكتوراه ص ١٠٣ ـ ١٤٧.

النحاس:

ويماثل النقارة ولا يختلف عنه إلا لكونه مصنوعاً من النحاس. وقال السباعي إنه يصنع من النحاس الأحمر وأنه ظهر بدلاً عن السهيرانة وانتشر بين الفونج والعبدلاب وبين القبائل المختلفة. ثم ذكر أن فتحته العليا تغطي بجلود البقر ويضرب بعصى غليظة. وقال إن مجموعة النحاسات توضع في مكان فسيح من حافتها على قطع دائرية صنعت من القماش المفتول، ويضرب عليها ثلاثة رجال ضربات متنوعة بالعصي الغليظة.

ولصلة النحاس بالسلطة قالوا عند سقوط أم درمان: دقوا النحاس تركية، كناية عن سقوط المهدية وقيام التركية الجديدة، أي العهد الثنائي.

الدلوكة:

قال السباعي إنها من الفخار وذكر إنها تضرب في الأفراح وفي الزار حيث يختص النساء بضربها.

الداربوكة:

ذكرها السباعي وقال إن تاريخها يرجع إلى عهد الفراعنة، ثم وصفها بأنها هيكل مخروطي أجوف بفتحتين ويجلد بجلد السمك، وقال إنها تصنع في السودان من الفخار.

الشتم:

قال السباعي إنه طار صغير تضربه النساء. وقيل إن القطعة الصغيرة في طاقم النحاس تسمى شتماً، والمشهور أنها تسمى عجلاً أيضاً.

البنقز:

ذكر السباعي أن هذا اللفظ إغريقي الأصل، ثم ذكر أن الآلة نفسها من الآلات الإفريقية الأصيلة وأنها استخدمت في الرقص وانتشرت في أمريكا وأوروبا وصار لها الشيوع مع موسيقى الجاز.

الـرق:

وقد ذكره السباعي وقال إنه استعمل عند الإغريق قديماً، ثم وصفه بأنـه إطار خشبي يجلد بإحدى فتحتيه بجلد خاص من جلود السمك، وطول إطاره عشرة أجواز من الصنج النحاسية وضعت مزدوجـة داخل عمـود حديـدي رفيع لصوت الشخللة. وقال إنه يستورد من مصر، وهو أكثر ما يكون استعمالاً على يد المطرب الشعبي، وكان أول من استعمله في الغناء السوداني على ما يقول السبـاعي المطرب المشهـور سرور. وعـرف أيضاً في تخت الـزار. ويستعمله السمانية والرفاعية والأحمدية بفروعهـا. ويذكـر عبد الجبـار موسى السـامرائي هذه الآلة فيقول: وثمة طبـل صغيرة الإطـار يشد فيهـا الجلد على طوق قليـل الغور يطلق عليها عادة اسم الرق، واستعماله وقف على النساء[1]. وقد سمي بالرق لما فيه من الجلد، إذ الرق هو الجلد، وسميت أداة الكتابة المتخذة من الجلد رقـاً، والكاغـد هو الـورق من القماش والقـرطـاس مـا كـان من نبـات البردي. أما لفظ الورق في الأصل فيعني الفضة، ولذا قيل الختم من الورق، ثم صار ما يكتب عليه مما هو مصنوع من الخشب.

الجـرس:

وهـو مما يـذكره الأستـاذ عبـد الجبـار مـوسى السـامـرائي في المصـدر السـابق[2] ضمن آلات الغناء والمـوسيقى عند العـرب. وقال عنـه: إنـه على شكـل الكأس أو الـطاس أو القمع وأنـه كان يعلق في أعنـاق الدواب. وكـان بعض المـولعين يعلقون الجـرس في رقاب الحميـر والثيران لتنشط في مشيهـا وزيـادة في زينتها أو ليـدرك محلها وسط الأحـراش. وكان الفـور يعلقونـه في رقاب الخيول. وقـد وصفه أحـد الإداريين الإنجليز عنـد النظر في إعـطائه أو عدم إعطائـه لمقدوم شمـال دارفور بـأنه أقـل من كرة القـدم حجماً وأكبـر من القريب فروت. وفي موكب سلطان الفور كانت تظهـر جماعـة تحمل أجـراساً صغيـرة وتضربهـا وهم محيطون بـالسلطان[3]. وكـانت بحـافـة درع سليمـان

(١) السامرائي، المصدر السابق، ص ٣١.
(٢) نفسه ص ٣١.
(٣) ناختقال ص ٣٤٢.

سولونج سلطان الفور مجموعة من الأجراس تصدر صوتاً كان يخيف العدو إذا هزه[1]. وكان سلمان الطوالي الزاغراد يحمل على جنبيه جرسين[2]. وعلى ما تروي ليدوين في كتابها عن سلطنة المساليت فإن الفقيه إسماعيل مؤسس هذه السلطنة كان يستعمل الجرس لا النحاس أو الطبل أو الدنقر ـ ربما بعداً به عن العوائد القبلية ورسوم الملوك. وقد استبدله ابنه السلطان أبكر بالنحاس[3]. وكان علي دينار مولعاً به، يضعه في أعناق خيوله ويشجع كبار أعوانه على ذلك. ومقدوم شمال دارفور كان يحمل الأجراس على أعناق الخيل في الاحتفالات ثم أبطل ثم أعيد بناء على رجائه ورجاء شيوخ قبائل الشمال وأهدت له الحكومة مجموعة منها.

النقارة:

ذكرها الرائد فقال: شيء كالدف، من جلد. وقال المعجم الوجيز: نقر الشيء ضربه به، ويقال نقر رأسه بإصبعه ونقر الدف والعود ـ قلنا: والمعنى فيما نريد ما ينقر ليعطي صوتاً سواء كان دفاً أو عوداً.

وذكرها عون الشريف في قاموسه فقال: نقره ضربه. نقر العود أو الدف كالطار ضربه ليصوت. والنقارة من فصيح اللغة ومن اللهجة السودانية، وقد عرف بها فقال إنها شبه الدف من الجلد يضرب عليه. والدنقر ضرب من النحاس أو النقارة للحرب أو علامة الرئاسة. قال النعيسان في المك نمر: «قائد الخيل على حس الدناقر يمشي».

وقد وصف الدكتور يوسف فضل حسن النقارة فقال: هي طبلة كبيرة جداً تصنع من النحاس أو الفخار وتجلد بجلد ثور وتقرع في المناسبات الهامة كالدعوة لحرب أو موت كبير وعند البقارة للطرب. وفي بعض مناطق الجزيرة تشير إلى طبل صغير يضرب عليه في حلقات الذكر. وقال إن النقارة

---

(١) نفسه ص ٢٧٨.
(٢) الطبقات ص ٢١٨.
(٣) ليدوين، سلطنة المساليت، ص ٤٤.

تجمع على نقاقير ونقارات[1]، وقد أورد صورة لها[6]. وقال في موضع آخر إن الدلوكة هي الطبلة. وهكذا اختلطت الألفاظ لتعريف لفظ بلفظ.

ولم يذكر السباعي النقارة، ولكنه أورد عند كلامه عن الطبل ما ينطبق على النقارة، كما أورد عند كلامه عن النحاس آلة السهيرانة باعتبارها الآلة السابقة للنحاس، وهي النقارة بعينها. ومما يؤكد ذلك اعتبار عون الشريف في قول الشاعر النعيسان أن الدنقر هي النقارة. وقال السباعي إن اسم السهيرانة اشتق من السهر لأنه كان يضرب عليها ليلاً لتنبيه أفراد القبيلة حيث تسمع ضرباتها من المسافات البعيدة في البادية ليحضر الفرسان لملاقاة العدو. ثم ذكر أن الفونج والعبدلاب عرفوها. وإنها كانت تعد من سيقان الأشجار الكبيرة المجوفة وتجلد فتحتها بالجلد الذي يشد عليه وتشد بالسيور الجلدية لإبراز النبرات القوية. وهي تعلق بحبل فوق عمد خشبي ويضرب عليها شخصان من الجانبين بالعصي الغليظة ويرقص عليها الشباب، أو توضع في مكان فسيح وتوضع من حافتها على قطع دائرية صنعت من القماش المفتول.

السهيرانة إذا هي النقارة، وهي تسمى أحياناً طبلة، واللفظان أيضاً يطلقان على النحاس، لتداخل الألفاظ في الاستعمال العام. وفي المناطق غير العربية تعرف النقارة بألفاظ من لغات هذه المناطق، مثلاً النوبة في الشمال يسمونها دكرا، والمساليت يسمونها دنقار والفونج والفاز وغلي يسمونها دنقر. وكما رأيت فإن لفظ دنقر ورد في قول النعيسان الذي أورده عون مما يعني أن لفظ دنقر دخل عربية السودان، ويجمع دنقر عربياً على دناقر. والبرنو وكانم يسمونها تامبوري. والفور يسمونها كيسو، وهذا اللفظ يعني أيضاً الحاكم لما أن النقارة مرتبطة بالسلطة. وفي لغة الداجو تعرف بشارتي، وهذا اللفظ يعني أيضاً الحاكم. والغريب أن شارتي عند النوبة هو الحربة، ترى هل هناك من علاقة! وفي الأمهرية يقال لها عرطبة كما يقول السامرائي فيما تقدم أو قريباً منه.

---

(١) الطبقات ص ٢٤٠.

(٢) نفسه ص ١٥٩.

إن هذا البحث فيما يلي يعني بالنقارة، وهي الآلة الصوتية التي تدق في المناسبات الاجتماعية المختلفة والتي تتخذ عادة علامة للكينونة الرسمية أو الاجتماعية. وهي تسمى أيضاً طبلاً على وجه المجاز، مع أن الطبل في الأصل آلة طرب، لا الآلة التي نعنيها. وربما كان المعنى اللغوي للفظ الطبل هو الذي أدى إلى هذا الاستعمال المجازي. وتسمى النقارة نحاساً إذا كانت مصنوعة من معدن النحاس. وتسميها العامة في أواسط السودان النعيسان كناية عن سهرها للدفاع، فهي جاهزة للدق ليهرع الناس في أي وقت. هذا في محيط الألفاظ العربية، أما اللفظ الإفريقي الشائع في السودان فهو الدنقر والدنقار. ويكاد يكون له في كل لغة أو لهجة سودانية لفظ خاص أو مهجن.

والنقارة ـ أي الخشبية ـ تصنع من جذوع الأشجار الكبيرة بعد تجويفها وكسائها بالجلد أو بغير كساء الجلد. وهي تتفاوت في الحجم وتتعدد في الشكل، وربما تمايزت كل قبيلة أو جماعة بشكل مميز. وقد وقفنا على نقارة في شكل عجل ضخم في متحف التراث الشعبي بالخرطوم، كما وقفنا على نقارة بنفس الحجم والشكل في معهد الدراسات الإفريقية بالقاهرة، ولم نر على النقارتين بطاقة بيانات حتى نعلم مصدرهما. وليس لهما كساء الجلد، وإنما بهما تجويف من الداخل له فتحة ضيقة على الامتداد الطولي فيما يمثل ظهر الحيوان، فإذا دقت صدر الصوت قادماً من التجويف خارجاً من الفتحة. فكأن الذي دبر هذه النقارة شاء أن يحاكي صوت الثور صادراً من جوفه. ولكن من العجيب أن يدبر الزاندي شكل الثور لنقارتهم مع أنهم لا يربون البقر! هذه الآلة تسمى قوقو، وهي من آلات قبيلة الزانديي، وتستخدم في مصاحبة آلات أخرى.

وأغلب النقاقير والطبول في النقوش التاريخية القديمة من الفخار. وفتحة النقارة ذات الجلد، والنحاس بشكل خاص، تغطى بجلد البقر ويضرب عليه بعصى غليظة.

---

(١) الطبقات ص ٢٤٢.

ويصنع النحاس من النحاس الأصفر أو الأحمر، وقد حمل هذا الاسم بهذه المناسبة للفصل بينه وبين الدنقر الخشبي. ولم نسمع أنه صنع من الحديد، فالحديد بليد لا يصدر الصوت بما نريد. وقد ضربوا المثل بالنحاس على الاحمرار، ومن ذلك قول الطبقات في وصف الياقوتة التي حملت نار القادرية من بغداد إلى صالح بانقا بأنها ياقوتة حمراء مثل نقارة النحاس[1].

وقد روى الأستاذ إبراهيم موسى في بحث عن دور النحاس في دارفور أن بعض رواته ذكروا له أن النحاس كان يصنع في الفاشر من النحاس الذي كان يجلب من حفرة النحاس. ولو قال ذلك في أجراس الخيل لقبلنا، أما النحاسات فكانت تجلب من مصر، لأن صناعتها كانت فوق حذق حدادي الفور. وكان من بين موظفي قصر السلطان علي دينار حداد يدعى ريحان علي، وهو دنكاوي الأصل، كانت مهمته صيانة النحاسات، ولكننا لا نسمع عن صانع للنحاسات، بل لا نسمع عن صناعتها فيما رواه الرحالة عن دارفور.

وعادة يطلق على النقارة أسماء تدل على الفأل الحسن كالمنصورة والبيضا وعطا الله، وذلك لاتصالها بالملك والسمو والعز ودورها في الحرب. وهذا ما يفعلون أيضاً عندما يسمون حميرهم وخيولهم.

ولإعطاء فكرة عن أحجام النحاسات نسوق أحجام نحاسات الشنابلة كما جاءت في مذكرة إدارية والأحجام التي يذكرها الأستاذ السباعي في بحثه:

بلغ حجم الثور ـ وهو الأكبر ـ في طاقم الشنابلة ٦٠ × ٨٠ × ٨٠ سم، ووزنه ٩٠ رطلاً، وعند السباعي بلغ قطره ٩٦.

وبلغ حجم البقرة ـ وهي الثانية في الحجم ـ في طاقم الشنابلة ٥٠ × ٧٠ × ٧٠ سم، ووزنه ٨٠ رطلا، وعند السباعي بلغ قطره ٧٣.

وبلغ حجم العجل أو الشتم ـ وهو الأصغر ـ في طاقم الشنابلة ٤٠ × ٦٠ × ٦٠ سم، ووزنه ٧٠ رطلاً، وعند السباعي بلغ قطره ٥٦ سم.

والسباعي يذكر الحجم العادي، ولعله قاس نحاساً وقف عليه وأورد حجمه، دون أن يلتفت إلى تفاوت الأحجام. وهو يكتفي بطول القطر. أما الإداري الذي أورد عن نحاس الشنابلة فكان أكثر دقة. وفي ظننا أن خير قياس للنحاس هو ضبط اتساع قاعدته ورأسه ووسطه، والله أعلم.

وقد بلغ ثمن نحاسات الشنابلة فيما روى الإداري تسعة جنيهات للثور، وسبعة للبقرة، وخمسة جنيهات للعجل.

وأحجام النحاس ثلاثة: أكبرها الثور، ثم البقرة، ثم العجل أو الشتم. والطاقم الكامل يتكون من أربع قطع: ثور وبقرة وعجلين. ولكنه قد يكون أقل بحسب قدرة المقتني. ولتلازم النغم فإن القطع الأربعة هي الأوفق. وبعدم ذلك يكون مع الثور أو البقرة عجلان في حالة الطاقم بثلاث قطع، وإلا فيكون ثوراً وبقرة بغير عجل لأن قطعة كبيرة وصغيرة واحدة لا تعطيان النغم المرجو.

وليس للنحاس أو للنقارة بعامة نغم محدد، وإنما يقوم الضارب بإصدار الأنغام بحسب توجيه الضربات وتواليها سرعة وبطئاً. ولهم في ذلك أنغام معروفة يتصرفون على أساسها. وفي الحرب أنغام للتقدم والتأخر والوقوف، وفي المواكب للتقدم والوقوف. وفي التقدم والتحرك أنغام للسرعة والبطء. وكذلك في الصيد. وفي الرقص أنغام، وكذلك للجمع في السفر وفي الرعي. وكان الفور يضربون على النحاس ضرباً بطيئاً للخبر السيء، كوفاة السلطان، وضرباً سريعاً للخبر السعيد، كارتقاء السلطان الجديد. وفي فازوغلي كان للخبر المفرح ضربات خفيفة متواصلة وللخبر السيء ثلاث ضربات مكررة مرة بعد مرة.

والنقارة آلة ذات مفعول اجتماعي قوي ومركزها هائل. وكان لها دورها الفعال في المجتمعات القديمة في مواقع السلطة والحرب والطرب والنداء والعبادة كما هو مشاهد من النقوش التاريخية وشواهد التاريخ المرسومة والمكتوبة.

وفي مجتمع السودان كان لها نفس الدور الاجتماعي المهم. فقد دلت على كينونة الدولة والكينونة القبلية، وكانت لذلك موضع العز، ودلت من هذا

الـوجه على السلطة والقـانـون والأرض. فنقـارة السلطان هي نقـارة السلطنـة كلهـا، ونقارة الملك هي نقـارة مملكته، ونقـارة الشيـخ هي نقـارة مشيختـه. والصوت الذي يصدر منها صادر من الموقع المعني سواء كان سلطاناً أو ملكـاً أو شيخاً أو أياً كان إلى مواطنيـه، وعلى هؤلاء أن يتصرفـوا على الوجـه الذي يـدعو إليـه الصوت حسب الأنغـام التي يعرفـونها. وهي أداة الشـرعيـة بحيث يحمـل الوالي أو زعيم القبيلة نقـارة من السلطان دليلاً على شـرعية ولايتـه أو زعـامته، وهي من جـانب آخـر عـلامـة على خضـوعـه للسلطان. والـوالي أو الزعيم الذي لا يحمل هذه الآلة لا تعتمد ولايته أو زعامته ويعتبر خـارجاً على السلطان أو هو يقود قبيلة لا كينونة لهـا. وهذا هـو السبب الذي يـدعو زعمـاء القبائل وحكام الولايات إلى الاجتهاد للحصـول عليها من السلطان ـ أي لأنهـا اعتراف بالكينونة القبلية واعتراف بالزعـامة نفسهـا. وكان الحـائز على النقـارة يطمئن على شرعيته فضلاً عما يعطيه النقارة من سمـو الشرف. وكـانت بعض القبـائل لا تعتـرف بالسلطة الأعلى وتقتني نحـاساتهـا الخاصـة لشعورهـا بـأن السلطة العليـا لا تطالهـا، وذلك مـا فعل الـرزيقات، فـإنهم لم يحصلوا على النحاس من سلطان الفور وإنما دقوا ما ملكوه أو ما غنموه من السلطان نفسه.

وفي الحرب كانت النقارة تتحدث عن مـركز القيـادة وتحمل مـا يصدره من التـوجيهات فتثيـر الحماس في القلوب وتـدفـع بـالمحـاربين إلى القتـال، والتقدم والتوقف والتأخر والسـرعة والبطء. وكـانت رمز المقـاتلين مثل العلم، وإذا وقعت النقـارة في يد العـدو كان ذلـك نهـايـة الهـزيمـة وعـد عـاراً على المحاربين. ولقد لعبت المرأة هنا دورها بدق الطبول والأغاني الحماسية.

وقد دقت النقارة عموماً بغرض التنبيه والنـداء عند وقـوع الكوارث مثـل الحـريق والسيول والفيضـان، وعند هجـوم الأعداء أو أي خـطر، مثلما تفعـل صفـارات الإنذار الآن. وعنـد الاستعـداد للحـرب وتـدريب المحـاربين وفي القتال ذاته كما أسلفنا. وتـدق في المناسبـات المهمة كمـوت علية القـوم من الحكـام والأوليـاء، وفي تحـركـات المـرعى، وفي الاحتفـالات الـرسميـة كـالتتويـج، والمناسبـات مثـل أول رمضـان والعيـدين ويـوم الخميس إيـذانـاً بـالجمعـة، وأوقـات الإمسـاك والإفـطار في أيـام رمضـان، وفي العيـدين

والاحتفالات الاجتماعية عموماً كالختان وحفلات الزواج لإشاعة البهجة والسرور.

وكان أهل جبال النوبا يدقون النقارة عند الخطر ليجمعوا الناس، وكانوا يوقدون النار على رؤوس الجبال انذاراً لأهل الجبال الأخرى بأنهم معرضون لخطر. وأهل فازوغلي فيما روى ديزني كانوا يدقون النقارة للتنبيه بالأمور فيتلقى الجمهور الأخبار السارة بالهتاف والزغاريد ـ ومؤخراً بضرب النار ـ والأخبار السيئة بما تستحق من تصرف. ولا شك أن القبائل الأخرى اتخذت نفس السبيل لإعلام الجمهور وأخطار الجيران. ومن ذلك ما رواه التونسي في تشحيذه، فإنه مر على قرية في جبل مرة وطلب من شيخها ـ وكان يسمى أبو بكر ـ من يرافقه في بعض طوافه فضرب طبلاً يسمى التمبل فجاء أناس كثيرون فانتخب منهم نفراً ليرافقوه[1].

وكانت النقارة تدق في حفلات التتويج وتتخذ مكاناً مهماً في مراسمه. كان ذلك عند الفور والفونج، وفي تتويج ملك فازوغلي استصحب النقارة النفخ في القرون. وكانت تدق في المواكب وتتخذ موقعاً مهماً منها.

وجاء في خبر محمد الهميم أنه إذا جاءه الشيخ عجيب، شيخ العبدلاب، كان أول ما يدخل وعر المندرة، أي بلده، يمنع من ضرب النقارة، فإذا دخل عليه يخلع ثياب الملك ويلبس جبة تاج الدين[2] ويعني ذلك أنه يتلخص من علامات الملك احتراماً منه لصنوه في الطريقة ويتخذ هيئة الطريقة القادرية.

وكان خبراء القوافل التجارية يحملون النقاقير لينبهوا بها أفراد القافلة عند السير حتى لا يضلوا وفي مواقع النزول حتى ينزلوا وعند الخطر حتى يستعدوا. ومثل ذلك ما رواه الرحالة براون، فإنه ذكر أنهم عندما اقتربوا إلى مدينة جرجا وهم قادمون إليها من مصر في طريقهم إلى دارفور أعلن الخبير عن اقترابه عن طريق قرع النقارة، ثم ذكر أنه يحمل عدة نقاقير، بيد أن معه في المقدمة نقارتين هما موضع اعتزازه، وقال إنه كان يجمع بدق النقارة

---

(١) التونسي ص ١٥٧.
(٢) الطبقات ص ٣٢١.

المسافرين المتفرقين في شتى الأنحاء. وكان إضافة إلى النقارة يستعمل أدوات أخرى كالصفارة والأعيرة النارية [١].

وذكر الرحالة كرمب أن خبراء القوافل التي يرسلها سلاطين الفونج إلى الجهات كانوا يحملون معهم نحاسات من السلطان دليلاً على حمايته لهم، وكانوا أحياناً مصحوبين بمجموعة من الفرسان إذا كانت حمولة القافلة مهمة وتعبر مواضع الخطر. وقال إن خبيرهم جمع أهل القافلة جميعاً عن طريق دق نقارته ليخطرهم بأنهم يدخلون في غدهم صحراء البيوضة الخطرة، وإنهم قد يتعرضون إلى هجوم الأعراب وإن عليهم أن يكونوا مستعدين للدفاع عن أنفسهم [٢]. وكانت هذه الصحراء من أخطر الدروب على القوافل لأن الحسانية كانوا يغيرون عليها. وقد أغاروا على بريد الخليفة في المهدية مما استدعى الاحتياط.

وكان خبراء قوافل الفور المشمولة بالعناية السلطانية أو التي تحمل تجارة السلطان يحملون نحاسات منه تعبيراً عن حمايته، وعلى ما نظن فإن نقارتي خبير قافلة براون بمقدمة القافلة كانت سلطانيتين.

وقد وصف الدكتور إيان كنسون في كتابه «عرب البقارة» موضع نقارة الحمر عندهم وذكر أنهم يحملونها معهم في ترحالهم ويعلقونها على شجرة عند استقرارهم. وقد يستعملونها للرقص والغناء، ولكنها تؤدي وظيفة أهم من ذلك، فهي دالة الماشية والرجال، ومن نغماتها يعرف البعيدون عن القافلة موضع مقامها، كما أنها ترشد الرعاة إذا ضلوا، وتدق عند الغروب إيذاناً بالرحيل إلى موضع آخر بالغد.

وذهب كنسون إلى أن البدنة الكبيرة هي أكبر وحدة يجمعها نغم للنقارة، فبينما يوجد نغم محدد لكل بدنة بين أولاد كامل نجد الأمر مختلفاً في دار أم شيبة حيث لكل قسم من أقسامها المتوسطة الثلاثة نغم خاص. وأما بدنتا أولاد توبة والكلابنة فيشاركون في نغم واحد، وإن ميزوا بين الأنغام بإطلاق أسماء مختلفة عليها. ويضيف أن أولاد سرور هم وحدهم الذين

---

(١) Browne p. 185.

(٢) Spanlding, J.L. Herioc Age of Sinar P,117.

يطابقون بين أنغام النقارة وبين تـوزيع وشم الحيـوان. وعند السـلامات تتميـز كل سرة بنغمها الخاص، إلا أن سـرتين تشتركـان في نغم واحد، بينمـا هناك سرة كبيرة تنفرد بنغمها الخاص.

ويتـوقف كنسون عنـد ظـاهـرة الغيـرة على الأنغـام الخـاصـة بحيث إذا استعملت مجمـوعة نغم غيـرها فهي بـذلـك تتعـرض إلى انتقـام المجمـوعـة صاحبة النغم، وقد ترتبت على ذلـك قديمـاً صدامـات قبلية. وتـدارك الحمر خـطورته الآن بعـد تدخـل الحكـومـة فـأوقفـوا اللجـوء إلى القـوة، غيـر أنهم استعملوا النقـارة للإثـارة السياسيـة في بعض الحـالات كمـا حـدث من قبـل المراغنة عندما هاجمهم بدنة عرية[1].

وذكر الأستاذ حسن نجيلة في كتابه «ذكرياتي في البادية» مـا كان لنقـارة الكبـابيش من أثر اجتمـاعي في مجتمعهم البدوي وأوجـه استعمال الكبـابيش لنقـارتهم. ثم قدم وصفـاً طيباً عن احتفـال يوم العيـد ودقـات النحـاس يتـردد صداها في جبال الحمراء وتتوالى إيقاعاته وزغـاريد النسـاء تعلو وترتفـع. كما وصف موكب العرض بعد الصلاة، ومراسم استقبال الشيخ علي التوم للمستـر نيوبولـد، وأشار إلى دوي النحـاس وتواليـه، والبدو الـراجلون يعرضـون على ضرباته وحوله الفتيات يغنين ويرقصن.

ومن يتأمل وصف الأستاذ نجيلة يشعر كأن دوي النحاس لا يتوقف، فهو ـ كما مر ـ تتردد إيقاعاته في كل عرض واستقبال ومناسبـة، والناس يستيقـظون على دويه يوم الجمعة، ويشاهدون ـ كما اعتـادوا ـ نحاسهم بقـطعه الثـلاث ـ كان ذلك قبل أن يصل عدد القطع عدده الحالي ـ يـرش بدم خـروف، ويعقبه الشبان الأشداء وهم يوقعون عليه بعصيهم الغليظة ضربات الفروسية التي تثيـر الحماس، والنساء يزغردن من هنا وهناك تجاوباً مع هذا الدوي الحماسي.

وليست ضربات النحاس هذه مجرد إيقاع، وإنمـا لها معنى خـاص ذكر الأستاذ نجيلة أنهم يعرفونه ويترجمونه إلى كلمات منغومة ويرددون بعضها أكثر من غيرها لأنها تذكرهم بعراقة ماضيهم ومجدهم التليد.

---

(١) Cunnison, I., Baggara Arabs, power and the lineage in a Sudanese Nomad Tribe pp. 100 - 101.

وواضح أن النحاس وإيقاعه مؤثر في كيان هؤلاء، فهو يصاحبهم دائماً، وهم يسمعون دويه كالرعد عند عودة شبان القبيلة مع إبلهم بعد طول غياب.

ووصف نجيلة يوماً آخر كان صوت النقارة فيه يدوي في الصباح إيذاناً بالرحيل إلى مكان آخر والحي كله منهمك بتقويض الخيام قبل شروق الشمس.

ويسمع الناس عند الرحيل وقبل الشروق دوي صوت النقارة وهو يعلن الاستعداد لشد الرحال وتتوالى ضربات النقارة رتيبة متباعدة طوال المسير، وهي على ظهر جمل، وتزيد ضرباتها قوية متلاحقة عندما يحين وقت النزول، وتتوالى ضرباتها ولا تتوقف إلا بعد أن يجتمع كل من كان بعيداً من الشبان للصيد[1].

(١) حسن نجيلة ذكرياتي في البادية، صفحات ٣٨، ٤٠، ٤٨، ٤٩، ٦٧، ٧٠، ٧١، ٧٢، ١٢٥، ١٢٦ - ١٢٧.

القسم الخامس

الدول والنحاس

نحاسات الدول المجاورة للسودان

اتخذت الدول المجاورة للسودان على امتداد السودان الجغرافي من المحيط إلى البحر الأحمر النقارة لتؤدي بها بعض انشطتها واتخذتها شعاراً للعزة وعلامة للكينونة. وقد فعلت كل القبائل نفس الأمر. وكان للنقارة وضع عظيم في ممالك غرب افريقيا. وفي داخل القارة اتخذتها القبائل واستعانت بها في الرعي والحرب والطرب. ثم جاء النحاس فاقتصر استعماله على الدول وزعامات القبائل الكبيرة. ورغم أن هذا الجانب من تاريخ النحاس في افريقيا لا يقع في إطار هذا الكتاب فإننا رأينا أن نسوق بعض ما يتصل به في الدول المجاورة لمجرد الإيحاء بأن السودان لم يكن منفرداً في اتخاذ النحاس وللإيحاء أيضاً بأن نظم السودان فيما يتصل بالنحاس كانت طرفاً مما هو ممارس في هذه المنطقة الواسعة من افريقيا.

١ ـ تتويج سلطان وداي والنحاس

تقع سلطنة ودّاي غرب سلطنة الفور الى جهة الشمال وهي الطرف الشمالي من جمهورية تشاد، وكان يقابلهم من جهة دارفور قبيلة الزغاوة، والذين لهم اخوة كثيرون في ودّاي نفسها. ولهذا كانت هذه القبيلة مهمة بالنسبة لأمن سلطنة الفور وعلاقاتها مع ودّاي. وتقوية للعلاقات وتأميناً لمصالح السلطنة تزوج بعض سلاطين الفور من الأسر القوية في الزغاوة، وجاء منهم وزراء وقادة لجيش السلطان. وفي كل علاقاتهم مع الزغاوة

ـ وخصوصاً كوبي ـ راعى سلاطين الفور هذه الأهمية. وفي نفس الوقت استغل سلاطين ودّاي الزغاوة الخاضعين لهم والذين يقيمون في مواجهة زغاوة دارفور في علاقاتهم مع الفور. وكان للفور طموح في ودّاي، وكان للودّايين أيضاً طموح في دارفور. وهكذا جاء الدور المهم للزغاوة في الحدود.

وقد اتخذت هذه السلطنة نفس مراسم الاحتفالات السائدة في بلاد السودان وأدوات الملك فيها.

وعند تتويج السلطان فإنه يقعد بين الأعيان وأمامه أدوات السلطنة، وهي النحاسات والريشة والشمسية والهبابة[1]، أما الككر فإنه يقعد عليه ويقوم بإجراء التتويج أهل المراتب بينما تدق النقارة كما نشاهد في احتفال فازوغلي. وإذا قعد في ديوانه ليمارس عمله فإنه يجلس على الككر. وتصنع الشمسية والهبابة والريشة من ريش النعام بلون خليط من الأحمر والأصفر، ويثبت الريش على الأطراف بحرير أخضر[2].

٢ ـ كانم وبورنو والنحاس

وذكر بولمر في كتاب «بورنو والصحراء والسودان» أنهم يسمون النقارة في كانم وبورنو تامبوري، وان شيخ النقارة هو القائد في الحرب.

٣ ـ اثيوبيا والنحاس

واثيوبيا اسم جديد اتخذه الامبراطور هيلاسلاسي رسمياً لبلاده بدلا عن الحبشة، وكان هذا الاسم قديما يطلق على جانب من جمهورية السودان، ويعني اللفظ بلاد السود، وهو ما يوازي بلاد السودان الذي أطلقه العرب على المنطقة الممتدة جنوب الصحراء الكبرى شرقاً وغربا.

وقد اتخذ الحبش النقارة من قديم الزمان. وقد سبق أن ذكرنا أن العرب أخذوا منهم على الأقل إحدى الآلات الوترية وهي طبلة العرطبة،

---

(١) ناختقال، ص ١٧٣.

(٢) نفسه، ص ١٧٣. p.p 86, 130.

وقيل إن لفظ كبر الذي يطلق على الطبل الاسطواني ذي الجلد الواحد مصدره لفظ كبرو الأمهرية، وقد يعني ذلك أن الطبل نفسه من الحبشة.

وقد جاء فيما روى الرحالة جيمس بروس أن بعض العرب انضموا على ياسوس ملك الحبشة عندما حمل على ديركن وأن ياسوس كافأ شيخهم بنقارة من النحاس وسيف[1].

وقد وصف حمدان أبو عنجة في خطاب إلى الخليفة جيش الحبشة الذي هزمه في واقعة دمبيا وذكر فرقه وطبوله، قال: «وكان جملة من يقال له دجاج ستة عشر، ومع كل دجاج خمسة عشر ألفا، أعني كل واحد صاحب جهة ونقارة» أي ان حاكم كل إقليم ـ جهة في تعبيره ـ يحمل نقارة ويقود ناسه باعتبارهم فرقة. وجاء في خطاب الزاكي طمل إلى الخليفة بعد انتصاره في واقعة القلابات أنه غنم فيما غنم نحاسات الحبشة، وقد أرسلها إليه.

وعلى ذلك فإن مراسم الحبشة كانت تقضي بأن يحمل ولاة المناطق، والوالي يسمى عندهم ملكاً أو رأس، النحاسات وأن يقودوا بها في الوقائع. وكان ملك الحبشة يعطي النحاس لولاته ولمن أراد تكريمه وتدعيمه من زعماء القبائل وجيرانه فيكون ذلك اعترافاً منه بكينونة من أعطى واعترافاً من الآخر بخضوعه له.

النحاس عند سلاطين السودان.

نسوق في هذا الطرف من الكتاب وصفاً لمراسم تتويج بعض حكام السودان ولمواكبهم واحتفالاتهم لنبين دور النحاس في هذه الأنشطة المؤسسية ثم نعالج أمر النحاسات بشكل مباشر.

١ ـ تتويج ملك فازوغلي والنحاس

ذكر نعوم مملكة فازوغلي في تاريخه وأورد صورة أخذت لملكها بعد فتح محمد علي مباشرة، وقد سبق وصف لباسه.

---

(١) بروس، ص ٨٨.

ووصف ديزني في مقال نشره في مجلة السودان في رسائل ومدونات مراسم تتويج أحد ملوكهم كما شاهده عياناً في ٩ فبراير ١٩٤٤، وكان ديزني مفتشاً لهذه المنطقة في الأربعينات من هذا القرن. وفي ملفات مركز سنجة وقفنا على أصل مقاله الذي أرسل إلى المجلة، وقد قمنا بنقله دون أن ندرك أنه نشر، ثم تبين لنا أنه نشره في المجلة المذكورة فأدركنا أننا أضعنا جهداً بغير طائل.

يقول ديزني: في صباح ذلك اليوم تجمع الناس قرب منزل الملك الجديد، وكانوا يرقصون ويلعبون ألعاب الفروسية بالسيف والدرع بينما دقت مختلف الأدوات الموسيقية ومن ضمنها نحاسات الملك الثلاثة: الثور والبقرة وشتم. وحوالي الساعة الحادية عشرة وقف الضيوف المهمون في حوش الكرمك يتقدمهم المك حسن عدلان سليل أسرة ملوك الفونج ورئيس الإدارة الأهلية لجنوب الفونج والمك نايل حمدان مك قلى. وهذا الملك يحتل مكاناً مهماً في تتويج ملوك الفونج وسائر المناجل كما جاء في مقال آركل. وكان الككر موضوعاً على الأرض وهو بأربعة أرجل وارتفاعه ١٨ بوصة، وكان مغطياً بقماش مزركش. وكانت هناك منضدة وعليها سيف وطاقية ملفوفة في قماش. وقد أحضرها جميعاً ـ الككر والسيف والطاقية ـ المك حسن عدلان من سنجة. وقد صنع الككر الشيخ هجو في عام ١٩١٨ عوضاً عن الككر التاريخي الذي ضاع في المهدية. أما السيف فكان قديما. والطاقية صنعت خصيصاً لهذه المناسبة، وهي عبارة عن طاقية من القماش بقنبرة في أعلاها وطرفان ممتدان نحو الأذن. وقد صنعت من القماش الجيد، وكان لونها أخضر، وكانت مزخرفة، وقد رسم سيفان على القرنين الممتدين إلى الأذنين. وبعد التتويج يأخذ المك حسن هذه الأدوات معه. وكانت على المنضدة أيضاً قفطان من الحرير وعباءة خضراء. وبعد أن استعد الجميع ذهب الجندي ليأتي بالملك الجديد. ووظيفة الجندي وراثية في أسرة، وأسرة الجندي تكون من خارج القبيلة. وكان جندي ملك فازوغلي محسياً أما جندي حسن عدلان فكان نوباويا. وكان يؤدي مهمات كثيرة كان أهمها المحافظة على الأعراف. جاء الملك الجديد حميده رجب باديرو في صحبة الجندي ووقف استعداداً للتتويج. ومن ثم نزع عنه الجندي قفطانه. ثم تقدم

حسن عدلان وناول القفطان الجديد والعباءة إلى المك نايـل والذي أعـطاهما بدوره إلى الملك الجديد، ثم ناوله حسن الطاقية فوضعها نايـل على رأسه ثم أعطاه السيف فناوله إياه. ثم أخـذ الجندي الككـر ملفوفاً في قماش ووضعـه تحت شجـرة كبيرة. ثم أخـذ المك حسن الملك الجـديـد وقـاده إلى الككـر وأقعـده متجهاً القبلة وتـولى التتويـج. وعلى الأثر تحـزم المك حسن والمـك نايب بثوبيهما احتراماً للملك الجديد ثم أخذاه بيديهما ورفعا يديه إلى الأعلى وأعلناه مانجلا. وقد ردد الجندي الإعلان، وكـان قد رفـع عن رأسه العمـامة ووقف عاري الرأس. والعمـدة نمر خميس عمـدة قسم من الفونـج بفازوغلي والذي كان يقوم بالمراسم وقف عاري الـرأس وقد تنـاول السيف من الملك. ثم تقدم عدد من الفقرا وقرأوا الفاتحة وقام ناظر المدرسة بإلقاء خطبة مناسبة. ثم جـاء الأرابيب عاريي الـرؤوس والأرجل وحيـوا الملك. ثم هز نمـر السيد على رأسه وتبعه العمدة آدم أبو نعمه وهو عمدة القسم الثاني من الفـونج فهـز سيفه فوق رأسه. ثم تقدم رجل من بيت الملك بلفة من القماش وأخرج منهـا قرناً وأصدر به صوتا، وهو قرن غزال أحمر أو بقـر وحش معد لهـذه المناسبـة ويحفظ لهذا الغرض، وهو تاريخي، ولدى ملك قلى قرن مثله إلا أنه مصنوع من الخشب. وكانت القرون كثيرة إلا أنها ضاعت في المهدية.

ثم يأتي ضرب الدنقر ويقوم به رجل له مقام في الدولة وموكلة إليه هذه المهمة حسب المراسم، وهو يضرب ضـرباً خفيفـاً مستمراً على الـدنقر ليعلن على المـلأ أن الملك بخير وأنـه توج رسميـا، وقـد استقبـل الجمهـور ذلـك بالهتاف مصحوباً بالصياح وأنغـام الآلات الموسيقيـة وضرب السـلاح الناري. والأخير طبعاً من المستحدثات. وقد أفاد ديـزني بأن الضـرب المتواصـل على الدنقر يعني عندهم أخباراً سعيدة في حين أن ضربـات ثلاثـة مكررة مـرة بعد مرة تعني أخباراً سيئـة. وهنا نـذكر إيقـاعاً مختلفـاً لـلمقارنـة، وهو أن الفـور يضربون ضـرباً بـطيئاً للخبـر السيىء وضربـاً سريعـاً للخبر السعيـد. وأضاف ديزني أنهم كانـوا في الأيام الغـابرة يضـربون الـدناقـر لإرسال الخبـر إلى كل الأصقاع، وكان إذا دق دنقر للإعـلام دق كل من يسمـع دنقره فيصـل الإعلام إلى كل الأصقاع. وفي جبال النوبا كانـوا يوقـدون النار على الجبـال للإنـذار بخطر. ثم قام بعض رجال العمدة آدم بأخذ ملاية من حزام الجندي وفـردوها

فوق الملك حتى لا يتعرض إلى الشمس التي لا ينبغي أن تمسه حتى نهاية التتويج. ثم تقدم عدد من الرجال ورفعوا الملك على أيديهم إلى منزله الجديد بينما حمل الجندي الككر وحمل نمر السيف. وذهب المك حسن والمك نايل إلى المنزل وأجلسا الملك على الككر ثانية ثم جعلا الجندي في حراسته وغادرا وتولت امرأة عجوز تدليكه ومعها بنت صغيرة من ناس الملك وعمرها عشر سنوات. وقد وقف الجندي على الباب ريثما يتم التدليك، وقد دلك الملك بشحم حيواني مخلوط بمسحوق عروق غير معروفة. ثم غيروا الجندي برجل من رجال نمر وقد أدخل الأكل للملك بواسطته. ولم يسمح لأي امرأة بالاقتراب من المنزل. وقد ذبحت الذبائح وقسم اللحم والمريسة على الناس. وبعد الغروب أخذ الملك والبنت إلى منزل الملك الجديد ليمكثا سبعة أيام يتزوجها بعدها أو تحرم من الزواج نهائيا. وبعد هذه الفترة يأتي الناس مرة أخرى ويؤخذ الملك إلى النيل ويغطس حتى رقبته ليتطهر. وهنا يؤتى بالقرن مرة أخرى فيرسل صوته وتضرب النقارة ثم يوزع اللحم والمريسة على الجميع.

٢ ـ تتويج الفونج والنحاس

لم نقف على تفاصيل كثيرة، بمستوى ما وقفنا عليها لدى الفور وفازوغلي، عن كيفية احتفال الفونج بمناسباتهم، ولكننا نستطيع اعتماداً على ما ذكره ديزني في وصفه لتتويج ملك فازوغلي وما رواه المك حسن عدلان لآركل وبعض الشوارد هنا وهناك أن نتصور بشكل مجمل كيف كان يتم تتويج السلطان وتعيين أعوانه وبالتالي موقع النحاس عندهم.

كان السلطان يجلس صباحاً على الككر المعد خصيصاً لجلوسه في اتجاه القبلة ويقوم بتتويجه أهل العادة والذين يسكنون بعيداً عن سنار ولهم هذه الوظيفة حسب مراسم الفونج، تماماً مثلما كان لبعض أسر العرب السقاية وما نحوها من الأمور كما هو معروف في تاريخ العرب. وبعد مراسم التتويج يتقبل السلطان التهنئة والبيعة من أهل المراتب وكبار القوم ثم يتجه إلى منزله. وهذه المراسم مشتركة بين حكام السودان عموما، من دارفور إلى وداي إلى الفونج وفازوغلي ومن إليهم، ولا تختلف الصورة إلا في التفاصيل. ويجري

تعيين كبار الولاة في سنار على يد السلطان بنفس الكيفية، وبعد التتويج يتلقى الوالي آلات الولاية والتي كان من بينها النقارة والطاقية أم قرنين. وكان من مراسم الفونج ألا يحمل النحاس إلا من له طاقية، أي الإجازة بالحكم بهذا التعيين. وبالنظر إلى هذا التدبير وحرص القبائل على اقتنائه للكينونة والوجاهة فقد انتشر النحاس في البلاد الخاضعة للفونج والعبدلاب وأصبح لكل قبيلة نحاسها الذي يمثل شعارها ويحوزها زعيم القبيلة.

إذا كان للفونج مراسم تنظم إعطاء النحاس وتحدد من يحمله. وطبيعي أن نعتبر أن الفونج في أول أمرهم كانوا يستعملون الدنقر ثم اتخذوا النحاس بعد أن انتشر. وقد استوردوه من مصر.

نحاس سلطان الفونج

جاء في تاريخ كاتب الشونة عن آلات سلطان الفونج أن الفونج اجتمعوا حول السلطان اسماعيل بن الملك ناصر بن بادي نول ورتبوا أن يأخذوا من الوزير بادي كامل عدة الملك[1]. وجاء في خبر أن محمد أبو الحسن وزير محمد أبي لكيلك أخذ كامل الملك وصارت له كلمة نافذة وقدم الوزير رجب ولد محمد على خشم حوش أبيه بمنزلة الوزير وأعطاه النقارة أي النحاس من غير اذن أبي لكيلك فعاتبه في ذلك[2].

وكان من العدة الككر والطاقية أم قرنين، ويرد ذكرهما في مكان آخر، وكان منها النقارة ـ النحاس. وبالطبع كانت عند سلطان الفونج نحاسات كثيرة يدقها في مناسبات ويعطي منها لحكام الولايات تأييداً لتعيينهم ورفعا من شأنهم، ولم يكن ذلك إلا لخيار الحكام. وقد جاء في مقال لأركل عن أصل الفونج نقلا عن الرحالة بروس خبر عن النحاس أو النقارة وأهميته لدى الفونج، قال: كان عبد القادر بن أونسه السلطان التاسع من سلاطين الفونج، وكان ضعيفاً. وكانت له صداقة مع ملك الحبشة سوسنيوس. وقد أرسل له هذا الملك نقارة مزينة بالذهب وعليه سلسلة من الذهب تعلق به. وكان هذا

(١) كاتب الشونة، ص ٢٧.
(٢) نفسه، ص ٢٥.

بالطبع هدية ثمينة. وقد رد عليه السلطان عبد القادر بإرسال باز، وهو نوع من الصقر العزيز الذي يحبه العرب. ثم ثار عدلان بن أونسه وعزل أخاه عبد القادر وتولى الملك فهرب عبد القادر إلى جلقه واستقر بها تحت حماية الملك سوسنيوس الذي وفر له عيشاً محترماً على عادة ملوك الشرق. وفي نوبة تالية عزل بادي بن عبد القادر عمه عدلان واستولى على الملك. وكان شاباً متحمساً، وكانت نفسه تضيق من بقاء أبيه في حماية ملك الحبشة. وقد قيل له إن النقارة التي أرسلها ملك الحبشة إلى أبيه كانت تعني أن سوسنيوس يعتبر أباه تابعاً له، لأن النقارة هي علامة التبعية التي يرسلها الملك لأعوانه، وأن الرد له من قبل أبيه بالباز قد يعتبر عنه كاعتراف من قبل سلطان الفونج بالتبعية له. ولذلك أرسل بادي عند اعتلائه العرش إلى ملك الحبشة حصانين أعرجين أعميين[1].

وبمناسبة هذا النحاس الحبشي نذكر مرة أخرى أنه عندما حمل ملك الحبشة ياسونيوس على ديركن انضم إليه بعض العرب، وقد أعطى ياسونيوس شيخهم سيفاً ونقارة من النحاس[2]. وقد روى بروس أيضاً أنه نزل في مكان قريب من سنار وكان به يسمع دقات النقارة[3]. وقد علم أن النقارة تدق في سنار بعد الخامسة بقليل[4].

وقد بحثنا عن نقارة الفونج في متحف السودان وغيره فلم نجدها وبحثنا عنها في الكتب والوثائق فلم نقف إلا على هذا الخبر الذي أورده آركل والإشارة التي أوردها بروس ونتف ترد هنا وهناك.

وقد بحث عنها يوسف بن الملك حسن عدلان كثيرا. وكنا قد التقينا به أثناء زيارتنا لبلده عندما كنا نرأس لجنة تقسيم المديريات ووجدناه مشغولاً بتراث الفونج. وقد بحث يوسف عن نقارة سلطان الفونج واتصل من أجل ذلك بمجلس سنجة لعله يجد في أوراق المديرية القديمة شيئاً عنها، ولما لم

---

(١) بحث لآركل عن اليعقوباب، ملف مشروع الجزيرة برقم 4 .66. A.
(٢) بروس، ص ٨٨.
(٣) نفسه، ص ١٢٧.
(٤) نفسه، ص ٤٣٥.

يجد شيئاً تابع بحثه مع إداري كان يعمل هناك وظن أنه حمل معه بعض الملفات، ورغم تردده عليه كثيراً فإنه لم يظفر بشيء. واتصل بمكتبة جامعة الخرطوم ولم يجد ضالته. ثم اتصل بدار الوثائق القومية ولم يجد أيضا. والحق أنه تردد كثيراً بين سنجة والخرطوم والمعيلق وثابر بغير كلل.

وقد أمدني بثلاث وثائق هي كل ما وصل إليه، منها وثيقتان صادرتان في عام ١٩٣٠م والثالثة صادرة في عام ١٩٤٩م. وبمقتضى الوثيقتين الأولى والثانية فإن الملك حسن عدلان، والد يوسف، سليل ملوك الفونج، والذي أمد آركل بمعلوماته عن ككر الفونج، أخطر مدير مديرية الفونج بأن نقارتين من نقاقير الفونج آلتا في عهد المهدية إلى محمد ود ناصر وأنه احتفظ بهما حتى حوالى ١٩١٥م. وقد آلتا إلى ابنه سليمان الذي يحتفظ بهما في الأفطح. وقد ذكر أن سليمان كثير التجوال وقل ما يكون في الأفطح، وهو يخشى على النقارتين من البيع أو الضياع. وبما أنه الملك فإن من حقه أن يحصل على النقارتين. وقد طلب أن تقوم الحكومة بالاستيلاء عليهما وحفظهما بالمديرية حتى تسلمهما إليه في احتفال مناسب عندما تسمح الظروف. وقد وافق المدير على الطلب وأمر مفتش شمال الفونج بسنجة بأن يتصل بالأفطح ويستولي على النقارتين حتى يأخذهما معه عند زيارته بالباخرة لسنجة في نهاية سبتمبر. وقد فعل المفتش ذلك وأخذت النقارتان إلى المديرية. وعلى الأثر كتب المدير في أوائل اكتوبر إلى الملك يخطره بأنه قد استولى على النقارتين وأنهما جاهزتان في المديرية لاستلامه. ثم أضاف بأن الحكومة بالرغم من عنايتها بالأمر لا تعتبر نفسها مسؤولة عن ضمان حفظهما. ثم أضاف أنه يظهر من النقش الذي على النقارتين أنهما صنعتا في عهد السلطان بادي أبو شلوخ. وإذا صح ذلك فإن العهد بنحاس الفونج يرجع على الأقل إلى هذا السلطان والذي حكم بين ١٧٢٤ و١٧٦٢م، ولكن هناك ما يدل على أن نحاس الفونج يرجع إلى عمارة دنقس نفسه.

وفي الوثيقة الثالثة، وهي صادرة في فبراير ١٩٤٩م، يذكر مفتش سنجة أن الملك حسن عدلان متشوق إلى الحصول على نقارة ويتساءل إن كان من الممكن أن يحصل له على نقارة تكون زائدة في مخازن الحكومة. ثم يروي قصة نقارة الفونج حسب ما رواها له الملك حسن عدلان ويقول إن نقارة

الفونج كانت تدعى تور وأن نقشه كان ينص على: «النقارة نقارة الدار أنشـأها السلطان عمـارة دنقس». ثم يضيف أن النقارة كـانت حسب مـا روي بـطرف المك يوسف بشير ولكنه لم يحافظ عليها بشرف كما تدعو التقاليد، وإنما أخذ منهـا النقوش الـذهبية، والتي كـانت تزن نحـو ٥٠٠ أوقية، لمنفعتـه ثم وضع النقـارة في مخزن وأغلق عليهـا. وعندمـا توفي المـك يوسف أخـذت النقـارة وأخرجت من المخزن ودقت إعلانا لـوفاتـه. ولكن النقارة التي كـانت غاضبـة لما فعله بها تدحرجت من تلقاء نفسها وألقت بنفسها في النهر.

وواضح أن طلب المك في الوثيقة الثالثة يتعلق بنحـاس حكومي يـرجو أن تهديه إليه الحكومة كما كانت تفعل بكبار رجال الإدارة ا لأهلية. ولكنه من الغريب ألا يذكر وهو يروي قصة نقارة الفونج أمر النقـارتين اللتين سلمتا إليـه بواسطة المدير في ١٩٣٠م. وقد روى قصة النقارة الثالثـة دون أن يبين صلتها بالآخرين. ولو صدقنا قوله بأن النقارة المعنية كانت تدعى تـور فإن هـذا يعني أن النقارة المعنية من الحجم الأكبر في طاقم النحاسات.

وإذا أخذنا بما رواه عن النقش فإن ذلك يعني أن نحاس الفـونج يـرجع إلى عمارة دنقس مؤسس السلطنة. ولا أكاد أصدق أن النقوش الذهبيـة بلغت في وزنها حد ٥٠٠ أوقية. وظاهر أن الك قصد الحط من قدر المـك يوسف. وما ذكره عن تدحرج النقارة ووقوعها في النهر لا يتعدى الخرافـة. ويلاحظ أن المـك حسن لم يبين لنا مـا آلت إليه هـذه النقارة. وقـد وقف أحـد الإداريين على النحاس الذي ذكره المك حسن عدلان ونشر عنه مذكرة قصيرة في مجلة السودان في مذكرات ومدونات[١]. وقد جاء فيها أن هـذا النحاس هـو نحاس سلطان الفونج، وأنه كان في حوزة السلطان ناصر آخر سلاطين الفونج والذي انتهى ملكه على يد اسماعيل باشا في ١١ يونيو ١٨٢١، وأن هذا ربما يكـون النحاس الذي أشار إليه بروس، ثم يقول إن الذهب الذي كان عليه قـد أزيل في أوقات الشدة على أيدي الذين حازوه. وهذا يتفق مع رواية المك حسن. ثم أورد نص النقش، هكـذا: نقارة الـدار نقـارة السلطان (سـطرا) عمـارة بن السلطان عدلان (سطر) جدهم الكبير الجـاء (سطر) من لـول عمرهـا السلطان

---

(١) SNR vol. 50 No 4.

(سـطر) بـادي بن السلطان (سـطر) نـول نصـره الله (سـطر) آمين (سـطر).
والسطان هو عمارة دنقس مؤسس دولة الفونج، وقـد وصف أبوه بـأنه سلطان، وهو عدلان، وقد ذكر صراحة أنه جاء من لول ـ أي أن للفونـج سلطاناً قـادهم من لول إلى السودان. وقد جرى تعميـر النحاس على يـد السلطان بادي نـول الذي وضع هذا النقش.

وذكر لنا الأستاذ الطيب محمد الطيب أنه وقف على أقدم نحاس للفونج في جبـل الكيلي بجهة الكـرمك في حـوزة المانـج بشير رحمـه الله الذي ورد اسمه في تتويج ملك فازوغلي، وقال إن عليه تـاريخ صنـاعته وهـو ٥٧١ هـ.
وقـال إنه وقف أيضـاً على نحاسـات عبد الله بكـر في القضارف المكـونة من عشر قطع.

٣ ـ نحاس الفور:

تتويج السلطان:

عند تتويج سلطان جديـد يقوم السلطان من مقـره الذي قعـد فيه داخـل قصره بعيداً عن الناس لسبعة أيام ووراءه أرباب المناصب من الوزراء والملوك وأولاد السلاطين ويأتي إلى الديحايـة، أي المخزن الـذي به نقـارة السلطنة، فيقف أرباب المناصب خارجها بينمـا يدخـل السلطان ومعه الحبـوبات، وهن جملة من النسـاء كبيرات السن بقيـادة ملكتهن، وهن يحملن كرابيـج يصدرن بها أنغاماً، ويأخذ السلطان قضيباً ويضرب به المنصورة، وهو نحـاس السلطنة المقـدم، ثلاث ضـربات والنسـاء محيطات بـه ويضربن الكـرابيج[1]. ومعنى ذلك أن السلطان صار صاحب النحاس وبالتالي صاحب الملك والسلطة على ما كان عليه أجداده، وصوت المنصورة هو النذير بذلك لرعاياه. وبذلك يصل الاحتفـال قمته ويصيـر من حق السلطان ممارسـة سلطتـه. وبعـد ذلـك يتجـه السلطان إلى ديوانه ويقعد على الككر ويلبس جلابية بيضاء ويضع الأبو أرلنقو الطاقية على رأسه ويلف آخر من الأعيـان العمامـة على الطاقيـة ويضع ثـالث الشال على العمامـة. وهؤلاء الثلاثـة من أهل المـراتب في الدولـة. وبعد أن

---

(١) التونسي، ص ١٦٤.

يكتمل لباسه على الككر يتلقى البيعة والتهنئة من رجال دولته وهو جالس عليه. وهذه هي الحالة الوحيدة التي يجلس فيها على الككر لأن جلوس السلطان يكون على الأرض فوق السجادة. أما الككر، والذي يصنع لكل سلطان خصيصاً لهذه المناسبة، فيرسل إلى الديحاية. بعد أن تتم البيعة ينتهي حفل التتويج وينصرف الناس.

وكان الحفل يقام في قصر السلطان، ويتجه السلطان بعده إلى جناحه الخاص. ولكن السلطان محمد الفضل بنى قصراً جديداً واستقر فيه مع الاحتفاظ بأدوات السلطنة في القصر القديم وإجراء الاحتفال فيه. وإذا ما انتهى الحفل فإنه وخلفه كانوا يبقون في القصر القديم أياماً ثم ينتقلون بعدها إلى القصر الجديد. ولم يكن بعض مراتب الدولة راضين عن اقتصار محمد الفضل بوزيره الجديد دونهم فانتقدوا مقامه في القصر الجديد مع وزيره مع بقاء آلات السلطنة في القصر القديم حيث كانوا هم يسكرون، وقال أحدهم ماذا لو تركنا السلطان في قصره الجديد مع وزيره وجعلنا سلطاننا هنا بأدواتنا. وقد بلغ ذلك السلطان فأوقع عليهم عقوبات قاسية[1].

الاحتفال بتجليد النحاس:

ويتم الاحتفال بتجليد النحاس كل عام، ويمتد الاحتفال أياماً، قيل من ٦ إلى ٨ أيام وقيل إلى عشرة أيام. وهو يتكون من ثلاثة احتفالات، الاحتفال ببداية الموسم الزراعي وتجليد النحاس ووليمة الكندنقا. وكان الاحتفال يتم في أول الخريف لأنه بدء الموسم الزراعي، ولذلك اختلف تاريخه بين الرحالة الذين وصفوه تبعاً لزمن الخريف الذي صادفه كل منهم.

ويتم في هذا الاحتفال أهم أعمال الدولة السنوية. فالسلطان يستعرض جيشه ويظهر قوته لأتباعه وجيرانه إنذاراً لكل من تحدثه نفسه بالتصدي والمعارضة. ويأتي زعماء القبائل وحكام المناطق وعلية القوم عموماً ويشاركون برهاناً لولائهم وتجديداً للعلاقات وهم يحملون ما عليهم من الضرائب وما يقدمونه من هدايا. ولا بد أن اجتماع قادة المجتمع في السلطنة كان مهماً كأداة تعرف فيما بينهم وبين السلطان ووزرائه وأهل مراتبه. وفي

(١) ناختقال، ص ٣٠٢.

إطار الاحتفال تتم أمور تذهب إلى تأمين سلطة السلطان ونظامه، وهو المعني من طعام الكندنقا الذي لا يقوى على تناوله من كان في نفسه شر ومن الأسرار المحيطة بالثور الذي يذبح للتجليد وكيفية ذبحه.

ويبدأ الحفل بالكرامة التي تتم في مقبرة السلاطين في طره بجبل مرة، إذ تذبح الثيران ويأكل المشتركون في الحفل لحمها ويوزعون الباقي على الجيران ثم يقرأون الفاتحة وبعض القرآن صدقة على أرواح السلاطين. وقد دفن هنا كل السلاطين ما عدا أبو القاسم وعمر ليل، أولهما مات مغضوباً عليه لهزيمته أمام الودّايين ولإجراءاته القاسية ضد علية الكيرا، وقد حرم من كل تكريم حتى من الدفن في المقبرة والفاتحة له في هذه الكرامة، والثاني مات في ودّاي وهو أسير.

ومن هناك ينتقل المحتفلون إلى مقبرة ملوك العهد الوثني في جبل كورا في الطرف الشمالي من جبل مرة ويذبحون مزيداً من الثيران قرباناً، وهم لا يقرأون لهم القرآن لأنهم لم يكونوا مسلمين.

ومن ثم يبدأ الحفل في الفاشر، وأوله الاحتفال ببدء الموسم الزراعي: يعد حقل للسلطان خارج العاصمة للزراعة وينظف بحيث لا يبقى فيه إلا شجرة واحدة. وعندما يقدم السلطان في موكبه ويحل بالحقل يؤتى له بجلابية بيضاء وطاقية وعمامة وشال وصندلين فيلبسها بمعاونة بعض أهل المراتب على نحو ما وصفنا في مراسم التتويج تيمناً بموسم جيد وسنة سعيدة. ثم يتقدم نحو الشجرة الباقية ويناوله ملك الحداحيد فأساً فيقطع بها الشجرة، وعلى التو توضع الشجرة المقطوعة مع القش وبقايا الأشجار التي جمعت عند النظافة ويوقد السلطان النار عليها. وبعد ذلك يحفر السلطان سبع حفر ويبذر فيها حبات الدخن وتمر وراءه الحبوبات ويغطون الحفر السبعة بالتراب ويجعلونها معدة للإنبات عندما يأتي المطر بالماء. وبذلك يكون السلطان قد بدأ الموسم الزراعي.

وفي طريقه من الحقل إلى قصره يقوم السلطان بصيد الأرانب والغزلان، وهم يعدون له الأمر بحيث يصطاد فعلاً وإلا عد فألاً سيئاً. ولعل ذلك بدء موسم الصيد أيضاً.

وعند غروب هذا اليوم يختار السلطان ثورين وعجلاً من بين ما يقدم له للذبح في اليوم التالي لتجليد النحاس، ولا بد أن يكون لـونها الأسمـر. وهذه الحيوانات تربى في مزرعة السلطان بجبل مرة تربية فيها عناية خـاصة. وكـان يعتقد أنها لا تنام بعد اختيارها حتى يحين ذبحها، ويقوم الدامزوق بالمحافظة عليها، وهو الذي يحرمها من النوم.

وفي صباح اليوم التـالي يبـدأ حفـل التجليـد، وهـو يكـون في قصـر السلطان، وذلك عندما يأمر السلطان بنزع جلود الطبول، وهنـا يخرجـون منها الشحم الـذي أودع فيها عنـد تجليـدهـا في العـام السـابق ويـوزع على كبـار المراتب ليأكلوه، وكانوا يعتقدون أنه يشفي العيون. ويوضـع شحم جديـد في النحاسات قبل تجليدها. ثم يقوم السلطان بذبح الثـورين والعجل بنفسـه بعد أن يناوله ملك الحداحيد السكين. ويعتقد الناس أن الحيـوانات تـرقد بنفسهـا وتأخذ موضعها دون أن يدفعها إنسـان، ولا يمسك على رقبتهـا أحد، ويعتقـد الناس أن الدامزوق هو الذي يدفعها إلى كل ذلك. وعندما يشرع السلطان في الذبح فإنه لا يسمي الله على عـادة المسلمين، وربما كـان ذلك نـظراً لوجـود الدامزوق ودوره لأن البسملة تطرد الشيطان. ويتولى السلخ بعد ذلك مجموعة من أهـل المـراتب بقيـادة ملك الحـداحيـد. فـإذا تم أخـذوا الجلد لتجليـد النحاس. وكان السلطان عند تحديد الثورين أشـار إلى أحدهمـا بعصا خـاصة تسمى كنجارو، وهذا الثور بعينه هو الذي يؤخذ جلده لتجليد المنصورة.

ويقوم سلطان الحداحيد بوضـع الجلد على فتحة النحـاس ويثبته بينمـا يعـاونه الأعيـان الآخرون بـالشد. ويتم كـل ذلـك وسط الأغـاني وعلى أنغـام الطبول وهتاف الجماهيـر. ثم يتقدم السلطان حتى يصـل إلى مكان النحـاس ويقـوم بتقطيـع ضلعة من الثـور نفسه فـوق المنصـورة، وتعـد الضلعـة بحيث يقطعها السلطان بيـده بغير صعـوبة، وإلا عـد شؤماً. وعنـدئذ يصـل الاحتفال قمته وتعلو أنغام الطبول والزغاريد.

وفي اليـوم التالي يـذبح طـواش - أي خصي - بلون أبيض وحول عينيـه سـواد ويوزع لحمـه على أهل المـراتب على أسس معروفـة بحيث يتلقى كل مرتبة طـرفاً معينـاً. وكان من نصيب شيـخ الجلابـة فخذ إلى أسفـل الرجـل،

وربما كان ذلك مناسباً للجلابة الذين يقطعون البلاد ببضائعهم. وبالطبع فإن المراتب ترد على هذه النفحة السلطانية بالهدايا المناسبة.

وبعد ثلاثة أيام تعد وليمة كندنقا، وهي تعد من أطراف متعفنة من لحم الطواش والشحم الذي يخرجونه من النحاس ومقدار كبير من الشطة، فتصير الوليمة صعبة التناول لعفنها وحرارة الشطة الشديدة. ويقعد أهل المراتب ويأكلون وخلفهم يقف الحراس بسيوف مشهرة يقضون بها على الفور على كل من تصدر منه حركة تعفف أو عطس، لأن ذلك يعني إضمار الشر للسلطان.

وتعقب الوليمة العرضة، حيث يستعرض السلطان فرسانه ويشاركه حكام المناطق برجالهم ويتم تقديم الهدايا والضرائب بعد ذلك.

موكب السلطان:

ويخرج موكب السلطان مرتين في السنة وذلك بمناسبة العيدين في أول شوال والعاشر من الحجة. وهو يخرج من القصر السلطاني ويتجه إلى شرق الفاشر. ويتكون الموكب من جماعات تسير واحدة بعد الأخرى. ولكل جماعة مهمة تؤديها.

تأتي في مقدمة الموكب مجموعة من الرجال مهمتهم إبعاد الناس من طريق الموكب، وتأتي وراءهم حملة الهبابات السلطانية، وهي الهبابات التاريخية، وتعرض كآلات من آلات السلطنة ومحفوظة لهذا الغرض، وهي بالطبع بخلاف ما يستعمله السلطان شخصياً، ثم تتبعهم حملة العلم الأخضر، وهو العلم السلطاني، ثم حملة السلطية، وهي حربة مقدسة، وتعتبر أهم حراب السلطنة. وهم يعتبرونها المذكر بين الحراب. ثم تأتي الحراب الستة المقدسة، وتعتبر عندهم مؤنثة وأقل أهمية من السلطية، وهذه الحراب ملفوفة بالجوخ الملون. وحربة السلطية الأكثر انتشاراً من بين الحراب، ويتخذها القادرية بصفة خاصة. ثم تأتي السجادة الملكية محمولة على جمل وسجاجيد أخرى غنمها السلاطين من القبائل مثل سجادة البرقد وسجادة القمر، وكانت هذه تحمل على الحراب، ربما دليلاً على أنها غنمت. ثم يأتي المصحف ملفوفاً في قماش ومحمولاً على ظهر حصان، وهذا المصحف يحفظ في الديحاية ضمن أدوات السلطنة. بيد أن مصدرنا لم

يذكر لون القماش الذي لف به المصحف مع أنه ذكر ألوان ما لفت به الحراب والككر. ومع المصحف تعرض الشمسية وهي كالهبابات تعرض كآلة من آلات السلطنة. ويأتي بعد ذلك نحاس المنصورة أو المنصورية كما يسمونها. وفيما يبدو فإن هذا كان مكان منصورية الفور التي غنمها الودّاويون بعد هزيمة السلطان أبي القاسم، وقد احتل مكانه نحاس العبدلاب الذي غنمه السلطان تيراب وسماه منصورية، وقد صار أكثر تقديساً عند الفور، وحتى بعد أن استرد الفور منصورتهم من الودّاويين حافظوا على مكانة منصورة العبدلاب وتقديسها، وكانت نحاساً صغير الحجم. وتأتي وراء المنصورة خمسة نحاسات وتليها في صف آخر خمسة نحاسات أخرى، وهذه هي النحاسات التاريخية للفور بجانب المنصورة الرئيسية. وقد ذكر ناختقال أن خمسة جمال في موكب السلطان الذي شاهده كانت تحمل النحاسات معلقة بطرفيها وجلس الضاربون خلفها وهم يدقونها، ثم جاء بعدهم النافخون في الأبواق وضاربو الطبول البلدية[1]. ثم يأتي بعد النحاسات الفرسان، وبعدهم جملة من النسوة كبيرات السن يحملن أموراً كثيرة تؤدين بها أغراضاً تتصل بالموكب. ويتم كل ذلك مع ضرب النقاقير والموسيقى والأجراس فيصدر صوت ضخم يزيد من جلال الموكب. وفوق رأس السلطان مظلة واسعة جداً تظلله وجواده ومن ورائه رجلان يحملان هبابتين كبيرتين يزين حواشيهما ريش النعام لحجب الشمس عن ظهره، وعن كل من جانبيه هبابة يحملها رجل يروح بها عليه. ويتقدم السلطان وحده إلى النحاسات ويدور حول الجمال التي تحمله فيهز السيف فوق كل نحاس. أي أن العرض على النحاس وقف على السلطان لأنه شارته ورمزه. وكان السلطان في الموكب يركب حصاناً أبيض اللون. وكان للحصان الذي يركبه وغيره من خيول السلطان ملك خاص وخدم يعملون تحته، وكان كل سلطان يأتي بطاقم من هؤلاء. وهذا الملك مسؤول عنها أمام إحدى نساء السلطان. ولا بد أن يقدم الملك طعاماً جيداً لخيول السلطان ويحافظ على نظافة حظائرها وأن يجلب لها العشب الطازج في أيام الخريف. ولأهمية الخدمة التي يقوم بها هذا الملك وأعوانه تولم لهم وليمة خاصة عند بداية كل خريف.

(١) ناختقال، ص ٣٤٣.

النحاس وعوائده:

وقد أحيط النحاس بمجموعة من المعتقدات كرست لإضفاء القداسة لحماية السلطان ونظامه. فالدامزوق، وهو جن له قوى خارقة في الحفظ، هو الذي يتولى حراسة نحاس السلطان، وإذا وقع خطر في أي وقت فإنه يبادر بضرب النحاس إنذاراً فيقبل الناس لمواجهة الموقف[1]. ومن هنا كان الاعتقاد العام بأن النحاس يدق في حالات الخطر بغير أن يدقه بشر. وفي حالة من الحالات اعتبر دق النحاس من تلقاء نفسه أو بالدامزوق فيما يعتقدون بأنه علامة على انتصار السلطان، وكان ذلك دفعاً قوياً لجانبه. ذلك أن الحرب اشتدت بين السلطان محمد الفضل ووزيره محمد كرا، وكان الأخير يقود قوة هائلة ويعرف قيادة الحرب، وبات الأمر بين هذا وذاك، فلما دقت المنصورة ليلاً بغير داق أيقن الفور بأن ذلك علامة نصر السلطان على كرا وتحول الكثيرون إلى جانب السلطان[2]، وقد تشجع المحاربون وحملوا حتى هزموا كرا وقضوا عليه. ومنه السحر الذي أضفوه على درع سليمان فاعتقدوا أن سليماناً إذا هز درعه جاء بالنصر من غير شك[3].

وقالوا إن الثور الذي يذبح لتجليد النحاس بجلده محروس بالدامزوق الذي يقوم بالعناية به حتى يحين الوقت لذبحه، وهذا الثور لا ينوم هذه الأيام. وعند الذبح فإن الدامزوق يرقده، فيبدو للناس وكأن الثور يرقد بنفسه للذبح آية على تقديس النحاس. وعند الذبح لا يمسكه الناس وإنما يمسكه في اعتقادهم الدامزوق، فيبدو وكأن الثور يؤدي هذه الخدمة للسلطان ونحاسه عن طواعية. ومعنى كل ذلك أن الثور مكرس لهذا المهمة وأن الدامزوق مكلف بالرعاية والمعاونة في كل المراحل لما لهذه المناسبة من أهمية. وكل ذلك يجري مجرى حماية السلطان وحكمه. وعند الذبح لا يسمى، أي بسم الله، ربما لخاطر الدامزوق، لأن البسملة تطرد الجن، أو ربما لأن هذه العادة أقدم من الإسلام عند سلاطين الفور. والشحم الذي يخرجونه من النحاس عند إعادة التجليد يفيد في علاج العيون، ويقبل عليه العلية لالتهامه. واللحم

---

(١) التونسي، ص ١٦٤.
(٢) ناختقال، ص ٢٧٨.
(٣) نفسه، ص ٣٠٠.

الذي يؤخذ من ذبائح هذه المناسبة لوليمة الكندنقا يعفن ويوضع عليه قدر من شحم النحاس والشطة حتى يكون شديداً على آكله من حيث العفن وشدة الشطة، فإذا عطس الآكل أو بدرت منه بادرة تعفف دل ذلك على خيانته أو إضماره الشر فيقضي عليه على الفور. ولا يعفى من هذا الامتحان حتى المريض، فإنه يرسل إليه ويمتحن.

وقد استغل النحاس كأداة للدبلوماسية فضلاً عن دوره في اعتماد الولاة. ومن ذلك عناية سلاطين الفور بنحاس سلطان الزغاوة كوبى، فالسلطان هو الذي أعطاهم النحاس تأكيداً لدعمهم ضد غزو من ودّاي وتقوية لسلطان كوبى نفسه أمام منافسيه داخلياً. وعندما هزم سلطان كوبى على عهد علي دينار أمام زغاوة ودّاي وغنمت نحاساته أسرع علي دينار بالتعويض بطاقم جديد من النحاس تأييداً لصمودهم ودعماً من قبله لهم. وعندما أراد سلطان ودّاي أن يخلق الوئام بين سلاطين المنطقة أمر السلطان أبكر بن إسماعيل بإعادة نحاسات سلطان القمر ونسائه التي غنمها في ١٨٩٥. وعندما أراد المصريون تكريس سلطة هجام في بلاد المساليت أعطوه النحاس الذي غنموه من هارون، وكان هارون أحد الثائرين لإعادة سلطنة الفور، وكان ذلك دعماً كبيراً لهجام، بيد أن المساليت اعتبروه ممثلاً للمصريين ولم يعتبروه حاكماً لهم ولا رأساً لحكامهم. ولكن هجاماً اعتبر النحاس رمز سلطته وقوته، ولذلك استبسل في الدفاع عنه حتى استرده من أعدائه في الواقعة التي هزم فيها وفقد حكمه.

ومن عوائد سلاطين الفور أنهم لا يضربون النحاس عند جلوس السلطان في ديوانه وإنما يضربون الدنقار، وقد وصف التونسي هذا الدنقار بأنه طبل عظيم من خشب، مجلد من جهة واحدة، أهرامي الشكل مقلوب له صوت عال[1]. والأباديما ـ وهو الوالي على بلاد الفور ـ كان يتولى الحكم على اثني عشر ملكاً من الفور، وكان إقليمه واسعاً، وله جميع ما للسلطان من الشارات والأبهة ما عدا النحاس، فإن طبله دنقار، وذلك لأن نحاس السلطان هو نحاس الفور جميعاً. وكان شراتيه وأهل مراتبه يحملون الدنقر.

---

(١) ناختقال، ص ٢٤٥.

وشيوخ العرب، وهم لا مكان لهم في تشكيل ولايات السلطنة، ترتب أمورها مع شيوخ النحاسات والذين لهم مرتبة عند السلطان.

وشيخ النوايبة في ودّاي على صغر قبيلته عنده نحاس معتمد، وذلك على عكس ما عليه الإجراء عند الفور، ويمارس به سلطته، وذلك بالنظر إلى أهمية قبيلته من حيث الموقع. وقد ذكر ناختقال أن شيخهم زاره وقال إنه يتمتع بالنحاس[١].

وكان النحاس هو الذي يفرق بين سلطان كبير وسلطان صغير في دارفور[٢]، لأن سلطان الفور لا يعطي النحاس إلا لسلاطين وزعماء القبائل الكبيرة.

وكان السلطان إذا عين والياً كبيراً أعطاه آلات تعظيماً لشأنه وتدعيماً لسلطته وقوته. وقد سبق أن ذكرنا ما كان عند الأباديما من آلات. ومثله ما أعطاه السلطان حسين من آلات لمقدوم الجنوب، وكان منها النحاس[٣].

وعندما قتل السلطان تيراب وزيره علي ود برقو أمر بضرب الطبول وجمع بها الوزراء والملوك ليخبرهم بما تم[٤]. وعندما انعقد الأمر على اعتلاء السلطان تيراب ثم بطلت قليلاً وضربت طبول الهناء إعلاناً لتولية السلطان الجديد[٥].

وعندما كانوا يستمتعون بزواج الميرم زهرة ضرب النحاس بنغمة الحزن فعرف الناس أن السلطان حسين قد توفي.

وكان السلطان يدق طبوله يوم الخميس إيذاناً بمقدم الجمعة، وقد أعتبر ناختقال أن ذلك يرجع إلى أن الفور كانوا لا يعرفون أيام الأسبوع وأنه يرى في الأمر شاهداً على تقدم العادات الإسلامية في مجتمع الفور[٦].

---

(١) ليدوين، ص ١٦.
(٢) التونسي: ص ١٦٩.
(٣) ناختقال، ص ٩٠٩.
(٤) التونسي، ص ٩٢.
(٥) نفسه، ص ١٠٢.
(٦) ناختقال، ص ٢٦٦.

ولكن رغبة السلطان بخلاف ذلك، وهي الترحيب بمقدم الجمعة، وهو يوم مهم عند المسلمين، وذلك على نحو ما يفعل الناس من إطلاق المدافع وخروج المواكب عند قدوم العيد ومثل ذلك ما يذكره آدم متز: إن من علامات سيادة الخليفة ببغداد أن يضرب على باب داره الطبول والدبادب والأبواق في أوقات الصلوات الخمسة ولا يوقف إلا في أيام العزاء.

وعندما ضجر الفور من مقام السلطان تيراب في ريل تحمس ثلاثة من فرسان السلطان فركبوا خيولهم وأتوا إلى النحاس وضربوه وجمعوا الناس للحرب بلا استئذان السلطان، وكان الوقت عصراً، فلبس السلطان عدة حربه وركب جواده وجاء إلى مكان النحاس فسأل الفرسان عن الخبر فقالوا إن نحاس السلطان هاشم أوقر آذاننا ونحاسنا ساكت فلم يعد لنا صبر على هذه الحال، فإما أن نسكت نحاس السلطان وإما أن نموت، فخرج السلطان للقتال.

ومن طرائف ما يذكر من أخبار نحاس الفور أن السلطان تيراب أمر الأب الشيخ بأن يتعلم القراءة والكتابة. فلما رسم الأب الشيخ حرف الواو ادعى أنه ختم القرآن ودق الطبول وأمر بذبح الذبائح[1].

تاريخ نحاسات الفور:

كانت مراتب الفور، سواء كانوا يؤدون عملاً للدولة أو نشاطاً قبلياً، يحملون الدناقر الخشبية ليؤدوا بها أعمالهم وباعتبارها شعاراً لكينونات قبائلهم ورمزاً لوظائفهم ومضاء لسلطانهم. وكان السلطان نفسه فيما يعتقد يحمل الدنقر. وعلى ما بلغنا مما أوردته الدكتورة ليدوين فإن هذا كان الحال عند المساليت، إذ حمل زعماء البدنات الدناقر، ولم يعرف المساليت النحاس حتى أعطى الأتراك نحاساً لهجام. ولأمر ما حمل السلطان أبكر الأجراس، ثم عدل ابنه إسماعيل عنها واتخذ النحاس.

وفيما تروي المصادر فإننا لا نعرف شيئاً عن دناقر أو نحاسات الداجو والتنجر والذين حكموا دارفور قبل أن يستولي عليها الفور. وفي الطرف الأول من عهد الكيرا، أي البدنة التي منها سلاطين الفور، تختلط الأخبار بين

(١) التونسي، ص ٢٥٤.

الدنقر والنحاس، ولكن ذلك راجع إلى الخلط العام في استعمال اللفظين. وبشكل يكاد أن يكون ثابتاً فإن السلطان أحمد بكر (١٦٨٢ ـ ١٧٢٢) هو أول من حمل النحاس من سلاطين الفور. وقد قيل في ذلك إن نحاسه صنع في منطقة دوبي بجنوب غرب الفاشر بواسطة حدادين يسمون لبابين. ولكننا نستبعد صناعة النحاس في دارفور، لأنه فوق مقدرة الحدادين. ويقول أبو سن في مذكراته إن هذا النحاس بقي إلى أيام علي دينار وأنه رمم في عهده بواسطة ريحان علي الدينكاوي.

وقد امتلك سلاطين الفور عدداً من النحاسات لاستعمالها في الاحتفالات وعدداً آخر لإعطائها لقادة الجيش وحكام الولايات. وكان إعطاء النحاس لحاكم الولا ية بمثابة إضفاء الشرعية لحكمه، وبعدم ذلك يكون خارجاً ينبغي محاربته، كما أنه يعني من جانب آخر خضوع أهل الولاية لحكمه، وإلا فإن من يخرج عليه يعتبر خارجاً على السلطان. وفي نفس الوقت فإن قبول الوالي للنحاس كان إقرارًا منه بتبعيته للسلطان وخضوعه لحكمه.

وكانت نحاسات السلطان سبعة، يعتبر بعضها أنثى وبعضها ذكراً، ومن أشهرها البيضا والمنصورتان.

وبالطبع فإن النحاس التاريخي الأول كان منصورة الفور. وقد غنمه صابون الودّايي من السلطان أبي القاسم بعد الهزيمة المنكرة التي لحقت بالفور. وقد جرح السلطان في هذه الواقعة، إلا أنه عاد إلى عاصمته بعد أن أبلى، ولكنه أعدم في الميدان بشكل بشع لأن سلطاناً آخر كان قد أقيم ولأن مراتب السلطنة كانت غاضبة عليه. والواقع أن الفور لم يشفعوا لهذا السلطان حتى بعد إعدامه[1]، فإنهم حرموه من الفاتحة ومن الصدقة التي تقدم لسلاطينهم سنوياً. وقد احتفظ الودّاويون بالنحاس لما يقرب من نصف قرن حتى استرده السلطان محمد الفضل حوالي ١٨٣٨ أو ١٨٣٩. وعند سقوط سلطنة الفور على يد الزبير رحمة تمكن الفور من أخذه بعيداً، وقد حمله ثوارهم الذين قاوموا الحكم المصري شعاراً لهم. ثم غنمه النور عنقرة من

---

(١) ناختقال، ص ٢٨٦.

الأمير هارون بعد هزيمته في دار القمر. ويبدو أن النور عنقرة استولى على أكثر من نحاس من نحاسات الفور، فقد أعطى من نحاسهم نحاساً لهجام الذي ولاه على المساليت. وقد احتفظ النور بالمنصورة حتى سقطت بارة التي كان يقود إدارتها فسلمها للمهدية مع الآلات الحربية الأخرى. وقد قام المهدي بدوره بإعطائها إلى الخليفة عبد الله فحملها إلى نهاية عهده. وهي نحاس الخليفة عبد الله الرئيسي المعروف بالمنصورة.

والمنصورة الثانية هي منصورة العبدلاب ويعرف بالشبالنكيت. وقد غنمه السلطان تيراب من العبدلاب في ١٨٧٤ وجعل له المقام الأول بين نحاسات السلطنة. وكان ذلك تعويضاً لهم عن المنصورة التي غنمها الودّاويون بعد هزيمة أبي القاسم والذي هو نحاس الفور الأول تاريخياً، وسرعان ما أضفى عليه الفور من الأسرار والعناية ما رفعه إلى مقام التقديس. وحتى عندما استرد الفور نحاسهم التاريخي من الودّاويين احتفظوا لمنصورة العبدلاب مقامه الأول. وبالطبع فإن هزيمة تيراب للعبدلاب وحصوله على نحاسهم كان أمراً تاريخياً ونصراً عظيماً من حقه أن يعتز به وأن يحتفل بالنحاس الذي غنمه هذا القدر من الاحتفال.

وكانت مناسبة قتال السلطان تيراب مع العبدلاب أنه خرج بجيشه لمحاربة السلطان هاشم سلطان المسبعات الذي كان يحكم كردفان وخيل له أنه قادر على الاستيلاء على دارفور وبدأ الاعتداء. ولما رأى هاشم قوة تيراب فر إلى الشرق والتجأ إلى سلطان سنار. فسار السلطان تيراب في أثره حتى بلغ النيل والتقى به العبدلاب بجيشهم بتكليف سلطان الفونج وحاولوا منعه من الوصول إلى النيل، إلا أنه أوقع بهم هزيمة شديدة فحمل من بقي منهم نحاسهم وفروا به يطلبون النجاة، إلا أن جيش السلطان تابعهم حتى غنم منهم النحاس بالرغم من بلائهم في سبيله والذود عنه حتى قتل منهم سبعون رجلاً. وقد سر تيراب بالنحاس سروراً بالغاً حتى طلاه بالذهب من الداخل والخارج وعمل له نهوداً من الذهب وحفظه الخلف عن السلف إلى انقضاء ملكهم. وعند سقوط السلطنة على يد الزبير حمل النحاس إلى القاهرة[1].

(١) نعوم شقير، ص ١٢٠.

وكانت الشبالنكيت عزيزة عند العبدلاب، وفيها قالت المغنية مخاطبة شيخ العبدلاب:

سموني فصيحة وحسي سبلنكيت
جيتك من هناك سمعانه بيك يا أب ظيط

ولكنها لم تبق للعبدلاب ولا للفور، وسبحان مقلب الأمور!

أما نحاس البيضا فكان ترتيبه بعد المنصورة، وكان أصلاً من نحاسات السلطان آدم سلطان ودّاي وغنمه الفور منه في إحدى حروبهم.

وكان للنحاس ملك له مكانته في بلاط الفور، وهو المنوط بحفظ النحاسات وجميع آلات الدولة، وهو يخرج بجنده محيطاً بنحاسات الفور السبعة وفي مقدمتها المنصورة ثم البيضا. وكان عند جميع السلاطين في بلاد السودان رجل من رجال الدولة يؤدي هذه الوظيفة. وقد احتكر هذه الوظيفة في دارفور أسرة من أسر الفور، واشتهر من تولاها إبراهيم رماد، وبعد وفاته تولى ابنه سعد النور. وحفيده تبن احتل نفس الوظيفة عند علي دينار وتزوج ابنته.

وذكر آركل رجلاً من التنجر يدعى أحمد جمعه وقال إنه تولى هذه الوظيفة عند علي دينار، وهو أمر لم نستيقن منه. وقال عنه آركل إنه ولد في أواخر أيام السلطان حسين وأنه صار ملك النحاس في عهد السلطان علي، وكان هذا الرجل ممن أخذ عنه آركل بعض معلوماته.

وكان من بين العاملين في قصر السلطان علي دينار حداد يدعى ريحان علي، وهو دينكاوي الأصل، وكانت مهمته صيانة النحاسات، وهو الذي رمم نحاس الفور القديم على ما بينا.

وكان يرسم على النحاس علامة الكيرا على هذا الشكل، وهو الوسم الذي يضعونه على جمالهم. وقد سبق أن وجدنا هذا الوسم محفوراً في حربة اليعقوباب.

نحاس علي دينار:

وعند اعتلاء علي دينار عرش السلطنة اتخذ كثيراً من أدوات السلطنة القديمة، وكان من بينها:

١ ـ الككر، وقد صنعه من الخشب كعادة الككرات، وإن كان السلطان محمد الحسين جعل ككره من العاج. وقد جعل السلطان أمامه مقعداً يضع عليه رجليه لرفعهما عن الأرض إذا قعد على الككر. ولم يحتفل السلطان علي بتتويجه على الككر لأنه اعتبر إعلان نفسه سلطاناً في عهد المهدية قائماً. ومع ذلك اتخذ في أختامه تاريخ استيلائه على الحكم حقيقة وهو سنة ١٣١٦. ولم يعرض السلطان الككر في احتفالاته على ما كان عليه العادة قديماً. وقد وجد ككره في بيت النحاس عند سقوط دولته.

٢ ـ وكان مما اتخذ من الأدوات الطاقية والعمامة والشال والرايات والسيف والحراب.

٣ ـ أبطل علي دينار فيما قيل عادة الكرابيج التي حملتها مجموعة الحبوبات. والواقع أن العادة كانت تتم عند التتويج. وإذ لم يجر تتويج السلطان علي كما قلنا فإن ظهورهن ينتفي منطقياً.

٤ ـ كانت عند السلطان نحاسات وطبول كثيرة، منها:

طبول صغيرة، تعرف بالجرس، كانت تضرب على ظهور الجمال، وكان هذا الطبل معروفاً من قديم، وهو الذي حمله السلطان أبكر سلطان المساليت ونفس ما أعطاه الإنجليز إلى مقدوم الشمال. وقد توسع السلطان علي في استعماله وشجع رجال دولته على اقتنائه واستعماله. وبعد سقوط الفاشر استولى قائد الحملة على هذه الطبول وأعطاها لمعاونه بشير حسن، والد اللواء حسن بشير أحد قادة عهد نوفمبر.

ونحاس آخر من نحاسات السلطان أعطى لحامد صالح الذي اشترك في الحملة، ونحاساً دار أمير وعطا الله في الأصل كانا هدية من الحاكم العام إلى السلطان في أول عهده كشارة اعتراف بوضعه، وكان معهما كرسيان وأربعة حراب نحاسية. وكان السلطان يرفع على الحراب علم السلطنة الأخضر، وقد بقي النحاسان في الفاشر ووضع أحدهما بمركز البوليس بالخير خنقاً والآخر برئاسة القيادة الغربية، وكانا يدقان للإعلام بالساعة.

وبخلاف هذه النحاسات الرئيسية كانت عنده نحاسات أخرى. وقد ذكر علي أبو سن في مذكراته أن نحاساته بلغت ٣٢ نحاساً كانت تضرب في

الأعياد لسبعة أيام على التوالي، وكانت تضرب في وقت واحد كل يوم خميس إيذاناً بيوم الجمعة فتخلق جواً من الرهبة والجلال في المدينة.

وكانت نحاساته فيما ذكرنا تحت عهدة تبن سعد النور الذي تزوج ابنته أرملة آدم رجال.

٤ ـ المهدية والنحاس:

وفي المهدية أبطل المهدي اتخاذ النقاقير على الوجه الذي يدل على السلطة أو الوجه القبلي باعتبارها مباهاة ورموزاً للحكم الدنيوي والكينونة القبلية.

وقد ذكرنا من قبل عند الكلام عن الخيل أنه منع المباهاة بركوب الخيل ولم يسمح به إلا لتعليم القتال وأنه منع ضرب النقاقير والطرنبيطة في أوقات النصر أو المباهاة. ولذلك جمعت النقاقير من كل الأنحاء وجمعت الككرات والرايات ـ ما عدا راية حسن ود حسونة الأجهورية التي أبقاها عند أحفاده ـ من كل مالكيها وأرسلت إلى أم درمان. وقد أوردنا بعض ذلك عند تعرضنا لنحاسات دارفور ونحاس أحمد كاره ونحاس البجة وككرات الفونج. إلا أن المهدي أبقى على استعمال النقاقير في الجيش، وذلك لدقها لجمع الناس ودفعهم بها إلى القتال. كذلك أبقى على الرايات لأنها من لوازم الجيش والقتال. وكان كبار الأمراء يحملون النقاقير والرايات. وكما تعلم فإن الخليفة عبد الله اتخذ منصورة الفور العبدلابية والأمباية ليجمع بهما الناس وليكونا في موكبه. وكما ترى من وصف موكبه فإنه اتخذ الموسيقى مع أنها كانت من محظورات المهدي في المنشور الذي نقلناه سابقاً، ولعله تجاوز لإدراكه بأثر الموسيقى في إثارة الحماس وبث القوة، ولعل التجاوز قد وقع في زمن المهدي نفسه.

وإليك وصفاً لموكب الخليفة عبد الله كما جاء في كتاب السيف والنار لسلاطين:

كان أمام الخليفة مباشرة في كل رحلة من رحلاته ستة من النافخين في الأبواق إيذاناً بمرور الراكب العظيم. أما السائرون وراء جواد الخليفة مباشرة

فهم الضاربون على طبول خفيفة ترمي إلى تحسين صوت البوق في أذني الخليفة الذي كان شديد الميل لسماع الأنغام. ومن اختصاص الأخيرين (الضاربين على الطبول) إصدار إشارات معروفة في المدينة لسير الركب أو وقوفه تبعاً لأوامر ورغبات الخليفة. فإذا ما انتهينا من أولئك جاء صف الحشم الخصوصي الذي كان يحمل أفراده محافظ جلدية فيها أوراق دينية وعالمية خاصة بشؤون الدولة.

وبعد أن ننتهي من صف القارعين على الطبول قرعاً خفيفاً نصل إلى صفوف خصيان الخليفة وصغار خدمه، وبين أولئك من يحمل آنية كبيرة فيها ماء للوضوء ويحمل غيره سجادة فاخرة لصلاة عبد الله، ويسير الآخرون حاملين الرماح. وفي بعض الأحايين يتقدم الموكب أو يخلفه ركب موسيقى مكون من خمسين سودانياً تتكون آلاتهم الموسيقية من مستخرجات قرون الوعول وتغطي الجلود طبولهم المصنوعة من تجاويف جذوع الأشجار الضخمة.

وكان يسير أمام الخليفة بشير كرار شيخ الهجانة والبريد وهو يحمل حربة في يده.

وفي العرضة كان الأنصار يقفون في صف متجهين إلى القبلة، وتأتي في أول الصف الراية الزرقاء، وهي أكبر الرايات، ومعها راية القيادة. وتليها الراية الخضراء، راية الخليفة الحلو، ثم الراية الحمراء، راية الخليفة شريف. ويركب المهدي ـ ومن بعده الخليفة عبد الله ـ على حصان ويمر أمام الصف.

وعندما يحتفل الأنصار بأمر أو بشخص كانوا يدقون النحاس أو يخرج جمع من الفرسان وحولهم جمع آخر من المشاة المسلحين ويسيرون على إيقاع الطبل. وقد فعلوا ذلك ترحيباً بسلاطين عندما جاء لمقابلته الأولى للخليفة عبد الله.

وقد وصف نعوم شقير موكب الخليفة فقال: «وكان التعايشي في أول أمره يستعرض جيشه في يوم الجمعة من كل أسبوع ثم عهد بذلك إلى أخيه يعقوب واقتصر على استعراض الجيش في أيام المواسم والأعياد، وذلك في

موكب حافل جداً. قالوا إنه كان إذا أراد الاستعراض المعروف عندهم بالعرضة أو الطر أمر من الفجر بضرب نحاسه «المنصورة» المشهور الذي وضعه في محل مرتفع في بيت الأمانة. فإذا سمع الناس صوت النحاس هرولوا إلى الجامع فصلوا صلاة الصبح وقرأوا الراتب. ثم ذهب البيرقدارية إلى بيت الأمانة فأتوا بالرايات وانضم كل رجل إلى رايته وساروا فرساناً ومشاة وهم يهللون ويكبرون إلى محل العرضة في ساحة فسيحة غربي المدينة يتقدمهم الراية الزرقاء فالرايه الخضراء فالراية الصفراء فيقف الكل صفوفاً مستقيمة من الجنوب إلى الشمال متجهين نحو الشرق. أما جهادية الكارة فإنهم يأتون رأساً من كارتهم ويقفون في الجنوب وإلى يسارهم الراية الزرقاء فالراية الخضراء فالراية الصفراء في أقصى الشمال ويقف الأمراء على خيلهم كل عند رايته في الصف الأول ويقف يعقوب والخليفة علي ود حلو والخليفة شريف كل على جواده عند رايته العامة بارزين عن الصف الأول. ثم يأمر الخليفة فتضرب الأمباية فيخرج جيش الملازمية ببنادقهم يتقدمهم شيخ الدين على جواده ويتبعه الأرباع الستة عشر ربعاً ربعاً صفوفاً متوالية في كل صف من ٦:١٢ رجلاً وأمام كل ربع رايته وأميره وفرسانه والبوري والطرنبيطة. ثم يأتي وراءهم الخليفة بقلعته فيحيط به ملازموه الأخصاء بالبنادق صفوفاً أربعة من الجهات الأربع أمامهم البلطجية. ومن ورائهم المتشمرون ثم جوق البيدو والصفار والفروع الحربية. وفي ساقة القلعة وعن جانبيها الخشخانجية وفي وسطها الخليفة على جمل أو جواد، فإذا ركب الجمل قاده محمد بشير كرار العبادي، وهو رجل طويل القامة كبير الهامة ومشى على جانبيه جوادان مسرجان وحمار مسرج ومن أمامه جوق الأمباية ومن خلفه أصحاب النفير العسكري لتبويق الوقوف أو المسير وخلف هؤلاء خدمه الخصوصيون من الأحباش وغيرهم يحملون ركوة الوضوء وسعن الماء وأدوات التزيين وفروة الصلاة والنعال والكبس والطبائق والرمح الذي يتوكأ عليه. ويسير الموكب إلى أن يصل أول جيش الملازمية عند منزل الخليفة في محل العرضة فيقف صفوفاً متوالية متجهاً إلى الشمال على زاوية قائمة مع صف الرايات فيمر الخليفة بقلعته من أمامه إلى أن يأتي المنزل فيحيط به ملازموه ثم يخرج من بينهم مع نفر قليل فيمر بالرايات مبتدئاً من جيش الكارة إلى أن يأتي على آخر

الجيش. وقد يقف في مروره عند أمير فيخاطبه قائلاً السلام عليك يا فلان طيبين، يا الإخوان الله يوديكم البركة، يا أنصار الدين الله يوديكم العافية يا الإخوان. هذا والأمير ورجاله يؤمنون على دعائه. ثم يرجع إلى منزله فيستريح قليلاً ويأمر الأمراء فيشيعون الرايات إلى بيت الأمانة ثم ينصرفون إلى أماكنهم ويرجع أصحاب الخيل منهم إلى ساحة العرضة لتشييع الخليفة إلى منزله. ثم يأمر جيش الملازمية فيرجع إلى السور براياته ويعود بقلعته على نحو ما جاء ووراءه الفرسان إلى أن يصل منزله فيدعو لهم فيؤمنون وينصرفون»[1].

(١) نفسه، ص ٦٢٢د ـ ٦٢٤.

العهد الثنائي[1]

عند بدء العهد الثنائي لم يلتفت رجاله إلى النحاسات. ولكن زعماء القبائل كانوا يدركون مفعولها، وقد عادوا إلى امتلاك النحاسات لدقها في المناسبات القبلية والعامة. وكان الاتجاه العام هو عودة القبائل إلى دورها بعد أن تفرقت في المهدية والعمل على الاستقرار وبناء إدارات قبلية وتوجيهها نحو تجميع أفراد القبيلة وحسن إدارتها. وشيئاً فشيئاً عادت النحاسات التي لم تصل إليها يد المهدية، وكذلك شارات الحكم الأخرى وأدوات الولاية. وأسرع بعض الزعماء يشترون النحاسات إما من مصر أو من الأسر التي تمتلك نحاسات، وكان ذلك بمعرفة الحكومة. وبعض أبناء العوائل الحاكمة قديماً أبرزوا نحاساتهم شارة للمجد القديم واعتزازاً بمجد الأسرة واتخذوها باعتبارها النحاسات القبلية التاريخية لما في ذلك من شرف كبير. ولكن الحكومة لم تعترف بمثل هذه النحاسات إلا إذا كانت لدى الزعامة الجديدة للقبيلة.

ولم تكن للحكومة سياسة محددة إزاء ما كان يتم ولكن المقتنين كانوا يرون ضرورة الحصول على إذن الحكومة عند الاقتناء، وكانت سلطة السماح بالاقتناء عند الحاكم العام. غير أن اعتبارات السماح أو المنع كانت تقديرية بحتة. ولم تنتبه دوائر الحكومة إلى مفعول النحاس وضرورة تبني خط للسماح

(١) اعتمدنا في هذا الطرف وفي القسم السادس على ملفات الإدارة الخاصة بالشؤون القبلية وعلى ملف الطبول القبلية بوزارة الداخلية وعلى ما سبقت الإشارة إليه من مصادر في الأقسام السابقة.

أو المنع إلا بعد أن اتجهت إلى بناء الإدارات الأهلية وتكالب الزعماء على اقتناء النحاسات كأداة من أدوات الوجاهة.

ولعل المقتطفات التالية التي اخترناها من مذكرات الإداريين تبين للقارىء الوجه الذي كان عليه الوضع ووجهات النظر الدائرة في دوائر الإداريين:

في مذكرة من مدير مديرية كردفان إلى مدير المخابرات في ٨/ ١١/ ١٩٢٠ يقول المدير إن الطلب من قبل بعض القبائل في المناسبات العامة ما لنظار القبائل الكبيرة من المكانة. ثم ذكر إن الإذن بالنحاس يأتي بقرار من الحاكم العام.

إلا أن هذا لم يكن قاعدة مضطردة، ففي دارفور على الأقل أعطى المدير في بداية الحكم النحاسات القبلية كمكافأة لبعض الزعماء أو للحث على الاستقرار.

وفي مذكرة من مدير المخابرات إلى السكرتير الخصوصي للحاكم العام في ١١/ ١/ ١٩٢٣ أنه لا يبدو أن هناك قاعدة محددة اتبعتها الحكومة بالنسبة لنوع الإذن - إذا كانت ثمة إذن أصلاً - الذي يعطي لشيخ قبيلة ليدق نحاسه. ولكن مهما كان الحال فإنه يبدو أن الناس كانوا يتصورون أن إذن الحكومة ضروري لحمل النحاس. على أن النظر إلى النحاس - قل الأمر أو كبر - يتجه إلى أنه نوع من الفنطزية. وقد قل اعتباره طبلة حرب في أذهان الناس.

وقد رد عليه الحاكم العام بأنه يرى أن الاتجاه بالنسبة إلى النحاس هو اعتباره، مهما كان الأمر، شارة للوظيفة، وفي تقديره أن هذا أمر ينبغي أن يشجع. أي أن الحاكم العام كان يعي دور النحاس وكيفية الاستفادة منه على الوجه الإداري بصفته أداة ترمز للسلطة القبلية وبالتالي عاملاً على تقوية الروح القبلية وسلطة الزعامة القبلية، وذلك مع اعترافه بأنه ليست هناك سياسة محددة.

وفي ١٩٢٩ يكرر أحد كبار الإداريين القول بعدم وجود سياسة محددة إزاء النحاسات ثم يقول: إنه مع ظهور سياسة الإدارة الأهلية وبعث الروح القبلية اكتسب النحاس أهمية جديدة. وحقاً بدأت الأدبيات حول النحاس

تزداد مع ازدياد الرغبة في حملها، وكان أهم ما يثير الإداريين وضع نحاسات دارفور ونحاس الكواهلة ونحاس بقارة النيل الأبيض.

ففي ١٩٣٢ يقول مدير كردفان في مذكرة أن حيازة القبيلة للنحاس تشريف للقبيلة وأنه يعطي مكافأة لعمل مجيد. وهو يقترح أن تعطي الحكومة النحاس بدلاً من أن يشتريه الناظر وأن يتم التقديم في احتفال، أي أن النحاس أصبح مردوداً لاستجابة الإدارة القبلية لتوجيهات الحكومة وبالتالي أداة إدارية.

ويقول نفس المدير إزاء النحاس بقارة النيل الأبيض إن نحاس مكي عساكر أبو كلام له اعتبارات كثيرة، منها السياسية التي تهدف إلى تقوية منصب الناظر وربط قبائل البقارة تحت إدارة واحدة، ومنها الاعتبارات التاريخية بالنظر إلى نظارتهم التاريخية ونحاسهم القديم، ومنها الاعتبارات الشخصية التي تمس شخص الناظر نفسه وتقدير أعماله. وقد أورد معلومات جيدة عن تاريخ أسرة عساكر أبو كلام. وهو يقترح أن يكون النحاس الذي يقدم لهم من قبل الحكومة شارة للمنصب والوظيفة وليس للشخص أو القبيلة وأن يكتب عليه اسم الناظر.

وفي السنة نفسها كتب المدير نفسه أن ناظر عموم الحمر أعطى طاقماً من النحاس يتكون من ثلاث قطع في أكتوبر ١٩٢٨ وأن نحاس المسيرية كان شخصياً لأنه اقتني بالشراء. ثم يعرج إلى الوضع بالنسبة للحيازة فيقول إن الحكومة تأذن للقبيلة بالاقتناء إذا كان لديها سند تاريخي وأنه لا يرى أن يقوم الناظر بالشراء بعد حصوله على الإذن لأنه عندئذ سيأخذ صبغة شخصية، وقد يرفضه المعارضون أو يرى البعض المساهمة في ثمنه نوعاً من الغرامة بغير معنى. ولذلك فإنه يرى أن تشتري الحكومة النحاس وتقدمه للناظر المعني باعتباره شارة للسلطة.

ويقول مدير دارفور إزاء نحاس الهبانية أن السياسة نحو النحاسات غير واضحة وأنه يسلم بمقتضى الحق التاريخي بحق الرزيقات والبيقو وزغاوة توار وبني هلبة، ولكن هذا المنحى لم يحافظ عليه لأن الناس لم يتقيدوا به. ومثلما كان السلطان هو الذي يعطي قديماً فإن الحكومة هي التي أصبحت

تعطي الآن. وبالنظر إلى أن الناس ينظرون إلى حيازة النحاس باحترام كبير فينبغي الحرص في تناوله.

واستجابة للضرورة الإدارية، وخصوصاً في مديريات دارفور وكردفان والنيل الأبيض، أرسل المستر جيلان السكرتير الإداري للحكومة منشوراً إلى مديري المديريات بتاريخ ٢٤/ ٧/ ١٩٣٥ يسأل فيه عن آرائهم توطئة لإصدار توجيه عام. يقول جيلان إنه من الصعب التمييز بين النقارة والنحاس من وجهة النظر اللغوية أو الإدارية. وبعد أن طرح موضوع النحاسات وأصوبية وضع مرشد للتعامل معها طلب من مديريه أن يعطوه الرأي حول الاعتبارات التي تؤخذ عند النظر في طلب لنحاس، ويقترح من قبله اعتبارات التاريخ - أي أن تكون القبيلة صاحبة نحاس تاريخي - والاتساع القبلي وأن تكون القبيلة موحدة، وأهمية القبيلة بالنسبة إلى الحكومة ووزنها وسلوك القبيلة وزعامتها نحو جيرانها ونحو الحكومة ومدى تعاونها مع الإدارة ومستقبل القبيلة من حيث استمرار كينونتها الإدارية أو الاتجاه نحو ضمها إلى إدارة قبلية كبيرة. ثم هل يشتريه الناظر نفسه أم القبيلة، وإذا كان لنفسه فإنه يتساءل عن استحقاقه لمثل هذا الشرف في وجود منافس له أو وجود احتجاج من البيت الحاكم القديم أو وجود معارضة معقولة من قسم من القبيلة أو إذا كان هناك احتمال لدمج القبيلة في إدارة قبلية أخرى ليكون النحاس تحت قيادة ثابتة أو إذا كان هناك احتمال بأن يؤدي اقتناء هذا الناظر إلى طلبات من نظار آخرين من نفس المنطقة. ولذلك وبالنظر إلى كل هذه الاعتبارات فإنه يرى أن يكون النحاس للقبيلة لا للناظر شخصياً وأنه لا ينبغي أن يبقى النحاس عند ناظر بعد أن يترك وظيفته.

وكان السكرتير الإداري نفسه قد أرسل إلى المديرين في ٢٤ مايو ١٩٣٥ يطلب إخطاره بعدد النحاسات في كل مديرية مع بيان ما إذا كان النحاس ملك القبيلة أو ملك شخص، وكيف تم الاقتناء، هل بالشراء أم هدية من الحكومة أم بالإرث، وذلك مع بيان أية معلومات مناسبة.

وبعد أن تلقى جيلان آراء المديرين أصدر في ٢٥/ ١١/ ١٩٣٥ منشوره المهم برقم 66 .L .66، وهو المطبق حالياً وإن كانت النحاسات قد

فقدت أهميتها الإدارية. يقول جيلان في مقدمة منشوره إن الهدف من إصدار توجيه عام إزاء النحاسات هو مد المديرين بما يسترشدون به عند تعرضهم لمسائل النحاس. ثم يبين أن حيازة النحاس شرف كبير للقبيلة التي تحمله وله مغزى عظيم بين القبائل. ثم قال إنه لم يسبق أن وضعت قواعد لامتلاك النحاس أو الاحتفاظ به. ثم أخذ يبين بعض القواعد التي يمكن أن تؤخذ في الاعتبار، منها التمييز بين النحاس الخاص والنحاس القبلي، وقال إن الأول هو ما يملكه فرد أو أسرة، وأما الثاني فهو رمز السلطة القبلية وله وزنه السياسي. ثم بيّن أن توجيهه يقتصر على معالجة النحاس القبلي فقط. ثم طلب أن يتقدم كل مدير بتوصياته عن الطبول التي كانت في حيازة القبائل ويرى أن تعترف بها الحكومة. وقد وضع لهم ثلاث قواعد يسترشدون بها عند تقديم اقتراحاتهم، وهي:

١ ـ أن تكون القبيلة المعنية غير منقسمة أو أن يكون الجزء الأكبر منها.
٢ ـ أن تكون القبيلة المعنية وحدة مستقلة أو المهيمنة في اتحاد قبلي.
٣ ـ أن يكون للقبيلة سجل حميد في إدارة شؤونها وفي علاقاتها مع الحكومة.

وقد ترك المنشور الباب مفتوحاً في حالة ما إذا كانت هذه القواعد لا تنطبق على إحدى القبائل ولكن هناك ظروفاً خاصة مثل استمرار حيازة القبيلة للنحاس لفترة طويلة.

وقد جاءته بعد ذلك مذكرة طويلة من مدير النيل الأزرق مؤرخة في ١٢/ ١٢/ ١٩٣٥ يعلق بها على التوجيه:

يرى المدير أن الكواهلة المستقرين في النيل الأزرق لا يستحقون نحاساً قبلياً بحكم استقرارهم ـ أي أنه يقتصر النحاس للقبائل الرعوية. ثم يقول إن عبد القادر الأعيسر يملك نحاساً، فكيف يكون الوضع إذا انضم الكواهلة إلى نظارة الكبابيش. ثم يتعرض إلى صعوبة الفصل بين النحاس والنقارة، ثم يتساءل كيف يمكن التلخص من النحاسات الشخصية مثل نحاس عبد الله شاع الدين شيخ خط الكواهلة. وهنا يقترح أن تحدد النحاسات الرسمية وتعتمد من قبل الحاكم العام وأن تترك النحاسات

الشخصية حتى تفقد معناها مع الزمن. وهو يرى أن الخطة المطلوبة ليست جمع النحاسات وإنما التقليل من النحاسات التي بأيدي الأشخاص أو القبائل التي لا تستحق. ثم يقترح أن تتولى الحكومة شراء النحاس لمن تراه مستحقاً وأن يؤخذ النحاس ممن لا يستحق كلما سنحت الفرصة. ثم يبين أن النحاس الرسمي مرتبط بالنظام القبلي ويتخذ أهمية خاصة لهذا السبب. وأحياناً يكون هناك نحاس عند شخص أو عائلة، إما لأنه موروث أو لأنه اقتني بالشراء بعد المهدية. ووضع مثل هذا النحاس هو أنه علامة للاستقراطية ولا يعني السلطة القبلية. ثم يذكر أن قبيلتين فقط في النيل الأبيض حائزتان على النحاس بالوجه الرسمي.

ويرد السكرتير الإداري قائلاً إنه لا يرى معنى للتحديد الذي طلبه المدير للنقارة والنحاس لأن المدلولات تختلف من مكان لآخر. وعن نحاس شاع الدين يرى أن التخلص من النحاسات التي لدى غير المستحقين صعب ولكن يمكن التخلص كلما سنحت الفرصة. وبالطبع ستكون هناك متناقضات لفترة طويلة مثل نحاس شاع الدين، ولكن النحاسات الشخصية سوف تتضاءل أهميتها مع الزمن حتى وإن لم نتخلص منها وتصير نحاسات شخصية وحسب.

وبشكل مختصر فإن الحكومة لا تعترف بالنحاسات الشخصية وتترك أمرها للزمن لتموت تلقائياً. أما النحاسات التي تعترف بها فهي النحاسات الرسمية التي أعطيت لزعماء الإدارات الأهلية دلالة على المنصب، وهي قد قررت أن تتولى الحكومة الشراء وأن تتقدم بها للزعيم في احتفال رسمي ويناوله الحاكم العام أو المدير نيابة عنه. والنحاس قبلي بمعنى أنه رمز للسلطة، أي أن أساس النظر في إعطاء النحاس هو الأساس الإداري. وقد اشترط لإعطاء النحاس أن تكون هناك رغبة قبلية حتى يجد النحاس الاحترام اللائق من الجميع.

وقد صدر منشور آخر في ٢٨/ ٢/ ١٩٣٦ برقم 66 .L. 1 بصدد تطبيق التوجيه.

وقد طلب من المديرين وضع قائمة بالنحاسات وعرضها على السكرتير الإداري. وقد أعد الإداريون القوائم إلا أن بعض المديريات لم تهتم لأن النحاس لم يشكل بها أهمية إدارية. وفي ١٥/ ٩/ ١٩٤٠ اعترفت الحكومة رسمياً باثنين وثلاثين نحاساً واعتبرت النحاسات الأخرى نحاسات شخصية.

وإليك هذه الصورة السريعة لوضع النحاس في أقاليم السودان:

كانت مديرية دارفور هي الأغنى بالنحاسات القبلية المعترف بها من قبل الحكومة، وأيضاً بالنحاسات التي لم تحظ بالاعتراف وعدت نحاسات شخصية، وذلك لأن النحاس كان أداة معتمدة اجتماعياً ومؤسسياً لتدل على السلطة القبلية والقوة والمنعة، ولأن تقاليد سلطنة الفور بقيت ممارسة ـ على عكس تقاليد الفونج التي تضاءلت ـ لاستمرار حكم الفور إلى أواخر سنوات الحكم التركي وإعادته على يد السلطان علي دينار.

وكانت النحاسات التاريخية ـ التي ترجع إلى عهد السلطنة القديمة كثيرة ـ ولكن لم يوفق أحد في وضع قائمة مستوفية يمكن الاعتماد عليها لأن المحاولات التي جرت لذلك كانت تعتمد على الرواة. وبالتالي فإننا نجد من وقت لآخر قوائم تختلف إزاء بعض القبائل وإن جاءت متفقة إزاء عدد من القبائل المهمة. وقد أعد الشرتاي حسب الله أبو البشر من بلدة تارني قائمة بالقبائل التي تملك النحاس في دارفور فبلغت ثلاثين قبيلة. وحسبما يمكن أن نجمع من الوثائق الماحة فإن القبائل التي كانت تملك نحاسات تاريخية مصدرها سلاطين الفور هي: البيقو، زغاوة توار، زغاوة قلا، زغاوة كوبى، بني هلبة، الداجو، البرقد، المساليت، قمر، الزيادية، تامة، الميدوب وأخيراً الزريقات. وكل هذه القبائل حازت على النحاس من قبل السلاطين كاعتراف بالكينونة القبلية والتبعية للسلطنة ما عدا الزريقات الذين غنموا نحاسهم من سلطان الفور. وقد ضاعت هذه النحاسات في حروب التركية وإثر سقوط السلطنة ثم في عهد المهدية حيث حظر حمل النحاس وجمعت النحاسات وأرسلت إلى أم درمان. ثم تجدد اعتمادها في عهد علي دينار. وفي أوائل العهد الثنائي وقع تجاوز في إعطاء التصديق بالنحاس لأن الإدارة

كانت تتعجل تقوية القبائل التي تقف مؤيدة للحكومة وتعمل على استقرار الأوضاع. ومن هنا حاز النحاس بعض من لم يكن لهم حق فيه بالمقياس التاريخي. ولكن بعد استقرار الوضع عادت الإدارة ترجع إلى الاحتكام إلى القواعد والتروي.

وظاهر أن بدنات الفور في جبل مرة وغيرها لا يسمح لها بحمل النحاس وإنما تعتمد في أداءاتها القبلية على الدنقر، وذلك لأن نحاس السلطان هو نحاس الفور. وكانت المنطقة الشمالية هي مهد الأغلب من النحاسات ومنبع مشاكل النحاس نظراً للصراعات القبلية داخلياً وعلاقاتها بالسلطة في الفاشر.

وكان لمسبعات دارفور سلطان يملك نحاساً مع أن أغلب المسبعات كانوا في كردفان.

وفي كردفان حاز ناظر عموم الحمر على طاقم من النحاس يتكون من ثلاث قطع في أكتوبر ١٩٢٨. وكان لناظر المسيرية محمد الفقير عدة نحاسات، فلما فصل من النظارة في ١٩١٦ وعين الشيخ محمد دفع الله ناظراً بدله باعها له في ١٩١٨ بمبلغ عشرين جنيهاً. وعندما فصل هذا الأخير باعها إلى الشرتاي الطيب صالح شرتاي الزغاوة قلا بعلم الحكومة، وقد قيل إنه حصل على ثمن جيد. وقد حصل الدواليب بالجبال الشمالية على نحاسهم بالشراء. وكانت هناك نحاسات في منطقة جبال النوبا أعطتها الحكومة لمكوك القبائل، وكان من أهمها تاريخياً نحاس ليري الذي غنمته الحكومة مع نحاسات أخرى إثر ثورة الفكي علي في ١٩١٧، وقد أعطى نحاس ليري إلى المك رحال مك تقلي. وبعد وفاة هذا الملك خلفه ابنه محمد والذي أعاد النحاس إلى أهله رغبة في زرع علاقات حميدة. ومع ذلك أثير الأمر بشكل ملتو وأثيرت الخواطر كثيراً حتى عرض في البرلمان في سنة ١٩٥٧.

وكان لمسبعات كردفان نحاس، وقد وقفنا على خبر نحاس هاشم المسبعاتي في خبر السلطان تيراب. وكان للغديات في أيام عزهم نحاس يتخذونه شارة وشعاراً.

وقد أوصى المدير بنحاس لقبيلة البديرية في ١٩٣٦، وقد منحت بالفعل في ١٩٣٨، وقد ورد ذكره في قائمة ١٩٤٠ للنحاسات مع نحاسات الجوامعة والمسيرية والحمر والدواليب ومملكة تقلي. وهذا بخلاف نحاسات الكبابيش ودار حامد التي نخصص لها كلاماً فيما يلي.

وفي منطقة النيل الأبيض ـ والتي كانت مديرية ثم صارت جزءاً من مديرية النيل الأزرق لم يعترف إلا بنحاسين هما نحاس قبائل البقارة عند مكي أحمد بدوي عساكر ناظر عموم البقارة ونحاس الحسانية. وبالرغم من أهمية الكواهلة فإنهم حرموا من نحاس معترف به. وكذلك الحال بكواهلة كردفان.

وفي مديريات النيل الأزرق والشمالية وكسلا كان النحاس القبلي قد فقد مضمونه بالنظر إلى الاستقرار الاجتماعي وقد أوشك أن يختفي وإن كان بعض الوجاهات قد احتفظت به كإرث موروث أو دليلاً على الوجاهة الاجتماعية. وهنا نذكر نحاسات السيد علي الميرغني والشريف الهندي والزبير رحمة والشيخ الكباشي. أما النحاسات القبلية فكان منها عدد في مديرية كسلا، نذكر منها نحاس الهدندوة. وكان نحاس الحلانقة مهماً تاريخياً. وفي الشمالية لم يكن للنحاس القبلي دور يذكر في العهد الثنائي، وقد جاء في مذكرة بالنحاسات أعدت في ١٩٤٠ أن نحاس ناظري دنقلا والجعليين قابلان للاعتراف إلا أن رئاسات القبائل الجعلية كانت تمتلك نحاسات، وقد بلغنا خبر نحاس الميرفاب والذي يسمى «أم كتيبة»، وهم لفرط اعتزازهم به خلقوا أسطورة حوله. قالوا إن إحدى خيول الملك عندما كانت تشرب في النيل سبحت وإذا بها تخرج وهي تجر جنزيراً مربوطاً في رجلها، فلما سحبوا الجنزير جاء النحاس مربوطاً في نهايته، ومن هنا سموه «أم كتيبة» وقال ود الفراش في ذلك:

تبقي لي طية مثل باشة عموم رأسها هيبه
أنا الفراش أبوي وقت نقروا أم كتيبه
شربة الدون تداوي بلا تريبه

وعن نحاسات النيل الأزرق ورد ذكر نحاس رفاعة الشرق الذي كان بطرف يوسف العجب، ونحاس حاز عليه أحمد العقبة في ١٩١٠ بالشراء

بإذن الحكومة عند تعيينه ناظراً على رفاعة الهوى، ونحاس العمدة عبد الله أحمد أبو شوتال ـ من الهمج شرق ـ الذي غنمه منه الأمير أحمد فضيل في ١٨٩٨. وقد بلغ عدد النحاسات بالنيل الأزرق ثمانية، منها اثنان عند الكواهلة بطرف العمدة جاد الله والعمدة عبد الله مرقى الضو، ولكن الحكومة لم تعترف منها إلا بنحاس البقارة والحسانية كما قلنا واعتبرت ما عداها نحاسات شخصية.

نقارة الوجاهة:

امتلك بعض الوجاهات النحاس كآلة متممة للوجاهة والمكانة الاجتماعية. وسوف نرى عند تعرضنا للنحاسات في العهد الثنائي أن بعضاً من الوجاهات القبلية احتفظت بالنحاسات واعتزت بها وأن بعض زعماء القبائل اقتنوا النحاسات واحتفظوا بها بالرغم من أن السلطات الرسمية لم تعترف بها.

ومن الوجاهات التي ملكت النحاس السيد علي الميرغني والزبير باشا رحمة، والأخير طبعاً كان يملك النحاس ويدقه في حروبه وفي ديمه علامة لسلطته، فنحاسه إذاً من مخلفات عهده الزاهر بالجنوب ويتم وجاهته الاجتماعية من بعد، ولذلك احتفظ بالنحاس في العهد الثنائي. وذكر لنا من على علم أن نحاساته كانت سبعة، وكن من أكبر النحاسات. ولسنا نسمع أنه كان للسيد عبد الرحمن المهدي نحاس. والمرء يستبعد امتلاكه له لاعتبارات سياسية وعقائدية. وكان الشريف يوسف الهندي ممن ملكوا النحاس. وكان الشريف مهتماً بالتاريخ وأنساب القبائل العربية في السودان، وله مؤلفات في هذا المجال إضافة إلى مؤلفاته الصوفية. وقد اقتنى عدداً من السيوف، ومنها سيف وزير الهمج الذي أهداه إلى المتحف القومي، وهو سيف أثري عالي القيمة، وقد أهدي إلى الرئيس عبد الناصر في إحدى زياراته إلى السودان. وقد اقتنى عدداً من النحاسات، منها نحاس قديم قيل إن امتلاكه يرجع إلى أيام المهدية. وربما كان له ذلك بصفته أميراً في جيش المهدية، لا بصفة أخرى، لأن المهدية منعت حمل النحاسات القبلية والشخصية. وقد أبقى الشريف نحاسه هذا في بلدة حرير دون أن يستعمله. وكان عنده نحاس آخر

أهـداه إليه فضـل الله ولد فضـل الكريم عمـدة أم أرضة في ١٩٢٥ بمنـاسبـة عودته من الحج . وقد أهدى الشريف بدوره نحاساً إلى الخليفة عبـد الوهـاب والشيخ إبراهيم الكباشي .

ومن باب الوجـاهة، أو محـاكاة لأهـل السلطة، وزيادة في الأبهـة اتخذ بعض أوليـاء السودان النحـاس ودقوه حيث أرادوا من منـاسبات وأوقـات، وقد بينا ذلك في التوطئة عند ذكر خبر أدوات حسن ود حسونة وصالح بانقا .

القسم السادس

النحاسات القبلية

نحاس الهدندوة:

كان لهم نحاس تاريخي جلبه ناظرهم محمد بك موسى ويلالي، وهو الجد الخامس للناظر المشهور محمد محمد الأمين ترك. ولما جاءت المهدية وعرف أنها تغنم النحاسات قام محمد موسى بدفن نحاسه، إلا أن عثمان دقنة أجبره فدل عليه فغنم وأرسل إلى أم درمان، ولم يسمع عنه بعد ذلك. وفي ١٩١٥ قام الناظر إبراهيم موسى بشراء نحاس من مصر دون أن يحصل على إذن من السلطات، وقد اعتبر نحاساً شخصياً ليس له مدلول قبلي أو رسمي. وفي ١٩٣٤ اقترح مدير كسلا أن يهدي الحاكم العام طاقماً من النحاس باسم ناظر عموم الهدندوة تقديراً لأعمال الناظر محمد محمد الأمين ترك، وقد وافق الحاكم العام وأهدى طاقم النحاس وقدمه المدير نيابة عن الحاكم العام في التجمع القبلي في عيقر في ٢٨/ ١١/ ١٩٣٤.

نحاس بقارة النيل الأبيض:

كان عساكر أبو كلام ناظر الجمع في التركية، وقد نزل عنده الشيخ محمد والد الخليفة عبد الله وأقام ببلده حتى توفي، وبعد وفاته ذهب عبد الله لمقابلة المهدي حيث التقى به في الحلاوين وكان ما كان من أمر. وكان عساكر ممن اتصل به المهدي قبل إعلان الدعوة وتعاهد، وبعد قيام المهدية لم يتقدم عساكر لصفه بالسرعة المرجوة، بل تباطأ، ربما خوفاً على قبيلته من انتقام الحكومة. وقد ساءت علاقاته بالخليفة فسجن وقتل.

وكان لعساكر نحاس، وقد جاء فيما أورد أحد الإداريين الإنجليز أن النحاس أخذ بعد سجنه في ١٨٨٦ وأرسل إلى أم درمان، وقد ساق هذا الإداري تاريخ نظارة عساكر وتاريخ أسرته، ويرد تقريره في ملف النحاسات المحفوظ بوزارة الداخلية.

بعد الفتح عادت الأسرة إلى القيادة، وقد اقترح مدير النيل الأبيض أن يعطي مكي أحمد بدوي عساكر ناظر عموم البقارة نحاساً لاعتبارات كثيرة منها السياسية لتقوية المنصب وربط قبائل البقارة، منها الأسباب الشخصية ثم الأسباب التاريخية التي تتعلق به وبأسرته. وقد انصب الاقتراح على أن يكون النحاس لناظر العموم بحكم وظيفته. وبناءً على هذا الاقتراح أعطى الناظر مكي أحمد بدوي عساكر النحاس في ١٩٣٢، وكان مكوناً من طاقم كامل من أربع قطع ونقش عليها «ملك عموم البقارة بمديرية النيل الأبيض باسم الشيخ مكي أحمد بدوي عساكر ١٣٥٠». وكان من المنظور أن تكتب أسماء خلفائه من بعده تحت اسمه، على ما ذكر المدير.

وحسب العادة المتبعة كان من المقرر أن يقوم الحاكم العام بتقديمه إلى الناظر عند زيارته للمنطقة في ديسمبر ١٩٣٢، ولكن نسبة لتغيب الحاكم العام قام المدير بتقديم النحاس للناظر في احتفال في أبي ركبة وقرأ على الأهالي خطاباً من الحاكم العام.

نحاس أحمد كارا:

كان أحمد كارا من مشاهير كشاف النوبة، وتروى عنه أخبار كثيرة تدل على غرابة أطواره وجسارته وقسوته وظلمه ثم على كرمه وحبه للطرب والندماء والنساء. والكشاف أصلاً من الدر، وهم جنود جاء بهم السلطان العثماني سليم الأول على حدود مصر ليحمي بهم مصر من غارات النوبة. وقد تزاوجوا في النوبيين وانصهروا وأخذوا لغتهم وعاداتهم، ولكن بقيت فيهم عنجهية الترك واستكبارهم. وكانوا يحتقرون النوبيين حتى أضحت كلمة النوبى أي «النب» بلغتهم تدل على وضاعة الأصل والمخبر. وقد ساسوهم وحكموهم على أسوأ ما يكون. وقد فر من جرائهم كثير من النوبة ولحقوا بأواسط

السودان. وكان حكمهم القاسي وغارات الشايقية المدمرة سبباً في خراب بلاد النوبة.

وكان والد أحمد كارا هو الكاشف داود كارا، وهو جد الولياب في حلفا وشمال السكوت، ومنه ينتشر اسم داود بين هذه الأسرة الواسعة. ويتصل به كاتب هذه السطور من جهتي الأب والأم. ولما جاء بركهارت، الرحالة الألماني المشهور، قبيل فتح محمد علي باشا للسودان، كان داود هذا مقيماً في بلدة كلب الواقعة غرب عكاشة. ولما مات خلفه في الحكم ابنه دهب، ومنه انتقل الحكم إلى أخيه أحمد كارا عن طريق الخديعة والدس. وكانت الرقعة الخاضعة لهم حتى أول عهد أحمد صغيرة لا تتعدى عمودية أو عمودتين، ثم اتسعت لما بين خور موسى باشا ـ عند مدينة وادي حلفا الآن ـ وآخر السكوت، بل وقيل حتى قرية أبو فاطمة في نهاية أرض المحس بالجنوب. وقد جاء هذا التوسع مكافأة لأحمد لإبلاغه موسى باشا حمدي بعصيان أهل صاي. وكان موسى باشا معسكراً في البقعة المعروفة الآن بخور موسى باشا والتي عرفت باسمه، وأشار بأن تكون ولايته منها إلى الجنوب إلى الحد الذي ذكرناه.

حكم أحمد كارا هذا الاقليم حكماً مطلقاً وبأسلوب مستبد، وقد طال حكمه. وكان يناصبه العداء أحمد شريف، وهو من قرية عمكة بجنوبي وادي حلفا، وكان رجلاً دميماً، إلا أنه كان داهية. وقد سمي عليه خور أحمد شريف المشهور بين حلفا وأتيري. وقد تمكن هذا من إلقاء تهمة كبيرة على أحمد فقد من جرائها قدراً كبيراً من أملاكه الواسعة. إلا أنه في النهاية حصل على البراءة، وهذا مما أخاف أحمد شريف. قيل فاتفق مع عبده ودس له السم فمات وهو عائد من العرضى إلى بلده. وقد حملوه على الهجن السريعة حتى أتوا به إلى بلده ودفنوه في جبانة بلدة كوشة، وقبره ظاهر إلى اليوم. قيل عندما اقتربوا من القرية دقوا من وراء الجبال نقارته إيذاناً فسمعها الناس وأدركت أخت له من صوت النقارة أن أحمداً قد توفي فخرجت تولول وتبكي.

وعلى ما يقال فإن أحمد كارا كان يملك عدة نحاسات، وقد بقيت في الأسرة حتى جاءت المهدية. ولما علموا أن الأنصار يغنمون النحاسات قرروا إخفاءها وجاءوا بها إلى حوش يوسف في سركمتو ودفنوها. ويوسف هذا أخ

لأحمد. وبالبحث أدرك الأنصار موضعها فحفروا الحوش حتى أخرجوها وأخذوها ما عدا واحداً بقي مدفوناً حتى أخرج بعد زوال المهدية. وكان أهلنا يسمونه «دكرا» منسوباً إلى أحمد كارا، ودكرا تعني في النوبية النقارة.

وقد رأيت هذا النحاس وأنا صبي وشاهدت وهو يجلد بجلد عجل، وكان يدق بجريد النخل الغليظ. وأذكر أني ضربته مرات ولكني لم أحسن تنغيمه. وكان في القرية عدد يحسن ضربه فيوكلون إليهم المهمة كلما جاءت مناسبة. وكانت المناسبة الوحيدة لدقها عند حبس شخص لعلاجه من الزهري، أو ما يعدونه زهري. وهذا مرض يظهر في الجلد في شكل حبوب وبالأخص داخل الملابس ويصحبه اضطراب الصحة واعتلالها وكثرة النوم. فإذا أدركوا ذلك حجزوا المريض أربعين يوماً في راكوبة وأبعدوا الناس عنه خوف العدوى وعالجوه بأدوية معروفة عندهم. وإذا لم يشف كرروا أربعيناً آخر. وحتى يطردوا منه النوم والسأم يؤنسونه نهاراً ويعقدون له الرقص كل ليلة. وهنا يأتي دور نحاسنا، فإنه يدق يوم الاحتفال ببداية الحبس ثم مساء كل يوم دعوة للناس للمجيء إلى الرقص. وكان يعتقد أن صوت النحاس يساعد في إخراج الزهري من داخل الجسم إلى الجلد ثم القضاء عليه. وقد شاهدت أنهم مرة ذبحوا عجلاً للاحتفال بمريضة وجلدوا بجلده النحاس لهذه المهمة. وكانوا كلما جاءت مناسبة كهذه أخذوا النحاس إليها ثم أعادوه بعدها. ولم أعهد أنهم كانوا يدقونه في الأعراس أو غيرها من المناسبات.

وقد ظل النحاس على هذا الحال حتى أبطل الناس استعماله ومن ثم نسوا أمره. وقد خطر في بالي مرة أن أقوم بتلجيده في احتفال وأن أحمله إلى متحف السودان ذكرى لصاحبه، إلا أنني علمت ـ ويا لسوء المصير ـ أن رجلاً من الأسرة باعه لجماعة من الحلب بسبعين قرشاً! وما أرخص مجد الآباء والأجداد عند الخائبين من الأحفاد، أولئك الذين يقول فيهم المثل «النار تلد رماد» و «يا خسارة النار تخلف رماد» وعند النوبة مثل يجري هذا المجرى ويوصف به مثل هذا الذي باع نحاس جده بأبخس الثمن!.

نحاس الكواهلة

الكواهلة قسمان، قسم متبد بمديرية كردفان، وقسم مستقر بمديرية النيل الأبيض. وكان كواهلة كردفان في العهد التركي يعيشون مع الكبابيش في دارهم وتابعين لشيخ هذه القبيلة. وعندما نشبت الحرب بين الكبابيش والحمر في عهدي سالم فضل الله والتوم وقف الكواهلة مع الكبابيش، وهي الحرب التي غنم فيها الكواهلة نحاس الحمر. ولما قامت الثورة المهدية وقف الكبابيش ضدها بينما ناصرتها قبيلة الكواهلة. وقيل في سبب انشقاقهم عن الكبابيش أنهم ضجروا من معاملة زعماء الكبابيش لهم، ولكن السبب الأقوى هو البحث عن مصير أفضل في النظام الجديد. وقد صار الكواهلة بقيادة جاد الله بليلو حلفاء للمهدية بينما قام أحمد عبد القادر الأعيسر بمساعدة المهدي للرحيل إلى أم درمان مما جعل القبيلة تحصل على الجزء الأكبر من ممتلكاتها من تلك الفترة، بينما تلقى الكبابيش الضربات القوية التي أضعفتهم إلى حد بعيد. وقد كان للكواهلة ومعهم قبائل دار حامد دور فيما أصابهم. وعلى أي حال فقد تركت هذه الفترة أعمق الأثر في علاقات الكواهلة والكبابيش وفي الوضع السياسي في المنطقة إلى اليوم. أما كواهلة النيل الأبيض فقد كانوا تحت زعامة عبد الله العربي وتابعين لإدارة شرق العقبة، وكان يقودهم في المهدية الأمير شاع الدين الذي اشترك في وقائع الحبشة.

وعند مجيء العهد الثنائي عين عبد الله ولد جاد الله بليلو ناظراً لكواهلة كردفان، وكانت له علاقات قوية بقيادة الأنصار. وقد تزوج أم سلمة

بنت المهدي والتي هي أرملة شيخ الدين بن الخليفة عبد الله ثم تزوج السيد عبد الرحمن المهدي وابنه الصديق من بيته. وكانت هذه العلاقات الحميمة تباعد بين الكواهلة وبين الحكومة. وكانت علاقات بليلو بالكبابيش وزعيمهم علي التوم سيئة لخلافات حول الحدود والسلطة وبالتالي تردت علاقاته مع الحكومة التي كانت تناصر علي التوم. وفي شتاء ١٩٠٩ بلغت علاقة الشيخ عبد الله مع الإنجليز حداً بعيداً فتقرر فصله في ١٩١٠ وتم تعيين فضل الله الأعيسر ثم خلفه محمد فضل الله، الناظر الحالي. وقد ساد الاضطراب علاقات القبيلتين ووقعت مصادمات كبيرة حتى تدخلت الحكومة وضغطت على الطرفين وعقد الصلح بينهما في ١٩٢٧ م. وفي سنة ١٩٣٥ تم دمج إدارة الكواهلة إلى نظارة عموم الكبابيش، ومع ذلك استمر النزاع بين القبيلتين بسبب النزاع حول الحدود أو بعض الآبار طوال عهدي الشيخ علي التوم وابنه الشيخ التوم، وقد توقفت في عهد الشيخ حسن التوم لأنه لم يكن راغباً في التدخل في شؤون القبائل التابعة له.

ويبدو أن هدف الكواهلة منذ زمن بعيد هو خلق دار لهم يكون معترفاً بها، وقد جعلتهم هذه الرغبة في خلاف مع الجميع. فالكبابيش لا يرضون في دارهم بقبيلة مستقلة عن زعامتهم، وكان لهم مثل هذا الصراع مع قبيلة الهواوير. وكواهلة النيل الأبيض يريدون اعتبار كواهلة كردفان جزءاً منهم، والحكومة لا تريد لهم هذه الكينونة المستقلة لاعتبارات التوزيع القبلي وتبعية الكواهلة لنظارة الكبابيش ودعمهم لإدارة الشيخ علي التوم وكراهتهم لقيادة الكواهلة ذات الارتباط بالمهدية سابقاً وبقيادة الأنصار حالاً. والكواهلة من جانبهم ازداد نفورهم من الحكومة لما رأوا أن فرصتهم بالدار المستقلة أصبحت ضعيفة بسبب العلاقات القوية بين زعامة الكبابيش والحكومة. ويلاحظ أن علاقة الكبابيش والكواهلة أصبحت دائماً عكسية: الكواهلة يتحالفون مع المهدية بينما يقف الكبابيش ضدها، والكبابيش مقربون إلى الإنجليز بينما يقف الكواهلة ضدهم، وحتى في الوقت الحاضر فإنهما متعارضان في الاتجاه السياسي، إذ يقف الكواهلة مع حزب الأمة بينما يقف الكبابيش مع الحزب الاتحادي الديمقراطي - وسابقاً مع الحزب الوطني الاتحادي. وينبغي أن نلاحظ هنا أن تبعية الكواهلة طائفياً للأنصار ومن ثم

لحزب الأمة، أما الكبابيش فانتماؤهم ليس طائفياً. وفي أيام الإنجليز حاول الكواهلة التمسك بحدود ماكمايكل لأنها تعطيهم حداً يفصل بينهم وبين الكبابيش. وفي سنة ١٩٤٦ م طلب ناظر الكواهلة أن يكون له نحاس، وهذا يشير إلى أنه يهدف إلى الاعتبار القبلي الكامل الذي يجعله صنواً لناظر الكبابيش ويجعل قبيلته وحدة مستقلة عن الكبابيش. وهذا ما لم تقبل به الإدارة الإنجليزية.

تقدم أن كواهلة كردفان غنموا نحاس الحمر في الحرب التي ناصروا فيها حلفاءهم الكبابيش ضد الحمر. ولكننا لا نسمع خبراً لهذا النحاس بعد ذلك. ويبدو واضحاً أن كواهلة كردفان لم يكن عندهم نحاس تاريخي. أما كواهلة النيل الأبيض فثابت تاريخياً أنه كان لهم نحاس قبلي. وقد اختلف في مصدره، فبعضهم قال إنه آل إليهم من سلطان سنار، وهذا بعيد الاحتمال. وبعض خلط بين نحاس الحمر الذي غنمه كواهلة كردفان وبين نحاس كواهلة النيل الأبيض. وبعض آخر ذهب إلى أنهم اشتروه من بعض القبائل في العهد التركي. وإليك تفصيل الرواية الأخيرة لأنها أقرب إلى الواقع:

أورد إداري بريطاني يتبع لمشروع الجزيرة ضمن تقارير كثيرة أعدها عن قبائل الجزيرة بغية تنظيم العموديات والأقسام في أول عهد المشروع، وذلك اعتماداً على الروايات التي جمعها من الأهالي، إن النحاس الذي بطرف عبد الله شاع الدين هو نحاس الكواهلة التاريخي، وقال إن هذا النحاس أصلاً كان ملكاً لمن يسميهم مكوك الضهاري، وقال إن هؤلاء كانوا يعيشون في حلة الرساس بالقرب من حلة بقادي على النيل وأن تاريخ ملكهم يرجع إلى العهد التركي، وقد باعوا نحاسهم وطبولهم إلى الطيب النور المحمدابي شيخ الكواهلة عندئذ، وقد قيل إنه دخل بها الحرب التي نشبت بين قبيلة الكواهلة وقبيلة الشكرية والتي مات فيها الكثيرون من الطرفين، وكان من أبرز أبطال هذه الحرب طموم من الكواهلة وأحمد عوض الكريم من الشكرية، وهو الملقب بمرض يومين. وبعد ذلك أصبح نفوذ الطيب يتضاءل، ربما بتأثير خسائر هذه الحرب أو لتقدمه في السن أو للسببين معاً، بينما تصاعد نفوذ شاع الدين الذي كان يليه في الزعامة. وعندما جاءت المهدية خشي الطيب على النحاس والطبول لأن سياسة المهدية كانت جمع

النحاسات والطبول من القبائل لمعارضتها للكيانات القبلية. وبعد مشاورة زعماء القبيلة بما فيهم شاع الدين اتفق الرأي على إخفائها فدفنوها. وبعد قليل مات الطيب وخلفه شاع الدين شيخاً على القبيلة. ثم وفد الأمير حمد الناير أمير ولد مدني للحصول على النحاس والطبول، ولما أعياه أمرها قبض على ثلاثة من زعمائهم وهم رزق الله عزوز وفضل السيد ودفع الله شاع الدين وسألهم عنها، فلما أنكروا أمرها أودعهم السجن وعرضهم للتعذيب. ولما انتشر خبرهم وسط القبيلة تقدم الأمين فضل المولا من قرية ود دايومة لإنقاذهم وأخبر الأمير بان النحاس بطرفه وطلب منه إطلاق سراح الثلاثة والقبض عليه هو بدلهم. وقد فعل الأمير ذلك ولكنه أدرك فيما بعد أنه كذب عليه لإنقاذ صحبه من سجنهم. ولذلك أودعه في السجن وجلده بقسوة، وكان يصيح بم بم مثل النحاس ليستفز الأمير وسجانيه. وقد عذبه الأمير وأراه أهوالاً حتى كاد أن يجن، وقد انزعج أهله وعقد كبار الكواهلة اجتماعاً اتفقوا فيه على أن يفدوه بمال يقدم إلى الأمير. وقد فعلوا ذلك وفعل الأمير ما أرادوا وبقي النحاس مدفوناً. وعند وفاة شاع الدين انتقلت الزعامة إلى ابنه عبد الله شاع الدين وكذلك ملكية النحاس.

وعندما ذكر عبد الله شاع الدين في أوائل العهد الثنائي لمدير النيل الأزرق أن النحاس الموجود عنده هو نحاس القبيلة فإنه كان محقاً. ولكن المدير علم أنه يمتلك نحاسين لا نحاساً واحداً. وهو أمر يحتاج إلى النظر. وعلى أي فقد ذكر المدير أن عبد الله شاع الدين يحتفظ في الشكابة بنحاسين وأنه قد ورثهما عن الأجداد. وقد ذكر أنهما كانا مدفونين في مكان أمين في فترة المهدية، وهو ما يتفق مع ما جاء في رواية إداري مشروع الجزيرة. وبالإضافة إلى ذلك فقد ورد أن العمدة موسى جاد الله كان يمتلك نحاساً شخصياً اشتراه بماله الخاص، كما ورد أن الناظر فضل الله مرقى كان يمتلك نحاساً حازه بالشراء. وفي كردفان امتلك الشيخ عبد القادر الأعيسر ناظر الكواهلة نحاساً، ولكنه لم يكن معترفاً به ولا سمح له بقرعه.

ويشير مدير النيل الأزرق في خطاب إلى السكرتير الإداري مؤرخ في ١٢ ديسمبر ١٩٣٥ م إلى نحاس عبد القادر الأعيسر ناظر كواهلة كردفان ويتساءل عن مستقبله في حالة دمج هؤلاء الكواهلة تحت نظارة الكبابيش.

وقـد أشار السكـرتيـر الإداري في تعليقـه إلى نحـاسـات الكـواهلة في النيـل الأبيض وكردفان، والنتيجـة التي يصل إليهـا هي أن الكواهلة كـانوا يمتلكـون عدداً من النحاسات، بعضها جاءهم بالوراثة وبعضهـا بالشـراء، وكان بعضهـا عنـد البيـوت الحـاكمـة في النيـل الأبيض وبعضهـا عنــد البيت الحـاكم في كردفان.

ولكن ماذا كان موقف الحكومة؟ كانت الحكومة على علم بـوجود هـذه النحـاسات ولكنهـا لم تعترف بهـا. وقد علق مـدير النيـل الأزرق على نحاس عبد الله شاع الدين وزعمه بأنه نحـاس القبيلة التاريخي بقـوله: لا نحسب أن لقبيلة الكـواهلة المستقـرة في النيـل الأزرق أي حق في اقتنـاء نحــاس قبلي بحكم أنهم مستقـرون، ثم تسـاءل عن مصيـر نحـاس كـواهلة كـردفـان بعـد دمجهم مع الكبابيش متشككاً في أن يقبل علي التوم نحاساً آخر مع نحاسـه. وقـد رد السكرتيـر الإداري على ذلك بقـوله إن التخلص من النحـاسات التي تمتلكها القبائل الصغيرة أمر صعب، وأن زوالها تـرك لفعل الـزمن. وقد أشـار إلى نحــاس شـاع الــدين والنحـاســات الممـاثلة وقــال إنهــا تخلق بعض الاضــطراب، ولكن حتى إذا لم يكن من الممكن التخلص منهـا فـإنــه من الممكن تركها حتى تصيـر نحاسـات شخصية صـرفة، وبـالتالي تفقـد الأهمية القبلية والإدارية. ولهذا فإنه قرر ألا يعترف بها على الصعيـد الإداري باعتبـار أنهـا نحاسـات ذات دلالة قبليـة. وفي مكان آخـر ذكر أنـه ليس من اللائق أن تسحب نحاسات كواهلة النيل الأزرق أو كـردفان ويـرى أن يترك أمـرها لفعـل الزمن.

وفي سنـة ١٩٣٨ م أعد السكـرتير الاداري كشفاً بالقبـائـل التي تمتلك نحاسات معترف بها أو التي حصلت على توصيات المديرين أو يرى السكرتير الإداري بـأنها مستحقـة للنحاس، ولكن قبيلة الكـواهلة لم تذكـر ضمن هـذه القبائل. كذلك لم تذكر نحاسات الكـواهلة ضمن النحاسـات التي وردت في كشف سنة ١٩٤١ م الذي أعد بمكتب السكرتيـر الإداري. ولما تقـدم الشيخ محمد عبد الله الأعيسر ناظر كواهلة كردفان بطلب في سنة ١٩٤٦ م يرجو فيه أن تعطيه الحكومة نحاساً اعتبـر المسؤولون ذلـك غير لائق، وقـالوا إنـه خلق جواً سيئاً في دوائر المسؤولين، وقد قرروا عدم الالتفات إلى الطلب.

ويظهر مما تقدم أن الحكومة لم تعترف بنحاسات الكواهلة بالرغم من أنها نحاسات لها تاريخ وبالرغم من أنهم أعطوا نحاسات لقبائل أصغر في كردفان كالدواليب والطين لم يكونوا قبيلة كبيرة ولا قبيلة مستقلة في حجم الكبابيش الذين لهم نحاس بحكم كيانهم القبلي أو الكواهلة إذا أخذنا بمنطق الإنجليز الإداري. ومن الواضح أن اعتبارات الإدارة الأهلية هي التي لعبت الدور الرئيسي في قرار الإدارة الإنجليزية، إذ لاعتبارات الإدارة الأهلية لم يعترف الإنجليز في النيل الأبيض إلا بنحاس عموم البقارة ونحاس الحسانية الذين يتبع إليهم كواهلة النيل الأبيض، أما في حالة كواهلة كردفان فإن نفس الاعتبارات كانت موجودة ولكن بصفة أقوى بسبب العلاقات المتينة بين الحكومة والكبابيش، والعلاقات السيئة بين الكواهلة والحكومة وبين الكواهلة والكبابيش، كما أن هدف الكواهلة بخلق كيان خاص ودار خاص بهم كان يزيد المشكلة ويعمقها، أي أن رفض الحكومة للاعتراف بنحاسات الكواهلة جاء بسبب الرغبة في تقوية نظارة عموم الكبابيش ونظارة عموم الحسانية ولم تعط الحكومة اعتباراً للجوانب القبلية المحضة أو الجوانب التاريخية.

وفي سنة ١٩٦٥ م عندما كان أحمد المهدي وزيراً للداخلية طلب الشيخ محمد فضل الله الأعيسر ناظر كواهلة كردفان بأن يسلم إليه نحاس الكواهلة التاريخي، أي نحاس شاع الدين الذي بطرف الشيخ جاد الله بليلو بالنيل الأزرق، أو أن يعطي نحاساً جديداً. وقد أحال الوزير الأمر لرأي أمير الصاوي وكيل الوزارة. وكما هو متبع فإن سكرتير الوكيل المقتدر المرحوم زكي عبيد كلف بالبحث في الأمر وتنوير الوكيل، ومن ثم وضع مذكرة عن النحاسات القبلية وسياسة الإدارة الإنجليزية حيالها. ثم أحيل الأمر إلى مدير دار الوثائق المركزية ليعد دراسة أطول، وكان هذا أول عهدنا بأمر النحاسات. وبالفعل وضعنا دراسة عن تاريخ الطبول والنحاسات القبلية ثم بينا الموقف بالنسبة للكواهلة. وبعد دراسة للأمر بيني وبين الوكيل سقت النقاط التالية في نهاية الدراسة:

بالنظر إلى منشور سنة ١٩٣٥ م:

١ ـ إن الكواهلة منقسمون إلى قسمين، وكل قسم له نظارة لها استقلالها وكيانها ونظارتها التاريخية.

٢ ـ ليس في الشروط الواردة في الفقرة الرابعة (من المنشور الخاص بالنحاسات) ما يمنع إعطاء الكواهلة نحاساً أو الاعتراف بالنحاسات الحالية، بل إنهم كانوا مستحقين لولا الاعتبارات السياسية التي كانت ترمي إلى تقوية نظارتي عموم الحسانية والكبابيش.

٣ ـ ينص المنشور نفسه على أنه من الممكن إعطاء الاعتراف لنحاسات بعض القبائل حتى وإن لم تكن مستوفية للشروط الواردة في الفقرة الرابعة إذا كانت القبيلة تملك النحاس منذ فترة طويلة، ومن المعروف أن الكواهلة يملكون النحاس القبلي منذ عهد الفونج.

٤ ـ إن تقسيم القبيلة إلى نظارتين لا يمنع الاعتراف بالنحاس، فقد اعترف لنظارات الزغاوة بنحاسات، كما أعطى الشنابلة نحاساً بينما كانوا تابعين للكبابيش وللفرحانة الذين كانوا تابعين لدار حامد.

٥ ـ هناك قبائل أصغر من الكواهلة تمتلك النحاس مثل الدواليب في كردفان.

٦ ـ أعطت الحكومة نحاسات لقبائل لم يكن لها نحاس عندما خلقت لها لنظارة نحو قبيلة المجانين التي حاز ناظرها جمعة سهل على نقارة عند إنشاء النظارة في سنة ١٩٢٦ م.

٧ ـ أخطأت الحكومة إذ جعلت النحاس لنظارة العموم بينما حرمت القبائل التابعة لها، لأن النحاس شارة من شارات القبيلة التي تدق في المناسبات القبلية وليس من شارات الإدارة ولسنا نرى أن تمنع قبيلة كبيرة مثل الكواهلة من هذا الحق أو أن تدق نقارة الكبابيش.

٨ ـ من الممكن الاعتراف بنقارتي الكواهلة لاستعمالها في المناسبات القبلية الخاصة على ألا تستعمل في المناسبات مع نقارات ناظر العموم حتى نتفادي خلق مشاكل محلية أو منازعات قبلية ولسنا نعتقد أن لعبد الله جاد الله الحق في الاحتجاج إذا ما أعطي حق النحاس للأعيسر أيضاً لأن نظارة الأخير ليست تابعة له، كما أنه هو شخصياً سيحوذ على الاعتراف بنحاسه. ونرى أن جماعة جاد الله تتمتع بالحق التاريخي لقيادتها السابقة للقبيلة ولكونها تحتفظ

بالنحاس القبلي القديم، ولكن كون كواهلة كردفان ما زالوا محتفظين بالحياة الرعوية ومجاورين لقبائل رعوية مماثلة بينما صارت كواهلة النيل قبيلة مستقرة، يجعل أحقية كواهلة الغرب بالنقارة أقرب إلى الواقع والتكوين القبلي.

٩ ـ لا بد من حصر الاعتراف أو حق الحيازة في ناظري الكواهلة على أن يكون نحاس كل ملكاً للقسم الذي يرأسه، لأن تعدد النحاس في القسم الواحد سيؤدي إلى مشاكل كثيرة.

١٠ ـ إن هذا الاعتراف قد يدفع بعض القبائل الأخرى إلى طلب الاعتراف كما أن بعض القبائل المجاورة كالكبابيش مثلاً ستحتج، ولهذا فلا بد من إعادة النظر في السياسة التي وضعت في سنة ١٩٣٥.

ثم أعددت بعد اتفاقنا أنا والوكيل على الاتجاه المطلوب وهو رفض الطلب ورفض النحاسات من أساسها مسودة مذكرة ترفع من الوكيل إلى الوزير على الوجه التالي:

١ ـ أعد هذه المذكرة الجيدة السيد محمد إبراهيم أبو سليم مدير دار الوثائق المركزية عن النحاسات القبلية والجوانب التاريخية والسياسية المتعلقة بها وعن قسمي قبيلة الكواهلة ونحاساتهم.

٢ ـ ومن خلال الحقائق الواردة في هذه المذكرة يمكننا أن ننظر في طلب ناظر كواهلة كردفان ليحول إليه نحاس القبيلة الموجود الآن عند الشيخ جاد الله بالنيل الأزرق أو لإعطائه نحاساً قبلياً جديداً.

٣ ـ يتبين من هذه المذكرة أن الإمام المهدي كان قد ألغى الطبول والنحاسات وحظر استعمالها لأنها ترمز إلى النظم القبلية وتثير النعرة القبلية وتقف عقبة أمام محاولاته الرامية إلى توحيد الأمة وخلق شعور قومي إسلامي. ولما جاء الإنجليز أهملوا شأن النحاس في الأيام الأولى ثم عادوا يهتمون به ويهدونه لزعماء القبائل بعد أن وضعوا نظام الإدارة الأهلية لأنهم كانوا يهدفون إلى تقوية الروح القبلية وتحطيم فكرة الانصهار القومي ومقاومة تيار الجيل المتعلم. وقد كان ذلك اتجاهاً عكسياً أضاع جهود الإدارة الإنجليزية وجهود

زعماء القبائل لأن المواطنين كادوا مع تقدم حياتهم الثقافية والمادية والاجتماعية يتخلصون من الرواسب القبلية والمحلية، وبالفعل صارت النحاسات في المناطق المتقدمة مجرد ذكريات قديمة لا أثر لها في حياة الناس الحقيقية.

٤ ـ إن التغيير الذي طرأ على مفاهيم الناس والمحاولات الرامية لربط المواطنين في الأصقاع المختلفة على صعيد قومي وقيام أجهزة متقدمة كالأحزاب السياسية والنقابات والمؤسسات المهنية والبرامج الإذاعية والمحاولات الرامية إلى تطوير الحكومة المحلية والإدارات الأهلية وما إلى ذلك قد جعل الناس ينظرون إلى القبيلة ونظمها على أساس أنها عقبة أمام تيار القومية، وليس بخاف أن هناك تياراً قوياً ينادي بإلغاء الإدارة الأهلية أو إجراء تعديلات جذرية فيها، كما أن هناك معارضة قوية ضد الاتحادات الإقليمية. وعلى هذا فإن التفكير في إعطاء النحاسات سيعد، بلا شك، عملاً مناقضاً لواقع حياتنا ولاتجاهات القومية السودانية والتيارات السياسية، وسيكون هدفاً لهجوم صارخ من قبل المثقفين والأجهزة السياسية والإعلامية.

٥ ـ ليس من الحكمة في شيء أن نعلن سياسة معينة إزاء النحاسات القبلية ومن الأفضل أن نتركها وشأنها وأن نعتبرها شيئاً أثرياً يتصل بالماضي ولا مكان له في الحاضر.

٦ ـ وفيما يختص بطلب الشيخ الأعيسر بالذات فإن هذا الأمر يؤدي إلى منازعات كثيرة بين قبيلتي الكواهلة والكبابيش إلى إثارة الأحقاد القديمة، كما أنه سيخلق مشاكل ومنازعات حادة. ولا شك أن الناظر، والحكومة أيضاً، في غنى عن هذه المتاعب، خاصة وليست هناك فائدة ترجى.

٧ ـ أرى أن يصرف النظر عن موضوع النقارة وأن يفهم الناظر بأسلوب ودي بأن الحكومة الحالية لا تعطي أهمية للنحاسات وأنه ليست هناك ثمة علاقة بين النحاس وبين المراتب الإدارية أو القضائية أو مكانة القبيلة أو مركز الناظر.

وكانت هذه نهاية المطاف، إذ صرف الوزير نظره عن الأمر نهائياً بل لا نحسب أن أمر النحاسات قد أثير مرة أخرى.

نحاس الشنابلة:

الشنابلة مجموعتان، مجموعة مستقرة حول المسلمية في النيل الأبيض، ومجموعة متبدية في شرق كردفان. وقد ذكر ماكمايكل أنهم جزء من دار حامد ثم انفصلوا عنهم في القرن الثامن عشر. وذكر أن الفرع الرئيسي منهم التحق بالكبابيش وبقي معهم حتى انفصلوا عنهم بقيام المهدية كما فعل الكواهلة، وصاروا مستقلين، وقال بعض آخر إن الشنابلة متفرعة من قبيلة الكواهلة وأنهم أحفاد رجل كاهلي هو شمبول مدني، وعلى ذلك يأتي منه اسم القبيلة، وقد قلب الميم إلى نون فصار شنابلة وصارت النسبة شنبلي.

وعلى أي فإن بعض الشنابلة يعيشون في المسلمية وبعضهم في شات ونواحيها بالنيل الأبيض وبعضهم في دار الحمر. ولكن أغلبهم في شرق كردفان.

وكان الشنابلة في أول العهد الثنائي تحت نظارة الكبابيش، وقد خصصت لهم عند إعادة النظر في الحدود بين القبائل المختلفة بكردفان في ١٩٠٥ المنطقة الواقعة جنوب أم بادر. وفي ١٩٠٨ تم ترحيلهم إلى النيل الأبيض. وفي ١٩١٠ تم ترحيل الرحل إلى كردفان وترك المستقرون بالنيل
الأبيض. وفي ١٩١٠ تم ترحيل الرحل إلى كردفان وترك المستقرون بالنيل
الأبيض. وفي ١٩٢٨ جرى الاتفاق على تعيين الأمين عكام ناظراً للقبيلة كلها تحت نظارة الكبابيش وسمحت له السلطات بنحاس، ربما بالنظر إلى حاجة المتبدين إليه، وقد حازوا عليه بالشراء من مصر في ١٩٢٩. ولكن نجمت مشاكل كثيرة من جراء الجمع بين المستقرين والرحل الأمر الذي جر في النهاية إلى فصل شنابلة النيل الأبيض عن الرحل في كردفان. وقد أضيف الأوائل إلى إدارة الحسانية تحت إمرة عمدتهم محمد عبد الله. وفي عام ١٩٣٥ عقد اجتماع بين الشنابلة والجوامعة وتمخض عن قبول إقامة الشنابلة بدار الجوامعة بصفة مستديمة في إدارة مستقلة تتبع نظارة عموم الجوامعة على أن يكون ناظر الشنابلة نائباً لرئيس محكمة الجوامعة الرئيسية. وهذا الترتيب استمر بنجاح. وبعد هذا التدبير مع الجوامعة أمر السكرتير الإداري بألا يحمل شيخ الشنابلة لقب الناظر لاعتباره لأمرين، أولهما أنه لم يعد رئيساً على جميع الشنابلة وإنما على جزء منهم، وثانيهما أنه أصبح تحت ناظر

عموم الجوامعة. ولعل السبب الحقيقي هو الرغبة في تقوية نظارة عموم الجوامعة على غرار نظارة عموم الكبابيش. أما كونه زعيماً على قسم من الشنابلة فقد كان هذا هو الحال عندما حصل على لقب الناظر من قبل. أما النحاس نفسه فقد سمح له بالاحتفاظ به كآلة أثرية لا يحق له أن يقرعها أو يؤدي بها أمراً كناظر للقبيلة. أي أن الشنابلة فقدوا النظارة وحق النحاس معاً عندما وضعوا تحت نظارة الجوامعة. ولكن النظارة عادت فيما بعد ـ ونذكر أننا قابلنا ناظر الشنابلة في أم روابة عندما جاء لمقابلة لجنة دراسة الإدارة الأهلية التي كنا عضواً فيها. كان رجلاً قوي البنية وتبدو على وجهه الجدية والصرامة وهيئة البادية. وقد عبر هو ومن جاء معه عن رضائهم بالحال وأيدوا استمرار الإدارة الأهلية.

نحاس الكبابيش:

كان للكبابيش نحاس مشهور يلازم شيخ القبيلة، وتقرع لأغراض مختلفة بينها الأستاذ حسن نجيلة ببعض التفصيل. وبجواره كان لشيوخ فروع القبيلة والقبائل التي تعيش في دارهم مثل الكواهلة جملة من الدناقر المصنوعة من الخشب والنحاسات الخاصة لتقرع في أغراضها المختلفة. ولكن لم يسمح لغير شيخ القبيلة بحيازة النحاس القبلي الذي هو رمز القبيلة وعلامة ملكيتها للدار وموضع الفخر من القبيلة. وحتى في العهد الثنائي لم تسمح الحكومة للقبائل من غير الكبابيش في الدار بحيازة النحاس.

ولا تبين مصادرنا متى حاز الكبابيش على النحاس ولا من أين ملكوا، هل من الفونج أم من الفور أم من المسبعات أم غنموه أم اشتروه. وفجأة يظهر نحاسهم بتاريخ خاص مثير مع قيام المهدية. ذلك أن الكبابيش عارضوا المهدية بينما وقف إلى جانبها بعض جيرانهم كالحمر ـ وكانت بين هؤلاء وأولئك عداوة ـ والكواهلة ـ وبينهم وبين الكبابيش منازعات ـ ودار حامد، ولم يغفر الأنصار للكبابيش هذه الوقفة المعادية. وربما أدركوا خطورة القبيلة بحكم قوتها ومجاورة دارهم لوسط كردفان ودنقلا مما يجعلها معبراً لنقل الأخبار والمعدات والرجال من مصر. وكان مما أثار المهدي عليهم أنهم استغلوا زوال سلطة الترك وأخذوا يهاجمون على جيرانهم ويغنمون

ممتلكاتهم. وقد أمر المهدي الشيخ التوم وإخوانه في إنذار وجهه إليهم بالكف عن الإغارة على جيرانهم ورد ما غنم منهم[1]. كذلك يقال إن شيوخ الكبابيش واصلوا اتصالهم بالسلطة في الخرطوم. وربما كان للموقف القبلي دور في تردي العلاقات بين قيادة الكبابيش والمهدي، ذلك لأن القبائل التي كانت تحت نظارتهم انشطرت وانضمت إلى المهدية في محاولة للاستقلال من الكبابيش.

وقد روى خبر هذا النحاس السير هارولد مكمايكل في مقال نشره في مجلة السودان في مذكرات ومدونات ثم أكمله المرحوم حسن نجيلة في كتابه: «ذكرياتي في البادية».

أورد مكمايكل رواية عن الشيخ إبراهيم الفحيل عم الناظر علي التوم والذي روى له قصة النحاس بعد أن قرع تكريماً له في إحدى زياراته لحمرة الشيخ، قال: كان نحاس الكبابيش يتكون من طاقم كامل يتكون من ثور وبقرة وعجلين. وأول من ينسب إليه النحاس هو الشيخ فضل الله بك سالم، وربما يوحي ذلك بأن الكبابيش اقتنوا نحاسهم في عهد الترك. ولما مات فضل الله خلفه ابنه الشيخ التوم وانتقل إليه على الأثر نحاس القبيلة. وفي أوائل المهدية وقع التوم في أسر المهدي وتم إعدامه ولكنه تمكن قبل إعدامه من أن يرسل لخادمه المخلص بخيت ود النوبا ليأخذ ابنه محمد وجماله إلى أخيه الشيخ صالح بك فضل الله بالصافية. وقد نفذ بخيت هذه الرغبة، ثم تحرك الجميع من الصافية بقيادة صالح نحو دنقلا طلباً لحماية الحكومة. ولما بلغوا جبل أودون دفن صالح النحاسات بطرف الجبل. ثم تحركوا حتى بلغوا موضعاً يقال له الرجل قريباً من دنقلا، ولم يكن الأنصار قد بلغوا هذه الجهة. وقد أقاموا به مدة. ولما جاءت قوات الأمير محمد الخير هبت رياح الخطر فتوغل صالح في الصحراء في اتجاه أم بادر. ولما علم الأنصار بتحركاته أرسل الخليفة عبد الله، وكان المهدي قد مات، إلى أميره عثمان آدم للقبض عليه. فوجه عثمان قوة كبيرة ووقعت واقعة أم بادر التي قتل فيها عدد كبير من الكبابيش بما فيهم بخيت ود النوبا. وقد انسحب صالح بمن بقي إلى العين، وهناك تمكن الأنصار من القبض عليه. وبدار الوثائق وثائق كثيرة حول مطاردة

(1) حسن نجيلة ذكرياتي في البادية، صفحات ٣٨، ٤٠، ٤٨، ٤٩، ٦٧، ٧٠، ٧١، ٧٢، ١٢٥، ١٢٦ ـ ١٢٧.

صالح، وهي تبين أن الخطة كانت تقضي بأن يرسل النجومي بعض قواته حتى لا يترك له المجال للتوجه شرقاً أو شمالاً وأن تقوم قوات عثمان آدم، وكان أغلبهم من الكواهلة ودار حامد، بالمطاردة من كردفان والإجهاز عليه. وكان أبرز القادة سليمان أحمد أكرت والد مكاوي أكرت الإداري المشهور والذي توفي قبل سنوات.

وقد ضغط الأنصار على صالح ليكشف موضع النحاسات ولكنه رفض، وكان كل من شهد الدفن قد قتل في الحرب. وقد أعدم صالح وأرسل رأسه إلى الخليفة في أم درمان. ثم علم الخليفة بأن النحاسات دفنت في جبل أودون وأرسل لأميره بدنقلا ليرسل قوة للبحث عن النحاسات، ولكن البحث لم يسفر عن شيء.

ولما جاء العهد الثنائي وعادت نظارة الكبابيش بقيادة الشيخ علي التوم تاق الكبابيش إلى نحاساتهم التاريخية وبحثوا عنها ولكن بغير جدوى، حتى كان ١٩٠٢ م وعثر رجل يدعى عبد الله دقوشين من بطن قليان على النحاس الكبير أي الثور بمحض الصدفة. ويبدو أن السيول والرياح قد كشفت عن النحاس فتدحرج حتى قعد على رأس شجرة في سفح الجبل. وبعد أن استكشف الأمر جيداً ذهب وأتى بشيخ بطنه والذي أفاده بأن ما وجده هو الثور من نحاسات القبيلة. وعلى الأثر أنزله من الشجرة ووضعه على الأرض وذبح ثوراً حمداً لله على عثوره. ثم توجه على جمله إلى الخريز حيث يقيم الشيخ علي التوم ليخبره بالخبر السعيد. ولما بلغه طلب منه البشارة كما يفعل من يحملون خبراً ساراً، ولما سأله عن البشارة التي يريدها قال إنه يريد العفو عن الضريبة إلى الأبد. ولكن الشيخ أخبره بأنه لا يستطيع أن يفعل ذلك لأن الضريبة تخص الحكومة، إلا أنه وعده بنفحة تليق بخبره، وهنا أفضى عبد الله بخبره الثمين، وقد بقي ما نفحه به الشيخ سراً بينهما. وقد أحضر النحاس إلى مقر الشيخ وذبح ثور آخر وجلد النحاس في احتفال عظيم وقرع بين صيحات الفرح والنشوة العارمة. وقد توجه الشيخ إلى الأبيض وأخطر ماهون باشا مدير كردفان بالواقعة وحصل على الإذن باتخاذه رسمياً. ولما كان التلف قد أصاب بعض أطرافه فإنه أخذه إلى أم درمان وأجرى ترميمه. وفي نفس الوقت قدمت له الحكومة بقرة وعجلين، ومن ثم اكتمل الطاقم، وعاد به

الشيخ علي إلى داره مزهواً. إن هذا الطاقم المكون من أربعة هو الذي رآه مكمايكل بحمرة الشيخ عند زيارته للقبيلة.

وقد أكمل حسن نجيله ما تبقى وقال إنهم عثروا على نحاسين آخرين في عهد الشيخ علي وعثروا على الرابع في عهد حفيده الشيخ حسن التوم. وقد استقبل كل نحاس باحتفال كما فعلوا بالنحاس الأول. وعلى ذلك فإن نحاسات الكبابيش تتكون من طاقم تاريخي يتكون من أربعة، ثور وبقرة وعجلين، ثم بقرة وعجلين أهدتها الحكومة إلى الشيخ علي التوم عند العثور على النحاس الأول.

نحاس دار حامد:

أورد مكمايكل في الفصل التاسع من كتابه عن قبائل وسط وشمال كردفان خبر نحاس قبائل دار حامد، منتقلاً من زعيم للقبيلة إلى آخر.

وفيما يقول مكمايكل فإن قبائل دار حامد تتكون من الفراحنة والهبابين والمرامرة والنواهية وأولاد قوى والعريفية والجليدات والمجانين. وقد اعتبر القبائل الأربعة الأولى صاحبة الحق في حمل اسم دار حامد، أما الأخرى ففي نظره توابع. وقد ظلت حظوظ هذه القبائل في صعود وهبوط بالنظر إلى التكاثر العددي أو انخفاضه والحظ من الثروة والأحلاف التي تعقد بين هذه القبائل وتنقض.

وكان نحاس القبيلة بيد من يحكمها، وهو في الأصل نحاس الحرب، ولكنه صار رمز الحكم والقيادة، فمن يحكم هو الذي يحمله وهو الأقوى في القبيلة وموضع عزها.

وكانت القبيلة منقسمة، يعيش بعضها في شرق كردفان في المنطقة التي تسمى الآن دار حامد بينما يعيش البعض الآخر في دارفور. وموطنهم الأصلي هو دار حامد ولكن جماعات منهم هاجرت إلى دارفور طلباً للعيش الواسع، وأشهر هؤلاء الآن المعاليا والمعاقلة بدار الرزيقات. وتزعم القبيلة أن جدهم كان ابن عم أبي زيد الهلالي. وهم رغم صغر عددهم أقوياء، وفي تاريخهم جسارة، وإلا فكيف حاربوا الكبابيش والرزيقات رغم فائق عددهم! واسم

القبيلة يرجع إلى زعيم لها يدعى حامد، وعلى ما يبدو فإنه كان شيخ الجماعة التي بدارفور أو كانت القبيلة تنتقل بين كردفان ودارفور. ولما مات حامد خلفه ابنه محمد. وهذا يشتهر بلقبين أولهما ميرمر أو مريمير، والثاني كريالو. وعلى ما يزعم مكمايكل فإن كريالو اسم حقيقي بينما ميرمر أو مريمير مشكوك في حقيقته. وربما اخترع هذا اللقب مستخرجاً من اسم المرامرة ليكون لهم مكان في النسبة المروية للقبيلة.

وعلى أي، فلسبب غير واضح أمر سلطان دارفور كريالو هذا بجمع القبيلة والاستقرار بها قرب العاصمة. ولما لم يستجب كريالو لهذه المشيئة فإنه حل بسجن السلطان، وعلى الأثر انتقلت الشياخة ومعها النحاس إلى ابن أخيه عبد الحميد والذي كان زعيم أولاد أقوى. وطبقاً لخطته بجمع قبائل دار حامد وتوطينها قرب عاصمته أرسل السلطان الشيخ الجديد ومعه بعض الزغاوة والتبو والقرعان وجماعات أخرى من السود لجمع قبائل دار حامد بكردفان وتهجيرهم إلى دارفور. وربما كان في ذلك ما يوحي بأن موطن القبيلة أولاً كان في دارفور ثم هاجرت جماعات منها إلى كردفان، وربما كانت سياسة السلطان إعادة هذه الجماعات إلى مملكته ومنعها من التسرب عن طريق توطينها قرب عاصمته وتحت رقابته. إلا أن عبد الحميد قلب الأمر إذ أسقط تبعيته لدارفور وذهب إلى سلطان سنار يعلن الولاء ويطلب الحماية، وكان له ما أراد. وقد هاجر على الأثر من كانوا في دارفور وانضموا إلى ذويهم، وبذلك اكتمل استقرار قبائل دار حامد وانتظموا في مناطقهم التي حددوها فيما بينهم.

ولما مات عبد الحميد انتقلت المشيخة في بيته من النور إلى مراقة وثم من بعده إلى يوسف، وقد انتقل نحاس القبيلة تبعاً لانتقال المشيخة. ثم ظهر حلف جديد وانتقلت المشيخة ومعها النحاس من هذا البيت إلى بيت جديد. فقد اجتمع المرامرة والهبابين والفراحنة وعقدوا المشيخة لشيخ الهبابين أم بدي ود سيماوي وذلك اعتباراً لقوة قبيلته وثرائها وما أعطاه له ذلك من نفوذ. غير أن هذه الخطوة قد دفعت بأولاد أقوى ومعهم المرامرة إلى الانشقاق والخروج عن المشيخة الجديدة. ولما مات أم بدي ذهبت المشيخة إلى ابنه تمساح، ومن هذا إلى ابنه سيماوي، وكان يلقب بقريقير. وفي عهد

سيماوي قريقير قامت المهدية فانضمت إليها القبيلة وصار سيماوي أميراً لها. وقد خدم مع الأمير عثمان آدم في كردفان ودارفور، وكانت وفاته بالجهة الأخيرة في ١٨٩١. وبدار الوثائق القومية بعض مكاتبات لهذا الأمير في شؤون إمارته. وقد خلفه على الإمارة عمر محمد كاش من قبيلة الفراحنة لأن ابن سيماوي ـ ويدعى تمساح ـ كان صغيراً عند وفاة أبيه.

وعند قيام العهد الثنائي كانت القبيلة منقسمة إلى عموديات تحت إشراف المقتش. وفي ١٩٠٢ جمع المفتش العمد لينتخبوا ناظراً فجرى التنافس بين الهبابين وأولاد أقوى وأسفرت الانتخابات عن انتخاب سيماوي ولد تمساح الذي هو رأس الهبابين، وهكذا رجعت المشيخة لبيتها. ورغم أن هذا يعتبر بدء إدارة دار حامد فإنها لم تضم المجانين والفراحنة الذين استقلوا بمشيختهم. وقد بقي نحاس القبيلة عند سيماوي ولد تمساح. ثم أصبح المجانين من القوة والثراء بمكان، وهذا أغرى بشيخهم ليحوز بالشراء على نحاس في ١٩٠٦، ولكن أهل الرأي في القبيلة أدركوا مغبة هذا المسلك على صعيد العلائق مع القبائل الأخرى والزعامة التقليدية فرفضوا نحاسه ومنعوه من إشهاره.

وقد تكونت إدارة ناظر عموم في ١٩٢٦ بقيادة تمساح سيماوي، وفي ١٩٣٤ توفي تمساح وتولى النظارة ابنه محمد والذي كان مساعداً لوالده ورئيساً لمحكمة دار حامد الشرقية. وفي ١٩٣٨ انضم المجانين والفراحنة إلى إدارته وبذلك توحدت القبيلة. وهكذا يمكن القول بأن أهمية نحاس آل تمساح قد ارتفعت بنفس المقدار.

نحاسات الزغاوة:

قبيلة الزغاوة قبيلة كبيرة في شمال دارفور، وهذه القبيلة تمتد غرباً بحيث يعيش جزء منها في تشاد، والحد بين السودان وتشاد هنا ليس حداً قبلياً وإنما هو حد سياسي. وتنقسم الزغاوة بدارفور إلى دور هي دار كوبي ودار قلا ودار توار ودار أرتاج، وفي كل دار عدد من البدنات أو العشائر، مثلاً:

دار قـلا: كليبا (من هـذه البدنـة الشراتي)، قلي قـارقي، كوّرا، بـاكـا بريارا. . . إلخ، وبديات.

دار تـوار: أولاً عقاب (من هـذه البدنـة ملوك تـوار)، أولاً دقين، أولاد دوري، ليلا. . . إلخ، بريارا وبديات.

دار كوبي: أنجو، كبكارا، بديات. . . إلخ، وجيرا.

دار أرتاج: أولاد آدا، أم سريرة. . . إلخ.

وتحتل دار كوبي الطرف الغربي مجاورة لتشاد. ولذلك كـان لهم موقـع في العلاقات بين سلطنة الفور وسلطنة ودّاي. وإلى الشرق منهم زغاوة قلا ثم زغاوة توار وإلى شمال هاتين البدنتين قبيلة البديات. أما كايتنجا فيقع موطنهم شمال كتم. وكان الكـوبي يمثلون أهمية خـاصة بـالنسبة لسلطنـة الفور لأنهم على الحدود مع تشاد. وكان لسـلاطين الفور في أول أمـرهم طموح في ودّاي واتجاه للتوسع نحوهـا، وكان للودّايين في نفس الـوقت طموح في ضم بعض أطراف غرب دارفور وأن يكونوا الدولة الأقوى في المنطقة. وقد دارت حروب بين الطرفين وضح فيها أن شوكة الودّايين قوية ولا يمكن كسرها بسهـولة، بـل لقد انتصر الوداويون على الفـور في وقائـع مهمة. ونـظراً لذلـك ظلت منطقـة كوبي منطقة استراتيجية مهمة. وقد عالـج سلاطين الفـور الأمر بتقـوية القبيلة داخلياً وتقوية علاقتهم بها، وذلك عن طـريق إعطائهم النحـاس وتعيين وزراء منهم في بـلاطهم والـزواج من البيت المـالـك، وكـان أول من تبنى هــذه العلاقات السلطان أحمد بكر والذي اعترف الزغاوة في عهده بتبعيتهم لسلطنة الفور. وقد رفع السلطان أحمد بكر شيخهم كوري إلى مرتبة السلطان وأعـطاه النحاس إشارة إلى كينـونة الكـوبي وتزوج ابنتـه كلتومـة. ولما خلفـه ابنه أبـو القـاسم في الملك واصل نفس السيـاسة فقـرب الزغـاوة ودعمهم وعين منهم بحـر وزيراً. ولا يعـرف سبب إيثار أبـو القاسم للزغـاوة بشكـل محـدد، هـل لدواعي السياسـة أم لأنه كـان ابناً لكلتـومة هـذه. والنقطة الأخيـرة ليست أمراً مؤكداً، لأن مصادرنا لا تقول عنهـا شيئاً. أمـا السلطان تيراب الـذي خلف أبا القاسم فكان بغير شك ابن كلتومة المذكورة، وقد مال إلى الـزغاوة كثيـراً وآثر في الـزغاوة بعض بيـوت على أخرى. وقـد عين خالـه هـاروت سلطانـاً على كوبى وأعطاه نحاساً.

وبالرغم من وجود أربع ديار حسب التقسيم الإداري فإن الزغاوة ينقسمون إلى ثلاثة أقسام رئيسية، هي:

١ ـ توبا Toba أو البديات.

٢ ـ ويقي Wegi أو الزغاوة كما هو معروف لبقية السودان، الأرتاج وقلا وتوار وأنكا وكايتنجا.

٣ ـ كوبيرا Kobera أو الكوبى.

وأغلب الزغاوة في السودان، وقدر كبير منهم في تشاد.

وكوبى اسم جبل في وسط الدار وبه سميت المنطقة وسميت البدنة. وتتكون البدنة من أربعة أقسام، ولكن أغلب الكوبى في تشاد، وجبل كوبى نفسه الذي يسمون عليه في تشاد، وقد اتحدت تحت قيادة زعيم يدعى بيرو أوبيلو، وهذا هو الجد الأسطوري للكوبى حيث يقال إنه كان يصطاد الأفيال وجاء إلى الموقع الحالي لجبل كوبى (كوبى ها) وهو يطارد قطيعاً من الأفيال واستقر هناك وأوجد القبيلة. وهذا الجبل يحتل مكاناً عظيماً في أعراف القبيلة وعاداتها مثلما يحتل جبل الميدوب عند قبيلة الميدوب. ويرجع اتحاد فروع كوبى إلى أوائل أيام قيام سلطنة الفور. ويبدو أن ذلك كان بتأثير من قيام هذه السلطنة وسلطنة الوّداي والعلاقات الساخنة بينهما. وقد خلف بيرو عدد من الشيوخ حتى ظهر كورى من خشم بيت جيرا، وقد انتعشت الدار في زمنه. وعلى يديه مال كوبى إلى الفور وأصبحوا جزءاً من السلطنة. وقد طلب كورى من السلطان أحمد بكر أن يعطيه نحاساً ليكون اعترافاً خاصاً بالقبيلة وزعامته لها وقدم له هدايا ثمينة عبارة عن مائة حصان ومائة جمل ومائة ثور. وقد أعطاه السلطان أحمد بكر لقب السلطان ونحاسين يدعى أحدهما مستورة والثاني بيضاً. إلا أن كورى مات بعد ثلاثة شهور من هذا التدبير وخلفه ابنه تا في احتفال عظيم نظراً للكينونة الجديدة التي فازت بها القبيلة. وقد فصله السلطان تيراب بعد أن حكم ثلاثين عاماً وعين بدله ابن خالته هاروت. ويذكر ناختقال أنه أعطاه نحاساً. وعند وفاة هاروت خلفه أتيم بن تا، وهذا أدى إلى صراع بين أولاد تا وأولاد هاروت امتد لفترة. وقد أيد السلطان عبد الرحمن الرشيد أتيم ودعم حكمه. أما الذين نازعوا أتيم من أولاد هاروت فكانا حقار وجاد الله، وسوف يظهر حقار هذا فيما بعد. وعند وفاة أتيم لم يعين ابنه سليمان وإنما عين

السلطان محمد الفضل عـريار والـذي هو ابن أخ أتيم. ولم يختلف النـاس حول وفاة هذا وهدأت الأمور لفترة. وقد عمي عريار ثم مـات وعين السلطان محمـد الفضل بدله حقار بن هاروت الذي كان قد نازع أتيم من قبل، وقد قتل حقـار في حرب مع سلطان ودّاي. وبعده عين السلطان محمد الفضل دقونا، وقد مات هذا بعد سنـة واحدة وخلفـه ابنه اجـارو. ولما مـات هذا عـين السلطان حسين عبد الفقرا والذي استمر حتى مات بعد سقوط السلطنة في بداية التركية. ونظراً إلى اهتزاز الأمور في المنطقة نتيجـة لسقوط السلطنـة والاضطراب الـذي ساد في العهد التركي لجأ الكوبي إلى عبـد الرحمن فـرتى، وهو ابن بشـارة بن آدم بن تا المـذكور والـذي قرر عـدم التسليم للترك وتحالف مـع السلطان يـوسف سلطان ودّاي. وكـان أبنـاء عبـد الفقـرا عنـدئـذ صغـاراً فـذهب راكب، وهـو ابن أخ عبـد الفقرا وابن أخت اجـارو، إلى الفاشر وأعـطى البيعة للمهـدية. وقـد عينه محمد خالد أميراً على كوبي. وبذلك أصبح لكوبي أمير يتبع للمهدية وسلطان هو عبد الرحمن فرتى يتبع لسلطان ودّاي. وقـد تصارع الاثنان لست سنـوات. وفي هذه الأثناء ولد دوسة الذي نتعرض لدوره فيها بعد. وقد أخطأت قيادة الأنصـار بـأن أرسلت راكب إلى أم درمان في جـو من عدم الثقـة. وهكذا خـلا الجـو في المنطقة لخصـوم المهديـة. واستمرت العـلاقات بـين عبد الـرحمن فرتى وسلطان ودّاي حتى جـاء السلطان علي دينـار والذي عمـل على إخضـاع كل الـديار التي كانت تخضع لسلطان الفـور. وقد أرسـل قوة كبـيرة بقيادة آدم رجـال لإخضاع كوبي وسلطانها. وفي نفس الوقت أرسل السلطان دود مرة، سلطان ودّاي، قـوة وهـاجم عبد الـرحمن فرتى من الغـرب. في هذه الـظروف فضل فـرتى الإذعـان للفـور وأسرع بولائـه لعلي دينـار. وبقتل حقـار لعبد الـرحمن فـرتى تم تقسيم سلطنة كوبي إلى سلطنتين، وعليه يكون حقار أول سلطان لكوبي تشاد وحـدهم ويكـون السلطان دوسة أول سلطان لكـوبي السودان. أمـا من سبقوهم فكـانـوا سلاطين للكوبي كلهم قبل تقسيمهم بين تشاد والسـودان. ولما جـاء الفرنسيـون عينـوا بالجهـة المقابلة سلطانـاً يدعى حقـار، وهو حقـار بغير حقـار الـذي ذكـر سابقاً. وهاجم عبد الرحمن فرتى بمسـاعدة الفـرنسيين انتقـاماً من انضـمامه لعـلي دينار وانتصر عليه وقتله. وبسرعـة عين عـلي دينار محمـد دوسة بن عبـد الرحمن فرتى في مكان أبيه واستمرت الدار خاضعة للسلطان علي دينار حتى نهاية ملكه.

أما عن النحاسات فقد كان لسلطان كوبى نحاسان أحدهما يدعى مستورة والثاني يدعى بيضا، وهما النحاسان اللذان أعطاهما أحمد بكر. وقد بقيا عند السلاطين حتى وفاة عبد الفقرا. وعندما شرع الأنصار في جمع النحاسات فإن راكب الذي سبق ذكره أخذ النحاسين قد أرسلا إلى أم درمان. وهذا قريب إلى الواقع، إذ أن الأمير عثمان جمع عدداً كبيراً من النحاسات القبلية وأرسلها إلى أم درمان. وفيما بعد أعطى السلطان محمد يوسف سلطان ودّاي نحاسين لعبد الرحمن فرتي، وهذا يعني تبعية الدار لسلطان ودّاي واعتراف فرتي بذلك وكان ذلك أمراً واقعاً. وقد احتفظ فرتي بالنحاسين. وعندما تحول إلى الفور وقبل تبعيته لهم أعطاه علي دينار ثلاثة نحاسات. وهكذا تكون نحاسات كوبى خمسة. وعندما هاجم حقار وانتصر على فرتي غنم النحاسات الخمسة وأخذها معه. وتعويضاً عن ذلك أعطى علي دينار لدوسة الذي عينه سلطاناً أربعة نحاسات، أي طاقماً كاملاً. ولما جاءت الإدارة الإنجليزية بعد سقوط علي دينار اعترفت بالنحاسات الأربعة. وقد جاء في تقرير لمفتش كتم مؤرخ في ٣١/ ٣/ ١٩٣٧ مناسبة إعطاء هذه النحاسات وعددها، وقد جاء فيه أن هذه النحاسات هالكة ولا يرجى تصليحها، وقد استصوب المفتش أن تعطي الحكومة نحاسات جديدة. وعلى الأثر كتب المدير إلى السكرتير الإداري في ٥ مايو ١٩٣٧ يقول إن نحاسات الزغاوة كوبى تقادمت ولا تصلح للصيانة وأنه سوف يكون عملاً جيداً ومقدراً محلياً إذا قام الحاكم العام بإهداء نحاسات بديلة، ثم أردف يقول إنه بالرغم من أن هذه القبيلة صغيرة من حيث العدد إلا أنها مهمة سياسياً بالنسبة إلى أنها على الحدود، وبالتالي فإن الظروف تقتضي أن يكون عند سلطانهم ما يعتز به على السلطان المواجه له في إفريقيا الإستوائية الفرنسية وهو حقار المذكور. وقد رد السكرتير الإداري في ١٧ مايو ١٩٣٧ بأنه يرى أن نحاس زغاوة كوبى ليس مستوفياً للشروط الواردة في منشور النحاسات ويطلب أن يقدم المدير دعماً لطلبه. وعلى الأثر كتب المدير مذكرة أخرى يدعم بها طلبه وذهب إلى أن الأمر المطلوب ليس الاعتراف بنحاس كوبى لأن الاعتراف واقع من قبل، وكان نحاسهم يدق بموافقة الحكومة في احتفالات القبيلة سنوياً منذ فتح دارفور، وإن ما طلبه هو استبدالها بنحاسات جديدة نظراً إلى تقادمها وليس

تقرير الاعتراف أو عدمه. وقد ذكر المدير أن دوسة حاول أن يخفي تقادم نحاساته بدق التم تم ـ أي الدلوكة في لغة الدناقلة ـ بالقرب من النحاس، وربما كان ذلك لتمسكه بنحاساته التاريخية أو لخوفه من المشاكل. إلا أن أمراً جديداً قد طرأ وهو التفكير في ضم كوبى إلى محكمة الزغاوة المقترحة مما يعني أن كوبى لن تكون لها كينونة مستقلة، كما أن دوسة ليس له ابن مرشح للزعامة. ولذلك فإنه يؤيد توصية المستر مور والقاضية بأن يكون النحاس المقترح نحاساً شخصياً ويعاد إلى الحكومة عند وفاته مع كسوة الشرف. وفي ١٤ ديسمبر ١٩٣٧ أخطر السكرتير الإداري المدير بالموافقة على النحاسات الجديدة لكوبى.

وبالنسبة إلى ما قيل بصدد الوضع الإداري للزغاوة ووضع كوبى ونحاسهم فإن وضع كوبى كان مميزاً، ولذلك بقي سلطانهم بعيداً ومحتفظاً بنحاسه، في حين كانت الدور الأخرى تتجمع في إدارة موحدة. والواقع أن تعديلاً ما لم يتم لدمج كوبى مع دور الزغاوة الأخرى. ففي ١٩٤٠ يرد في تقرير أن نحاس كوبى معترف به. وفي أواسط الأربعينيات تظهر في تقسيمات مركز كتم إدارة كوبى بسلطان هو محمد دوسة نفسه بينما كانت لأرتاج إدارة بملك هو موسى خميس. وكان الأرتاج قد تم انسلاخهم من دار بيري في ١٩٣٨ وظل ملكهم بخيت موسى حتى ١٩٥٣ حيث تم تعيين محمد ودّاي بدلاً عنه. وقد قتل موسى خميس في ١٩٨٩ في هجوم للنهب المسلح.

نحاس قلا:

لم يكن لهؤلاء نحاس تاريخي، وإنما قام الشرتاي الطيب صالح بشراء نحاسات بعد أن سمحت له الإدارة بذلك في أول العهد الثنائي بدارفور. ولكن الحكومة لم تتخذ إجراءات للاعتراف بهذه النحاسات رسمياً وإنما ظلت تعتبر من قبل الحكومة نحاسات شخصية ليس لها مدلول قبلي أو إداري. وقد ورد أن هذه النحاسات كانت مكونة من طاقم كامل، أي نحاسان كبيران هما الثور والبقر ونحاسان صغيران هما العجلان. وورد أيضاً أن هذه النحاسات كانت أصلاً نحاسات الشيخ دفع الله ناظر المسيرية الذي فصل من منصبه وسمحت الحكومة للطيب بشرائها. وفيما ذكر ابنه الشرتاي التجاني فإن الثمن

الـذي دفع مقـابلها بلغ ٧٥ بقـراً و٧ جمالاً و٣ حصـاناً. وقـد مـارس الـطيب ضربها رسمياً. ولما مات الطيب في ١٩٣٢ خلفه ابنه التجـاني والذي مـارس ضرب هذه النحاسات، وقـد احتفظ بها في كـرنوي. وفي ١٩٣٦ ظهـر اتجاه لضم قلا مع توار والذي يملك رئيسه نحاساً موروثـاً. ولذلـك فإن نحـاس قلا يصبح بالمعيـار الإداري معضلة ويؤدي إلى نزاع محتمـل. وقد اقتـرح مفتش مـركز كتم سحب نحـاس قلا، وقـال إن ذلك يمكن أن يتم في أي وقت دون صعـوبـة إذا تم دفـع التعـويض المنـاسب، وذكـر أنـه يبحث في مقـدار هـذا التعويض. ومع ذلك بقي نحاس قـلا عند رئيسهم. ففي إبـريل ١٩٥٠ يـذكر مفتش كتم وجود النحاسات بطرف التجاني ويروي عنه تاريخه.

نحاس توار:

نحاس ملك توار نحاس تاريخي، وقد جاء بالوراثـة. وقد روى ملكهم محمدين قصته إلى مفتش كتم وقال إن القبيلة كانت تملك نحـاساً معتـرفاً بـه من قبل السلطان علي دينار، فلما توفي الملك مصـطفى بحر سحبـه السلطان بحجة تقديمـه لابنه آدم صبي الـذي خلف أباه. إلا أن آدم صبي حكم عـاماً واحـداً فقط ومات قبـل أن يتسلم النحـاس. وفي نفس الـوقت قتـل السلطان نفسه وفقد أي أثر للنحاس في ظروف ما بعد مقتل السلطان علي وقيام الإدارة الجديدة.

وفي بداية الإدارة الإنجليزية كـان الاتجاه هـو تشجيع الإدارات القبليـة والسماح باتخـاذ النحاسـات بشكل متسـامح. وهكـذا حظي محمـدين بالإذن لشـراء نحـاســات. وقـد تمكن فيمــا بين ١٩٢٠ و١٩٢٥ من شــراء سبعــة نحاسات، منها ثلاثـة نحاسـات كبيرة واثنـان متوسـطان واثنان صغيـران. وقد أضاف أنه احتفظ بهذه المجموعة في منزله بأم بـرو وأنها كلفتـه ٣٢٠ جنيهاً، وهو مبلغ لا نتصوره يدفع في ذلك الزمـان. وعلى أي فإنـا نرى من كـل ذلك عناية محمدين بالنحاسات وسوف نرى فيما بعد كيف حـاول أن يستغل أمـرها ليفرض رأيه.

تـرأس الملك محمدين محكمـة الزغـاوة والتي تضم دار تـوار ودار قـلا ودار أرتاج، أي كل الزغاوة مـا عدا كـوبى، والذين هم قليلون عـدداً بالنسبـة

إلى الدور الأخرى ولهم وضعهم المتميز والذي يجعلهم مستقلين عن محكمة الزغاوة ومحتفظين بنحاسهم. وكون محمدين ترأس محكمة الزغاوة أدى إلى أن يحتفظ بنحاساته، وقد اعترف بها رسمياً نظراً إلى أنه ضرب في محضر الحاكم العام والمديرين منذ ضم دارفور إلى إدارة السودان. ومنذ أوائل الأربعينات كانت الحكومة في حالة الترقب لنجاح أو فشل إدارة الزغاوة ومحكمتهم لتقرر مصير نحاس كوبى وتوار. فإذا نجحت الإدارة يصير نحاس توار نحاس الزغاوة كلها وتسحب نحاسات كوبى وقلا أو تجمع النحاسات من الدور الثلاثة وتكون لدى ملك توار باعتبارها نحاسات القبيلة. وقد تقرر في ١٩٥١ أنه لا بد من إلغاء نحاس كوبى عند وفاة صاحبه. وقد ذكر المفتش في ٩/ ٤/ ١٩٥١ بعد أن استعرض أمر النحاسات أن خططه إزاء الزغاوة قد تغيرت وأنه مستعد للنظر في الإبقاء على نحاسات كوبى أو السماح بضرب نحاس قلا ولكنه لا يمكنه أن ينظر في إعطاء نحاس جديد لتوار بالنظر إلى أن النحاس الحالي هو نحاس توار وليس نحاس الزغاوة مجتمعة. وقد قرر ألا يسمح لملك توار بضرب النحاس. ورداً على ذلك قرر المدير ألا يعطي الملك أي اعتبار رسمي لنحاسه.

ونتيجة لصراعات كثيرة تم فصل محمدين في ١٩٥٠ وعين محله ابنه علي. وقد أبعد عن الدار إلا أنه استغل كون النحاسات تتبع له شخصياً ومع ابنه من ضرب نحاساته. ثم اشترط مقابل الإذن لابنه بضرب نحاسته أن يسمح له بالعودة إلى الدار ليتسنى له الاتصال بالقبيلة وتسوية الأمور وأن يكون تسليم النحاسات لابنه رسمياً وجماهيرياً. وفي النهاية فإنه يترك بقاءه في الدار لتقدير ابنه وتقدير الحكومة. ورغم أن ابنه رأى أن عودته لن تؤثر على الوضع وأنه سوف يستعين بنصائحه في بعض الأمور فإن السلطات كانت ترى أن ابنه ربما يكون مدفوعاً بالرغبة في دق النحاس وأن الملك القديم إن عاد سيرجع إلى التآمر وخلق المشاكل ويصعب الأمور على ابنه. وفي نفس الوقت فإنه إذا منع من العودة سوف يمنع ابنه من ضرب النحاس. ولما كان ضرب نحاس دار قلا يعتمد على ضرب نحاس توار الذين لهم الغلبة فإن موقف محمدين خلق وضعاً شائكاً. وعلى أي فإن الحكومة لم تقرر شيئاً محدداً وتركت الأمر ليحل مع الزمن. ومما يذكر لهذا الملك أنه اشترط عند

فصله على الحكومة أن تعلم أولاده مجاناً وقد حصل على هذا الطلب واستفاد من ذلك أولاده وغير أولاده، وهذا موقف عظيم ويدل على وعي يجعله جديراً باحترامنا.

إن المشاكل التي واجهتها إدارة الحكم الثنائي تنجم من محاولة فرض الوحدة على الدور وخلق إدارة موحدة. وقد ظهر النحاس باعتباره شعار الوحدات التي يرجى دمجها. ولكن توحيد دور الزغاوة مهمة كبيرة، وفي تقديرنا أن الإداريين البريطانيين لم يعوا أن هناك مشاكل حقيقية في التوحيد بالنظر إلى تاريخ الدور والتقسيم القبلي والسياسات المحلية التي يدور حولها الزعماء. وإذا كانت المشكلة في الشرق والشمال هي وحدة الدار وقيادتها ومشاكل الحدود والأمن والعلاقات مع القبائل المجاورة فإن كوبى كانت لها مشكلة فوق كل ذلك وهي مواجهة الطرف الفرنسي. ولذلك فإن السياسة التي هدفت إلى الدمج على الأساس ولأغراض إدارية بحتة لم تكن ناضجة. وكان من الممكن تطوير الدور والتقدم بها إلى الأمام لخلق هدف جامع لهذه الدور من شأنه أن يؤدي إلى الدمج أو على الأقل نحوه. لذلك لم تنجح المحاولة وقد عادت الإدارة إلى الاعتراف بالوحدات التقليدية.

وهذا بخلاف تجربة المساليت الذين كانوا يعيشون في بدنات مستقلة بل ومتحاربة ولكن جدت ظروف تاريخية استطاع أن يعمل في إطارها هجام والفكي إسماعيل بما أدى إلى توحيد المساليت تحت زعامة أسرة إسماعيل. ويمكن النظر أيضاً إلى توحيد بدنات الكبابيش تحت زعامة واحدة في نفس الإطار: أن تتوحد البدنات لمواجهة ظروف تؤثر فيها ولا يمكن التعامل معها إلا بزعامة وقيادة موحدة.

وتكملة لصورة الوضع الإداري للزغاوة ومشاكل قياداتهم ووضع نحاساتهم نسوق هذا الملخص لمذكرة لمفتش مركز كتم إلى مدير دارفور، يقول:

كانت سياسة الحكومة نحو دور الزغاوة حتى فصل محمدين من قيادة دار توار هي توحيد دور الزغاوة تحت إدارة واحدة. وكان محمدين يعتبر الملك الأكبر بين قيادات القبيلة. وكان يضرب النحاس على هذا الأساس

ومعترفاً به باعتباره الشيخ الأكبر. ولم يسمح لملك دار قلا بدق نحاس الملك التجاني، وكان السلطان دوسة في كوبى يدق نحاسه باعتبار خاص. وعند فصل محمدين في ١٩٥٠ تعدلت السياسة وخلقت أربع قيادات مستقلة عن بعضها هي: توار وقلا وكوبى وأرتاج، ورتب بحيث يدق نحاس محمدين والتجاني، ولكن هذا الترتيب قد اختل بالوعد الذي أعطى لمحمدين بأن ابنه لن يدق نحاسه إلا بإذنه، وقد رفض محمدين أن يعطي الإذن حتى وفاته. وقد طلب ابنه علي بأن من حقه أن يدق نحاس أبيه بعد موته، وقد عزز ذلك بطلب من التجاني بالإذن له بدق نحاسه.

إن السياسة الموضوعة هي تقوية الإدارات وجمع الدور، وضرب النحاس يساعد في ذلك. والرؤية في ١٩٤٩ كانت أن الدور الأربعة هي الدور التي لها مستقبل إدراي وأكبرها توار وقلا، وقد نجح علي محمدين بالرغم من المصاعب، والتجاني الذي عين في ١٩٣٩ يمضي قدماً رغم خضم المشاكل. وفي ١٩٥٣ أيد المفتش قرار ١٩٥٠ بإعطاء إذن النحاس لعلي محمدين والتجاني. ولكن مدير المديرية علي أبو سن يعترض لأنه يرى ألا يعطي الإذن للنحاس لدار توار وقلا، لأن أحمد محمدين في توار لم يظهر بعد التخلي عن خلق المتاعب وإعطاء النحاس له سوَف يعطي الانطباع بأنه رئيس دور توار وقلا وأرتاج، مما يخلق المصاعب. وفي قلا لم ترتب الأمور بعد.

نحاس الزيادية:

الزيادية من قبائل شمال دارفور المهمة، وتقع دارهم بين الميدوب والبرتي. وتتكون القبيلة من ثلاث بدنات هي أولاد جابر وأولاد جربوع وأولاد فضل. وأهم البدنات وأقواها هي أولاد جربوع، وفيهم رئاسة القبيلة. وقد اتحدت هذه البدنات وكونت قبيلة واحدة منذ أوائل سلطنة الفور. وكانت قبيلة مشهورة بثرائها الواسع، وكانت تملك ثروة من الخيول وكمية كبيرة من السلاح. ويقول ناختقال إنه كان لقبيلة الزيادية عند زيارته عشرة شيوخ كباركان لكل منهم نحاس. ونحن نقف عند لفظ النحاس ونظن أن المقصود به هو الدنقر الخشبي لأن النحاس لا يكون إلا لرئيس القبيلة كلها. ولعل

الخطأ هنا من مترجم ناختقال أو من المحرر الذي كتب الطرف الخاص بدارفور من مذكرات ناختقال بعد وفاته. ويقول نفس المصدر إن السلطان تيراب نقل السلطة من أولاد جابر إلى أولاد جربوع وأعطى لشيخهم أم بادر نحاساً. ولقد انتقل النحاس بانتقال الشياخة من أم بادر إلى برتي ولد سليمان ومنه إلى دقيس، ومن هذا إلى حميدة ولد بليلة، وكل هؤلاء من أولاد جربوع. وفي عهد المهدية حاربهم الأمير عثمان آدم جانو وحطمهم وأخذ نحاسهم وأرسله إلى أم درمان. وقد تشتت القبيلة على الأثر.

وفي عهد علي دينار عاد عدد بسيط من القبيلة بقيادة جمعة جادين بينما بقيت الغالبية في شمال غرب كردفان لعدائها للسلطان ولجمعة جادين.

وعندما ضمت دارفور للسودان بعد مقتل علي دينار وجدت الحكومة الزيادية مشتتين في كردفان ودارفور. وكانت الأمور مضطربة. وكان الإنجليز في حاجة إلى من يتعاون معهم. وفي هذه الظروف تقدم جمعة جادين وأبدى روح التعاون فعينه مكمايكل رئيساً للقبيلة وأمره بجمع أفرادها من شتاتهم. وهنا نلاحظ أن جمعة لا ينتمي إلى أولاد جربوع الذين فيهم رئاسة القبيلة تقليدياً، وقد أعطت الحكومة الاعتبار لمن هو الأقوى في دارفور عندئذ، ولم يعترض أولاد جربوع لأنهم كانوا بعيدين عن مسرح جمعة. وقد أمر مكمايكل جمعة بجمع الزيادية من كل الأصقاع وتوطينهم في دارهم فعمل في ذلك بجدارة، واعترافاً بنجاحه في هذه المهمة أهداه المستر سافيل مدير المديرية نحاساً وسمح له بشراء الباقي، وقد فعل جادين ذلك وأكملها إلى أربعة لتكون طاقماً كاملاً. وقد اعترفت الحكومة بنحاسات جمعة وكان يضربها حتى تقاعده في ١٩٣٠ وانتقال الشياخة إلى أولاد جربوع.

وكان سبب تقاعده هو أنه عندما تجمعت القبيلة في الدار أصبح مركزه مهزوزاً بحكم وجود من يقود البدنة الكبرى، ولذلك تقاعد جمعة باختياره. وعندما تقاعد جمعة عين جزو إدريس وفقاً لتقاليد الزيادية التي تجعل الشياخة في أولاد جربوع، وقد أضحى شيخ الزيادية كلها ما عدا شياخة علي قاروت في شرق دارفور والتي كان من المقرر ضمها إلى إدارته. وعلى يد جزو تمت محاولة توطين القبيلة وتنظيمها وبشكل عده أحد الإداريين أكثر نجاحاً من

توطين بني حسين. وقال إن محكمة مليط قوت من سلطة جزو، وصفته فيها أنه نائب رئيس المحكمة، ولا يصدر حكم على زيادي إلا في حضوره. أما رئاسة المحكمة فكانت لشيخ البرتي. وعند وفاته خلفه ابنه آدم. وكان آدم في الترتيب الإداري لمركز كتم في أواسط الأربعينات شيخ إدارة الزيادية.

أما عن النحاسات فقد طلب من جمعة أن يعطيها لجزو إدريس ولكنه رفض بحجة أنه لم يفصل عن الشياخة لذنب وإنما لضعف مركزه نتيجة لتوحيد القبيلة، ونزولاً على هذا الرأي لم تضغط عليه الحكومة لتسليم النحاس، وقد بقيت عنده حتى توفي في أكتوبر ١٩٤٠ م، وذلك بالرغم من تأييد الإداريين لضرورة أن تكون النحاسات لدى جزو. ويقول المدير للسكرتير الإداري في ١٧/ ١/ ١٩٣٧ إن الزيادية موالون للحكومة وأن إهداء النحاس لجزو سوف يكون إجراء مناسباً للاعتراف بخدماته وبخاصة في توحيد الزيادية وسوف يضمن وحدة القبيلة مستقبلاً. وقد بقيت النحاسات عند جمعة نحو عشر سنوات ولكن دون أن يدقها واستمر هذا الوضع الشائك. وعند وفاته صادر المفتش مور النحاسات واقترح أن تسلم إلى جزو وعندما صودرت النحاسات انزعج الزيادية الأمر الذي دفع شيوخ الزيادية وبما فيهم ابن جمعة أن يتقدموا في احتفال قبلي في أبريل ١٩٤٠ م بعرائض كثيرة يطالبون فيها بأن تسلم النحاسات التي غنمها المفتش إلى إدريس باعتباره رأس القبيلة. وقد أيد المستر مور الطلب ودعمه المدير ورفعه إلى السكرتير الإداري مقترحاً إعطاء نحاسات جديدة بدلاً من نحاسات جمعة. وقد ذكر المدير أن نحاساً واحداً فقط من هذه النحاسات هو الصالح. وعلى ذلك فإنه يقترح أن يضاف إليه نحاس كبير ونحاسان صغيران حسب اقتراح المدير وأن تهدى رسمياً في سنة ١٩٤٢ م. وقد وقف مصدرنا عند هذا الحد. إلا أن علي أبو سن مدير دارفور يذكر في مذكراته أن النحاسات التي بقاعة الطعام بمنزل مدير دارفور هي نحاسات جمعة جادين وتحمل أربعة منها اسمه، وذكر أبو سن أنها صودرت بعد فصل الناظر جمعة، ولكن الصواب أنها أخذت عند وفاته كما سبق القول.

نحاس بني حسين:

كانت قبيلة بني حسين قبيلة مهمة على عهد سلاطين الفور. ولما تم فتح دارفور وضم إلى الإدارة المصرية حاول النور عنقرة استمالة القبيلة وأهدى إلى حامد تورجوك رئيس القبيلة نحاساً. وقد ظل هذا النحاس عندهم حتى غنمه منهم الأمير عثمان آدم جانو، وبذلك ضاع النحاس. وقد تشتت القبيلة في المهدية واستمر التشتت في عهد علي دينار.

وببداية إدارة العهد الثنائي إثر سقوط سلطنة علي دينار واجهت الحكومة الخراب الذي حل بدارفور وشجعت على جمع شتات القبائل وتسكينها في دورها وإعادة تنظيمها. وجرياً على هذه السياسة وجهت الحكومة نظرها إلى قبيلة بني حسين. وقد تولى الشيخ حامد يعقوب قيادة القبيلة تحت إدارة مكمايكل، ولنجاحه كافأه المستر سافيل الذي خلفه في إدارة المديرية بالإذن له في ١٩١٨ بشراء النحاس، وبالفعل اشترى حامد نحاسين. وبقيادة حامد يعقوب تجمعت القبيلة في دارها الأصلية، وهي دار عطاش، وتقدمت إدارته. وقد قرر الإداريون الإنجليز ضرورة الاعتراف بنحاسه لما له من مفعول في تقوية إدارته وسياسة جمع بني حسين. ففي ١٧/ ١/ ١٩٣٦ كتب مدير دارفور إلى السكرتير الإداري يقول: إن نحاس بني حسين يقدم خدمة جليلة كعامل توحيد وأن سياسة الحكومة تجميع القبيلة واستيطانها في دارها. ثم مضى ليقول من الخطأ سحب نحاسها لاعتبارات منشور النحاسات ثم يقترح انتهاز فرصة مناسبة لإعلان اعتراف الحكومة بهذا النحاس. وفي ٣١/ ٣/ ١٩٣٧ يقول مفتش كتم في خطاب إلى المدير بعد أن يسرد تاريخ النحاس أنه يرى مكافأة حامد على نجاحه في جمع القبيلة وإدارتها في وجه مصاعب كثيرة، ويقترح أن يعترف بنحاسه في فرصة مناسبة كما فعلوا بنحاس البرتي، ويقول إن المدير سمح لحامد بضرب نحاسه في الاحتفالات القبلية في فبراير ١٩٣٧، ولذلك فإنه لا يرى وجهاً للاعتراض على اقتنائه للنحاس. وفي ٥ مايو ١٩٣٧ م يقول المدير في مذكرة للسكرتير الإداري بعد أن يسرد تاريخ نحاس حامد أنه من الضروري الاعتراف بنحاس بني حسين نظراً إلى أن هذا يقوي اتجاههم نحو الوحدة وتوجههم نحو المستقبل. وفي ١٩ مايو ١٩٣٧ م أبدى السكرتير الإداري استعداده للتوصية بنحاس بني حسين. وقد

اتضح أن نحاسات حامد يعقوب قديمة متهالكة وأنه لا بد من استبدالها. وقد أوصى المدير بأن يدبر الحاكم العام ذلك البديل وأن ينقش عليه بأنه هدية من الحاكم العام وأن يعترف بهذا النحاس رسمياً. وفي ١٤/ ١٢/ ١٩٣٧ أبلغ السكرتير الإداري المدير بتدبير نحاس بني حسين والاعتراف به وبالنحاسات الجديدة للزغاوة كوبى. وفي فبراير ١٩٣٨ قدم الحاكم العام في احتفال نحاسين للقبيلة يتكونان من ثور وبقرة. وعند وفاة حامد تعين ابنه آدم حامد يعقوب ناظراً، وقد ظهر اسمه بهذه الصفة في تقسيم إدارات مركز كتم في أواسط الأربعينات.

نحاس الميدوب:

وهم قبيلة مهمة في دارفور، وهم أصلاً من النوبة في شمال السودان. وقد قضيت بينهم يومين سعيدين في طوافي لإعادة رسم مديريات السودان. وقد هالني تشابههم بأهلي في الشمال، وكنت إذا وجهت أذني إلى كلامهم كأني أسمع أهلي من بعيد. فاللغة هي اللغة ولكن زادت مفردات وتحور النطق بعض الشيء. وكان من الميدوب من تولوا المناصب العالية لدى سلطان الفور. وفي العهد الثنائي عنيت الإدارة الإنجليزية بهم، وقد أهدتهم الحكومة طاقماً من النحاس وقدمه الحاكم العام في ١٣/ ٦/ ١٩٣٦ في احتفال قبلي كبير للملك محمد الصياح ود جامع خير، وهو يتكون من نحاسين.

وقد ألقى الحاكم العام الخطاب التالي على المجتمعين في المالحة بمناسبة إهداء النحاس، وهو خطاب مشابه لما كان يلقيه في مثل هذه المناسبة:

يا حضرة مقدوم دار الريح والملك محمد الضياح ويا أعيان قبيلة الميدوب: أنتم تعرفون أيها الملوك أن وجود نحاس في يد قبيلة هو شرف عظيم. ولقد قررت أنا في المستقبل أن يمنح هذا الشرف مني أنا مباشرة بصفتي الحاكم العام للسودان.

ولقد أخبرني سعادة مدير دارفور من وقت لآخر بالتقدم والاتحاد لقبيلة الميدوب الذي حصل تحت رئاسة الملك محمد الصياح ود جامع خير، وإني مسرور مما سمعت بهذا الخصوص.

ولذلك أقدم هذا النحاس للملك محمد الصياح بصفته رئيس قبيلة الميدوب. ولي العشم أن يدخل عليكم هذا النحاس بالخير الدائم. وعشمي أيضاً استمرار القبيلة في هذا التقدم.

نحاس المقدومية:

كان المقدوم رجلاً مهماً في إدارة السلطنة. وقد بقي في العهد الثنائي مقدوميتان، مقدومية آدم عبد الرحمن رجال على قبائل الفور والبرقد وغيرهم بمركز جنوب دارفور، وقد قتله السلطان علي دينار في ١٩١٣ م، ومقدومية الشمال بمركز كتم. وكان أول مقدوم للشمال في العهد الثنائي هو محمد شريف، ولما توفي في ١٩٢٦ عين ابنه يوسف في مكانه على سبيل التجربة ثم ثبت في الوظيفة في ١٩٣٠ وأعطيت له السلطات الكاملة. ويبدو أن علاقاته بشيوخ الشمال كانت جيدة. فقد تقدم شيوخ المنطقة في مارس ١٩٣٧ بطلب إلى مفتش كتم في احتفال قبلي إعادة عادة أن يحمل المقدوم طبلين من طبول الخيل في الاحتفالات، وقد أوضح المفتش للمدير أنه يميل إلى قبول هذا الاقتراح وذكر أن هذا النوع من الطبول موجود في الفاشر. وقد رفع المدير هذا الرأي إلى السكرتير الإداري في مايو ١٩٣٧، وذكر أن من رأيه أنه سوف يكون هدية مناسبة من الحاكم العام إلى مقدوم شمال دارفور من شأنها أن ترفع من مكانته. وقد رد عليه السكرتير بأنه يوافق على هذا المسعى إلا أنه طلب بألا يعتبر هذا الطبل نحاساً قبلياً. وقد وافق المدير على ذلك وأكد عدم الخلط في هذه المسألة بين الطبل والنحاس القبلي، وأضاف أن الطبل المذكور صغير، أكبر في حجمه من القريب فروت وأصغر من كرة القدم، . وأن علي دينار استعمله وسمح لآخرين من رجاله باستعماله في الاحتفالات، وهو وبالتالي لا أهمية له من الناحية السياسية. ثم أضاف أنه سوف لن يقدم الطبول إلى المقدوم رسمياً، وإنما سوف يرسلها إليه قبل يوم الاحتفال. وقد أرسلها بالفعل، وكانت مكونة من أربعة طبول.

نحاس البرتي:

وهم قبيلة مهمة، ويقطنون شمال دارفور، ومركزهم مليط. ويعيش بعضهم في شرق دارفور. وقد حازوا ـ أي القبيلة الرئيسية في نواحي مليط ـ على نحاس في ١٥/ ٣/ ١٩٣٦، قدمه إليهم الحاكم العام في احتفال رسمي في عهد آدم تميم بشارة والذي قام بدور كبير في سبيل جمع القبيلة في دارها التاريخية وتقوية إدارتها. وعندما توفي آدم تميم خلفه ابنه أحمداي. وكان رئيس ألبرتي هو رئيس محكمة مليط بينما كان ناظر الزيادية هو نائب الرئيس. وكان نحاس البرتي يدق كل يوم جمعة. ويبدو أنه كان هنالك اتجاه لسحب النحاس بعد وفاة آدم، ولذلك يقول مدير دارفور في خطاب إلى السكرتير الإداري في ١٧/ ١/ ١٩٣٦ أن سحب النحاس من الشيخ الجديد سوف يكون عملاً سيئاً من قبل الحكومة لرجل خدم أبوه الحكومة كثيراً، بالإضافة إلى أن برتي مليط يعتبرون الفرع الرئيسي حتى لدى أقربائهم في شرق دارفور، وهم مستوفون للشروط الواردة في الفقرة الخامسة من منشور النحاسات. وهكذا بقي نحاس البرتي معترفاً به رسمياً. وقد جاء في قائمة مركز كتم للنحاسات أن نحاس الشرتاي أحمداي آدم تميم شرتاي البرتي قبلي وأنه اقتني أصلاً بالشراء. ولكن يبدو أن هنا خلطاً، إذ تقدم أن الحاكم العام قدم إليهم نحاساً في عهد الشرتاي آدم، وعلى هذا فقد ورث أحمداي النحاس من أبيه، وكان أصلاً من الحكومة وليس بالشراء. وفي التقسيم الإداري لمركز كتم في أواسط الأربعينات ظهرت إدارة البرتي بقيادة الشرتاي أحمداي. وجاء في مذكرة في ١٩٤٠ أن نحاس البرتي معترف به.

وفي أبريل ١٩٥٣ تقدم إبراهيم ضو البيت شرتاي الطويشة ورئيس البرتي المقيمين في شرق دارفور بطلب إلى مفتش الفاشر يطلب فيه نحاساً. وقد أيد المفتش الطلب ورفعه إلى المدير والذي ذكر أنه لا مانع من ذلك استناداً على توصية المفتش ورفع التوصية بذلك إلى السكرتير الإداري. إلا أن الأخير لم يوافق باعتبار أن برتي شرق دارفور يمثلون قسماً صغيراً من القبيلة بالنسبة إلى برتي مليط الذين عندهم نحاس القبيلة.

نحاس تاما:

وهؤلاء قبيلة مهمة لها تاريخها، وهم يسكنون في نواحي كبكابية، وكان لهم ولاء قوي للمهدية. وكان زعيمهم سنين حسين قد ذهب إلى المهدي وأعطى البيعة وعاد إلى بلاده أميراً من قبله. وقد أعطاه المهدي نحاساً، وهو النحاس الذي احتفظ به طوال عهد المهدية. ولما جاء علي دينار قاوم سنين وظل يحارب حتى انهار دفاعه في ١٩٠٨ وألقي القبض عليه وأرسل أسيراً إلى الفاشر. وقد غنم السلطان هذا النحاس. فلما انتهى عهد علي دينار وجاءت الإدارة الثنائية أعادوا النحاس إلى ابنه عبد الشافع. ولكنهم مع ذلك لم يعترفوا به باعتباره نحاساً قبلياً كما أنهم تفادوا سحبه منه. وكان عبد الشافع يدق النحاس في الأعياد ولكنه أبطل هذه العادة من تلقاء نفسه. وقد جاء ذلك في مذكرة من السكرتير الإداري إلى مدير دارفور في ٢٤ نوفمبر ١٩٤٠. وفي كشف بنحاسات دارفور صدر في ٢٠ ديسمبر ١٩٤١ ورد هذا النحاس.

نحاس القمر:

كانت قبيلة القمر قبيلة قوية في أول عهد سلطنة الفور، وقد فرضوا سلطانهم على قبيلة الزغاوة وجيرانهم واحتلوا طرفاً من دارفور. وقد استمرت الحرب مشتعلة بينهم وبين الفور أكثر من سبع سنوات، وفي النهاية انتصر عليهم الفور على يد السلطان موسى بن السلطان سليمان وتم إخضاعهم. قيل استمرت الحرب سبع سنوات وسبعة أشهر وسبعة أيام ولم ينتصر الفور إلا بعد أن كابدوا كثيراً. وقد صار القمر جزءاً من السلطنة. وفي عهد المهدية ساد الاضطراب المنطقة ونجمت حروب قبلية. وفي ١٨٩٥ تمكن السلطان أبكر إسماعيل سلطان المساليت من هزيمتهم، وقد غنم على الأثر نحاساتهم ونساء سلطانهم إلا أنه أعاد كل ذلك إليهم بعد أن أمره بذلك السلطان محمد يوسف سلطان ودّاي في محاولة لرأب الصدع وتهدئة المنطقة.

وفي العهد الثنائي اتضح أنهم يملكون ثلاثة نحاسات، في الغالب ثوراً وعجلين. وجاء في المذكرات الإدارية أنها آلت إلى سلطانهم إدريس بالوراثة. ومع ذلك فإن الإدارة لم تعترف بها على أساس أنها نحاسات قبلية لها مدلول إداري، بل ذهب السكرتير الإداري صراحة إلى أنهم لا يستحقون

النحاس بمقتضى المقاييس الواردة في منشور النحاسات، ولكنه اعترف من جهة أخرى بأن الميثاق الخاص بدار المساليت ودار قمر يعطي القمر الحق في النحاس، وبالتالي فإنه لا يصح سحب النحاس من سلطانهم هاشم إدريس حتى وإن كانت القبيلة صغيرة الحال.

نحاس البيقو:

وهم قبيلة صغيرة تجاور الداجو والبرقد، وقيل إنهم أصلاً نزحوا من بحر الغزال إلى موطنهم، وكان وضعهم بين قبائل دارفور ضعيفاً حتى رفعهم السلطان محمد الفضل لكون أمه منهم. وللبيقو سلطان معترف به، ولهذا السلطان نحاس تاريخي. وقد قال الإداريون في ذلك أنهم ورثوه من نحاسات الفور عن طريق جدة سلطانهم أبكر، ولكن الأمر بهذه الكيفية يبدو غامضاً، والأقرب حسب المقتضيات الظرفية أن يكون السلطان محمد الفضل قد أعطى لكبيرهم نحاساً رفعاً لشأنهم. وقد جاء في مذكرة لمفتش جنوب دارفور في سنة ١٩٣٥ أن نحاس البيقو بحوزة سلطانهم علي أبكر. وقد ظلت الإدارة الإنجليزية تعترف بهذا الحق التاريخي، إلا أن اعتبار الإداري كان شيئاً آخر، إذ عندما عرض مدير دارفور الوضع بالنسبة لنحاسات دارفور في ١٩٤٠ طلب السكرتير الإداري توصية محددة بشأن قبول نحاس البيقو كآلة إدارية. واستجابة لذلك ذكر مدير دارفور أن البيقو قبيلة صغيرة وغير مهمة كوحدة إدارية، وقال إن نحاسهم بحوزة سلطانهم علي أبكر، والذي يقرعه في منزله ومركزه في المناسبات، ولكنه لا يحمله إلى السباق القبلي. وقد أوصى بعدم الاعتراف به إدارياً. وهذا ما قرره السكرتير الإداري في مذكرة في أواخر ديسمبر ١٩٤٠. وقد قرر السكرتير الإداري في ٢٠/ ١٢/ ١٩٤١ ألا يعترف بنحاسهم إدارياً. وجاء في مذكرة أن البيقو من قبائل دارفور التي لها حق تاريخي في النحاس ولكن بغير الحق الإداري ـ فانظر!!

نحاس بني هلبة:

وهم قبيلة مهمة بجنوب دارفور، وكان لهم حق تاريخي في النحاس باعتبار أنه كان لهم نحاس معترف به أيام سلطنة الفور. واعتباراً لذلك وبالنظر

إلى أهمية القبيلة من الناحية الإدارية قدمت الحكومة لناظرهم محمد إبراهيم دبكة طاقماً كاملاً من النحاس يتكون من ثور وبقرة وعجلين. وقد ورد هذا النحاس في قائمة نحاسات جنوب دارفور في أغسطس ١٩٣٥، وورد في مذكرة أن الحكومة أجرت صيانة نحاسات بني هلبة وأرسلتها إليهم عن طريق ناظر الرزيقات، وورد في وثائق تالية أن الناظر قام بدفع كلفة الصيانة.

نحاس المساليت:

إلى آخر عهد سلطنة الفور لم يكن المساليت قبيلة موحدة وإنما كانوا منقسمين إلى فروع كبيرة، ويرأس كل فرع رئيس يدعى فرشة. وكان كل فرشة مستقلاً عن الآخر. وقد كثرت الحروب القبلية بين هذه الفروع، بل وفي داخل الفروع نفسها. وعندما جاء العهد التركي كان للمساليت أربع فرش. وكان كل فرع من هذه الفروع مقسماً إلى بدنات مستقلة، وكانت كل بدنة مستقلة عن الأخرى بأرضها وقيادتها، وكان على رأس كل بدنة رئيس يدعى بلغتهم دالاً، وهذا اللفظ هو أصل لفظ دملج الذي يعرف به بعض حكام الأقاليم في دارفور، ويقابل الدالا أو الدملج باللغة العربية الملك، وهو لقب شائع في دار المساليت وفي أنحاء دارفور. والدملج أو الملك هو ممثل قومه، يدير شؤونهم القبلية الادارية والقضائية ويتولى علاقاتهم الخارجية، وهو المسؤول عن أرض البدنة يحافظ عليها ويوزعها على الفروع والأفراد من أبناء القبيلة والأغراب. وبالنسبة إلى أنه المتصرف الأول في شؤون البدنة فإن نقارة البدنة تكون عنده. والواقع أن لفظ الدالا يعني في الأصل مالك الدنقار، أي النقارة. وهذه النقارة هي علامة السلطة والرمز لملكية الأرض وقيادة البدنة، ولكن ناختقال يذكر أن بعض فروع المساليت لم يكن عندهم نقارة. وكانت الدنقارة تصنع من الخشب. وعلى ما تذكر ليدوين التي أرخت لسلطنة المساليت فإن بدار المساليت الآن أكثر من مائة بدنة يرأس كلاً منها ملك، وهذا يعني أن البدنات وحدات صغيرة. وكان أول من جمع المساليت ووحدهم هو هجام حسب الله، وقد صعد إلى القيادة بحكم تعامله مع الأتراك الذين عينوه ودعموه في محاولة للفصل بين المساليت والفور وإضعاف الآخرين بذلك. وكان من أهم إنجازاته أنه أوقف الحروبات الداخلية بين

فروع المساليت. وقد كافأه الأتراك بنحاس هارون الذي غنموه، وكان هارون هذا أحد أبناء السلاطين، وقد ثار علي الترك مطالباً بعودة سلطنة الفور. وقد عد المساليت هذه المكافأة اعترافاً من قبل الأتراك بأنه رأس المساليت عندهم، ذلك لأن العادة قد جرت على أن يعطي سلطان الفور حكام الأقاليم النحاس اعترافاً بسلطتهم القبلية واستقلالهم بأمرها. بيد أن ذلك لم يجعله سلطاناً عليهم بمفهومهم وإنما هو عندهم مجرد حاكم أو بك ينوب عن المصريين. ومن ثم ظل كل فرع يدين لفرشته وكل بدنة لملكها. ومع ذلك تصرف هجام كأنه صاحب الأمر والنهي حتى ثار عليه المساليت وانتصروا عليه في الحرب وحرقوا منازله وقتلوا بعض أبنائه بما فيهم ابنه الكبير مكي. أما هو نفسه فقد فاز بالنجاة. ويقال إنه عند تراجعه سمع صوت طبله الذي كان يضربه أعداؤه بعد أن استولوا عليه فأثاره ذلك فرجع إليهم مهاجماً بعنف واستعاده منهم، وقد غنى المغنون له بهذا المشهد بما يعني أنه عاد مثل الزوبعة وأن أعداءه اندسوا في الجحور. ولسنا نسمع بعد ذلك عن نحاس هجام.

هذه الهزيمة رفعت الفقيه إسماعيل عبد النبي إلى القيادة بالرغم من مناوأة هجام له، فلما بدأت الثورة المهدية واهتزت دارفور استغل هجام الموقف وضغط على إسماعيل واضطره إلى اللحاق بالمهدي في الأبيض وأخذ البيعة. وقد عينه المهدي أميراً على المساليت وأرسله على رأس قوة وتمكن بذلك من هزيمة هجام، وقد اتخذ بلدة درجيل مقراً له، وظل درجيل قاعدة المساليت حتى ١٩١٤. أما هجام فقد لجأ إلى الفور وتعزز بهم وتمكن مرتين من الوصول إلى درجيل وحرقها. ثم هاجمها مرة ثالثة ففشل. وعلى إثر ذلك ذهب إلى أم درمان. أما إسماعيل فقد استمر. ولما غادر محمد خالد دارفور بناءً على طلب الخليفة قسم دارفور إلى خمس ولايات، وكان إن صار يوسف بن السلطان إبراهيم أميراً على الفاشر وكبكابية وأصبح الفقيه إسماعيل عبد النبي مسؤولاً عن المساليت والجهة الغربية. وقد امتد حكمه إلى أربع سنوات. ثم ترك البلاد إلى الفاشر في مايو ١٨٨٨ بدعوة من الأمير عثمان آدم والذي أرسله إلى أم درمان. وقد سجن بها حتى مات.

عندما خرج إسماعيل من الدار بناءً على طلب الأمير عثمان ترك خلفه ابنين هما أبكر وتاج الدين. وقد تولى السلطة أبكر بينما صار تاج الدين يده اليمنى. وأبكر هذا هو أول من حمل لقب السلطان، وقد صارت السلطنة من بعده في بيته إلى اليوم. وقد انتهت المهدية وجاء علي دينار سلطاناً على دارفور والسلطان أبكر مستمر في الحكم. وقد بدأ علي دينار يضغط على المساليت لإخضاعهم، إلا أن المساليت قاوموا بضراوة. وفي إحدى الوقائع وقع أبكر في الأسر وسجن مع جماعة آخرين في الفاشر. وعلى الأثر رشح تاج الدين ابنه محمد بحر الدين الملقب بأندوكا ليكون سلطاناً مكان أبيه، إلا أن باندوكا خسر معركة ضد الفور ومن ثم صار تاج الدين سلطاناً ولمع اسمه في الدار ووجد الدعم من السلطان دود مرة سلطان ودّاي. وقد انتصر على الفدور وقتل قمر الدين نائب قائد علي دينار وأثار بذلك غضب السلطان علي دينار فأعدم أسيره أبكر وبقية أسرى المساليت. كان ذلك في ١٩٠٦، وفي ١٩٠٧ أدرك علي دينار أنه يستطيع أن يهز المساليت ولكنه لا يستطيع إخضاعهم فعقد صلحاً معهم واعترف بسلطنة المساليت. وفي ١٩١٠ قتل تاج الدين في حرب ضد الفرنسيين وتولى السلطنة محمد بحر الدين وعقد صلحاً بينه وبينهم وحددت الحدود بين سلطنة المساليت وبين الممتلكات الفرنسية. وباتفاقية ١٩١٩ صارت دار المساليت جزءاً من السودان.

أما عن نقاقير المساليت فقد سبق أن ذكرنا دناقر الفروع والبدنات المصنوعة من الخشب. وقد اتخذ الفقيه إسماعيل جرساً كان يضربه، وكان يسمى المندوكورة. ولا يذكر مصدرنا حجم الجرس ولا شكله، ولكن هذا النوع من الجرس كان معروفاً في دارفور، وكان يحمله صاحبه على الخيل. وقد توسع السلطان علي دينار في استعماله. وقد أبطله السلطان أبكر واتخذ نحاسات غنمها من الأنصار وجيرانه من الحكام. وكان من بين نحاساته نحاسات سلطان القمر التي غنمها مع بعض نسائه بعد أن انتصر عليه في الحرب في ١٨٩٥ م، وقد أعادها إليه بعد أن تدخل السلطان محمد يوسف سلطان ودّاي في محاولة لرأب الصدع. وكان لأبكر شخص منوط بحفظ النقاقير، وهو يعرف بأبولنقو. ويحكي أن أحد الذين تولوا هذه الوظيفة، ويدعى أبكر، وهو من قبيلة التروج، قد اتهم بالتفريط مما اعتبر جرماً شديداً

فضـرب حتى الموت وألقي بجثتـه في العـراء تحت الشمس إنـذاراً لكـل من تحدثه نفسه باللعب.

وقد جاء في مذكرة مؤرخة في ٢٤ يوليو ١٩٣٥ أن نحاسـات المساليت تبلغ ١٢ نحاساً وأنها كلها تاريخية وأنهـا بطرف السلطان محمـد بحر الـدين. ولمـا أعيد النـظر في النحاسـات القبليـة على ضـوء منشـور النحـاسـات ذكـر المسؤولـون أن نحاسـات المساليت وقمـر لا بد أن تبقى مهمـا كان وضعهمـا بحكم الميثاق الخاص بالقبيلتين.

نحاس الرزيقات:

هؤلاء أقوى قبائل جنوب دارفور، وهم محاربون أقويـاء ويعتمدون على فرسانهم وخيولهم. وقد واجهوا ضغط سلاطين الفور من الشمال وتصـدوا لهم مع حلفائهم من القبائل، ثم تعرضوا لضغط بحارة بحر الغـزال. وبالـرغم من كـل ما تعـرضوا لـه فإنهم ظلوا مستقلين متحـدين. ولما جـاء العهـد التـركي المصـري واجهوا بعض المصـاعب، وقد ازدادت وحـدة القبيلة تحت زعـامـة مادبو علي، والذي قاد قبيلته إلى صف المهدي بينما بقي قليلون بقيادة عجيل الجنقـاوي في صف الإدارة التركيـة المصريـة حتى تمت تصفيتهم نهائيـاً بعد انتصار المهدية. وفي عهد علي دينار تجدد المسرح مرة أخرى ووقعت وقائـع بين الـرزيقات وقـوات علي دينـار خسـر فيهـا الـطرفـان كثيـراً. غيـر أن كـل المحاولات فشلت في إخضاع الرزيقات. وفي العهد الثنائي تنفس الـرزيقات الصعـداء واحتلوا مكانهم كـالقبيلة الكبرى بين قبـائـل البقـارة وأكبـر قـوة في جنوب دارفور. وكانت قيادتها أظهر قيادة قبلية في جنوب دارفور.

وفي مبدأ الأمر لم يكن عنـد الرزيقـات نحاس لأن السلطان لم يعـطهم كمـا جرت العـادة، وكانـوا يعتمدون في أنشـطتهم على الـدنـاقـر الخشبيـة، ولكنهم تمكنـوا من تغنيم نحاس من الفـور في إحدى الـوقائـع، وهـذا الـذي أعـطاهم الحق التاريخي لاقتنـاء النحـاس والـذي على أسـاسـه حصلوا على اعتراف الإدارة الإنجليزيـة. وقد حـازوا على نحاسـات أخرى في الحـروب. وقـد فقد الـرزيقات نحـاساتهم في الـوقائـع التي وقعت بينهم وبين سـلاطين

باشا، آخر مديري دارفور في العهد التركي، إلا أن الأخير سلم لمادبو هذه النحاسات وسيفاً قبل أن يسلم نفسه لمحمد خالد زقل عامل المهدي في دارفور. وقد استولت المهدية بدورها على هذه النحاسات تمشياً مع سياستها الرامية إلى جمع النحاسات القبلية ذات الدلالة الاجتماعية المناقضة لخط المهدية. وعندما جاءت الإدارة الإنجليزية اعترفت للرزيقات بحقهم التاريخي في النحاسات، ولكن ليس من الواضح من واقع مصادرنا مصدر نحاسهم، هل أهدي إليهم من الحكومة أم قاموا هم بشرائه. وقد ظهر نحاسهم في قائمة ١٩٣٥ للنحاسات منسوباً إلى ناظرهم إبراهيم موسى مادبو. وفي نوفمبر ١٩٤١ طلب الناظر عجلين ليكونا مع نحاسهم الكبير أي الثور. ولا نسمع بعد ذلك شيئاً عن هذه النحاسات.

نحاس الهبانية:

وهم قبيلة مهمة من قبائل البقارة بجنوب دارفور. وقد تولى نظارتهم تاج الدين ثم ابنه الغالي ثم ابن الأخير علي الغالي والذي توفي قبل سنوات قليلة. وكان علي قد فصل من النظارة نتيجة لبعض المشاكل، إلا أنه دخل بعد ذلك البرلمان عضواً عن حزب الأمة مما يعني أن نفوذه القبلي ظل قوياً بالرغم مما تعرض له.

أما عن نحاسهم، فقد وردت معلومات عن أمره في خطاب من مفتش جنوب دارفور إلى المدير بتاريخ ٢١ يوليو ١٩٢٩. يقول المفتش إن الناظر تقدم إليه بطلب يرجو فيه أن تعطيه الحكومة نحاساً، وقد عزز طلبه بالقول بأنه طلب من قبل نحاساً من المدير وأن المدير وعده خيراً. ثم استطرد المفتش قائلاً أنه أجل النظر في الأمر لأنه لم يكن راضياً عن موقف الناظر من محكمة الكلكة والذي كان يتسم بعدم الولاء والتعاون. ثم ذكر المفتش أن سلوكه نحو هذه المحكمة قد تحسن، وبالتالي يمكن النظر في موضوع النحاس بشكل موضوعي. وفي تقديره أن الهبانية يستحقون النحاس نظراً إلى عددهم الذي يفوق عدد أي قبيلة أخرى يمكن أن تطلب نحاساً. وقد ذكر أنه يتخيل أن الناظر مستعد لدفع قيمة النحاس، ولكن المبلغ المطلوب كبير عليه، ولذلك اقترح أن تشتري الحكومة النحاس وتهديه إليه. وقد حول المدير هذا

الطلب إلى السكرتير الإداري وعلق عليه قائلاً إنه يعزز الطلب ويستصوب أن تقوم الحكومة بالشراء. وقد تم الأمر كما اقترح وقام الحاكم العام بتقديم النحاس للغالي تاج الدين في ديسمبر ١٩٣٨ في احتفال قبلي كبير بالكلكة. وهو يتكون من ثور وعجلين. وجدير بالذكر أن مديراً لاحقاً لمديرية دارفور تعرض إلى نحاس الهبانية في معرض نظره في طلب قبيلة الفلاتة الذين يعيشون مع الهبانية لنحاس من الحكومة في ١٩٤٥ وقال إن الهبانية أصلاً لم يكونوا مستحقين للنحاس وأن إعطاءهم كان خطأ.

نحاس الفلاتة:

وهؤلاء مهاجرون من غرب إفريقيا واستوطنوا في جنوب دارفور منذ فترة بعيدة واندمجوا في مجتمعه، ولكن لم يكن لهم دار ينسب إليهم. ولكنهم اعتبروا قبيلة متميزة وقد شاركوا في المهدية. وفي العهد الثنائي صارت لهم إدارة تحت ناظر. وورد في مصدرنا من نظارهم السماني أبشر وابنه عيسى.

وفي ١٩٤٥، في عهد ناظرهم السماني أبشر، طلبوا نحاسا ليعززوا به موقعهم الاجتماعي ـ أي الاعتراف لهم بالكينونة القبلية ووضع ناظرهم في وضع إداري وأدبي أعلى، وقالوا في طلبهم إنهم مستحقون للنحاس بالنظر إلى عددهم والضريبة التي يدفعونها وعدد خيولهم في المعارض. ولكن كانت للإدارة الإنجليزية مقاييسها التي تؤدي إلى عكس ما طلبوا. فقد اعترض مدير دارفور في مذكرة إلى السكرتير الإداري في ٢١/ ٨/ ١٩٤٥ على طلبهم معدداً أسباباً إدارية وهي:

١ ـ أن هؤلاء الفلاتة ليس لهم دار خاص بهم.

٢ ـ أنهم قبيلة صغيرة. وهنا يقول المدير مستطرداً إن إعطاء الهبانية نحاساً كان خطأ.

٣ ـ إنه يتصور أن يكون مستقبلهم الإداري في تجمع قبلي حول الكلكة وأنهم في هذا التجمع لن يكونوا الأقوى.

٤ ـ إنه بالنظر إلى هذه الاعتبارات الإدارية يرى أن إعطاءهم النحاس سوف يؤدي إلى تعقيدات إدارية.

إن اتجاه المدير يستند إلى أن القبيلة الرئيسية في المنطقة هي قبيلة الهبانية، والذين يملكون نحاساً أهدته لهم الحكومة لاعتبارات تاريخية وإدارية ولهم نظارة عريقة، وتشمل إدارتهم المسلات والفلاتة ورئاستهم في الكلكة. فإذا سمح للفلاتة بالنحاس فإن من شأن ذلك أن يؤدي إلى توترات للمعارضة المتوقعة من قبل الهبانية. وقد انتهى الأمر برفض الطلب.

نقارة فازوغلي:

كانت بفازوغلي مملكة مشهورة، وقد ذكرها نعوم شقير في تاريخه وأورد صورة لملكها.

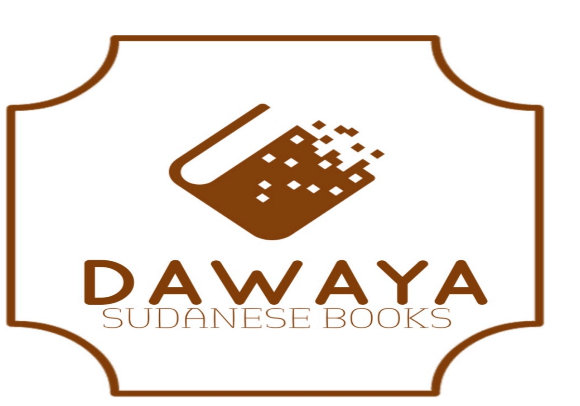
وقد وصف المستر ديزني في مقال نشره في مجلة السودان في مذكرات ومدونات تتويجاً لملك جديد لها في ١٩٤٤، ونحن نورد من وصفه الطرف الذي تظهر فيه النقارة، قال: بعد الفراغ من التتويج، والذي وصل حده بنفخ قرن غزال أحمر أو بقر وحش أحمر معد لذلك ومحفوظ، يبدأ ضرب الطبل، ويقوم به رجل له مقام في الدولة، ويضرب ضرباً بطيئاً مستمراً على الدنقر ليعلن على الملأ أن الملك بخير وأنه توج رسمياً. إن الضرب المتواصل يعني أخباراً جيدة، أما الأخبار السيئة فتكون بثلاث ضربات مكررة مرة بعد مرة. وفي الأيام الغابرة كانت الدناقر تضرب في كل القرى ليصل الخبر إلى كل الأصقاع. وكان الجمهور يستقبل الدقات استقبالاً حميماً بالصياح والزغاريد ودق ما اتفق من الآلات الصوتية، ومؤخراً بالطلقات النارية.

وكان للملك طاقم من النحاس يتكون من ثلاث قطع: ثور وبقرة وشتم. ويلاحظ أن بعض أدوات التتويج كالسيف والطاقية قد أحضرها الملك حسن عدلان من سنجة بينما كانت النحاسات والقرن الذي ينفخ به من آلات ملك فازوغلي الخاصة.

نحاسات جبال النوبا:

كانت حكومة السودان قد أعطت جملة من النحاسات لمكوك جبال النوبا ولكن لم يتوفر لنا من خبرها إلا خبر نحاس قبيلة كادقلي ونحاس ميري.

فعلى أثر القضاء على ثورة الفكي علي في ١٩١٧ صادرت الحكومة نحاس ميري وثلاثة نحاسات أخرى من المنطقة، وقد أهدت نحاس ميري إلى رحال ناظر قبيلة كادقلي. وبعد وفاة رحال خلفه في النظارة ابنه محمد، وبمبادرة منه أعاد نحاس ميري إلى الزاكي الفكي علي زرعاً للعلاقات الطيبة. ومع ذلك أثيرت الزوابع حول هذا النحاس على اعتبار أنه ما زال لدى آل رحال، وقد أثار أمره في البرلمان في ١٩٥٥ نائب حزب الأمة المرموق وناظر عموم قبيلة المسيرية المرحوم بابو نمر. ويبدو أن حزب الأمة كان وراء هذه الزوبعة لأهداف سياسية، إذ إضافة إلى إثارة بابو نمر للقضية في البرلمان تولى أحد أعضاء الحزب إحضار نحاس جديد مدعياً أنه هدية من السيد عبد الرحمن المهدي وأودعه لدى أحد زعماء الحزب، ولكن الحكومة لم تسمح باتخاذ هذا النحاس.


DAWAYA
SUDANESE BOOKS

مصادر البحث ومراجعه

ابن خلدون: مقدمة ابن خلدون.

ابن سيده: المخصص.

أبو سليم، د. محمد إبراهيم: الآثار الكاملة للإمام المهدي مذكرة عن الطبول والنحاسات القبلية. الطبول القبلية، مجلة الوثائق مخطوط النجومي، طرف من أطروحة للدكتوراه (١٩٦٧).

أبو سن، علي: مذكرات علي أبو سن، نشر دار الوثائق المركزية.

أبو علي، أحمد ابن الحاج ـ كاتب الشونة: مخطوطة كاتب الشونة في تاريخ السلطنة السنارية والإدارة المصرية، تحقيق الشاطر بصيلي عبد الجليل، القاهرة.

الألوسي، عادل: لوازم الدراويش، مجلة التراث الشعبي، مجلة شهرية يصدرها المركز الفولكلوري في وزارة الإعلام العراقية، العدد ١١، السنة الخامسة (١٩٧٤).

بخيت، د. جعفر محمد علي: تقرير لجنة تصفية الادارة الأهلية في كردفان.

التونسي، محمد عمر: تشحيذ الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان، تحقيق د. خليل محمد عساكر ود. مصطفى محمد مسعد (القاهرة ١٩٦٥).

الدجاني، أحمد صدقي: الحركة السنوسية، نشأتها ونموها في القرن التاسع عشر (لبنان ١٩٦٧).

زلفو، عصمت: كرري، تحليل عسكري.
السامرائي، عبد الجبار موسى: الغناء والموسيقى عند العرب قبل الإسلام، نفس المجلة، العدد الخامس، السنة الخامسة (١٩٧٤) عدد خاص عن الموسيقى والأغاني.
السباعي، عباس سليمان: إمكانية استخدام الإيقاعات الدينية في الموسيقى وسط السودان، أطروحة جامعية لدرجة الدكتوراه في الموسيقى.
الشريف. د. عون: قاموس اللهجة العامية في السودان، ط ١.
شقير، نعوم: تاريخ السودان، تحقيق د. محمد إبراهيم أبو سليم.
ضيف الله، محمد النور: كتاب الطبقات في خصوص الأولياء والصالحين والعلماء والشعراء في السودان، تحقيق الدكتور يوسف فضل حسن.
عبيد، زكي: مذكرة عن الطبول (النحاس) القبلية (٢٦/ ٨/ ١٩٥٨).
فوزي، إبراهيم: السودان بين يدي غردون وكتشنر الطرق الصوفية في مصر - نشأتها ونظمها وأورادها.
نجيله، حسن: ذكرياتي في البادية.

Arkell, A.J.: Our Sudan, its pyramids and progress fung origins, SNR vol xv (1932) va cubab, note, gezira 66. L. 4 Arkell papers.

Browne, W.G.: Travels in Egypt, Syria and Africa.
Bruce, James.: Travels to Discover the Source of the Nile, vol IV ediubungh, MDCC. XC.

Cunnison, I.: The Baggara Arabs, Power and lineage in a Sudanese Nomadic Tribe.

Disney, A.W.M.: The coronation of the fung kingdom of fazoghly, SNR vol XXVI part 1 (1945).

Gleichen (count) A.E.W.,: The Anglo - Egyption Sudan a compedium (London 1905).

Gunther, J.: Insid Africa (London 1955).

Lidwein, K.: Mahdist Faith and Sudanic Tradtion - History of Dar Masalit 1870 - 1930.

Mac Michael, H.: The Nahas of the kebabish as told by sheikh Ibrahim Faheil, SNR vol XI (1928). A History of the Arabs in the sudan (London 1967). Tribes of Northen and central Kordofan.

Musa, Ibrahim: Thr Role of Nahas in social integration in Dar Fur.

Nachtigal, Gusttav: Sahara and Sudan, vol IV, Wadai and Dar Fur transted by A.G.B. Fisher and H.J. Fisher.

Ofahey, R.S.: State and Society in Dar Fur (London 1980).

Palmer, H.R.: Borno, Sahara and the Sudan.

Spaulding, J.L.: Heroic Age of Sinnar, The Fung Drum or Nahas, SNR vol N No 4.

Tothill, J.D.: Agriculture in the Sudan - being a handbook of Agriculture as Practiced in the Anglo - Egyptian Sudan (London, 1940).

مخطوطات

مجلس المهدي، دار الوثائق القومية، ٢/ د/ ٣.

مجلس التاتاي، أصله بكلية الدراسات الشرقية بجامعة درهام، وصورة بمجموعة المؤلف بدار الوثائق.

ملف: 66. F.1، دار الوثائق، ٧/ ٤/ ١٣.

ملف: 66. L. 1 ملف مشروع الجزيرة.

ملف: ! .L .66 بوزارة الداخلية، وهو المصدر الرئيسي عن طبول السودان في العهد الثنائي والوطني.

خطاب من علي سري إلى كاتب الخديوي في ٥ القعدة ١٢٧٩ ـ دار الوثائق القومية بالقاهرة، وتوجد صورة منها بمجموعة المؤلف.

فهرس الكتاب

القسم الرابع : الآلات الايقاعية

القسم الخامس : الدول والنحاس

العهد الثنائي

القسم السادس: النحاسات القبلية

